الغزو الإسلامي المرتقب

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

السنة 19
العدد 5

تصدرها
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
(مديرية الشؤون الإسلامية)
بالمملكة المغربية
الرباط

دعوة الحق

السنة التاسعة عشر - العدد الخامس
رجب 1398 - ماي 1978 - ثمن النسخة : 3 دراهم

شهرية
تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

فهرس

بيانات إدارية

- تبعث المقالات الى العنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » - مديرية الشؤون الإسلامية
ص ب : 375 - الرباط - المغرب
الهاتف : 10 - 632
- الإشتراك العادي عن سنة : 30 درهما ، والشرفي 100 درهم فأكثر .
- السنة عشرة أعداد . لا يقبل الإشتراك الا عن سنة كاملة .
- تدفع قيمة الإشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 485.55 الرباط .

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

أو تبعث رأسا في حوالة بالعنوان أعلاه .
- ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية بناء على طلب خاص
- **لاتلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر**

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :



●● الغـزو الاسلامـي ؟ ؟ ...

ولم لا ؟ . أفي ذلك ما يتعارض مع المبادىء الاساسية لهذا الدين ؟ لقد لبثنا قرنا ونصف قرن نرد الهجوم ونحمي الديار ونقـاوم الغـزو بالسلاح تارة ، وبالفكر والدعوة وبالتنظيم والتاطير والعمل تارة أخرى ، دون أن نخرج عن دائرة رد الفعل . فهل قدر علينا أن نفني ما تبقى مـن أعمارنا في المواجهة غير المتكافئة ؟ ..

أما حان لنا أن نكسر حاجز التخلف والضعف والهـوان ونقتحـم حصون الخصوم ونملي كلمتنا ونفرض ارادتنا على العالم ؟ .

التحدي الحقيقي الذي يواجه الشعوب الاسلامية هو الانتقال الى منطقة الفعل والتاثير على مسار الحضارة وتوجيه العالم وفق مصالحهـا وآمالها ومطامحها المشروعة .

نحن اليوم ـ حقيقة ـ نوجه العالم ، سواء كنا ندري أم لا ندري . لقد بلغنا طور التاثير ((السلبي)) على السياسة الدولية ومصالح القوى العظمى . والمشكلة ـ الآن ـ : كيف نجتاز السلبيـة في التاثيـر الى الايجابيـة ؟ .

ان الامر هنا منوط بالارادة الحرة ، والرشد الحضاري ، والوعـي المتفتح المتبصر المدرك للابعاد والآفاق الواسعة الممتدة ..

من ينكر اليوم النفوذ الواسع العميق الفور الذي تمارسه الشعوب الاسلامية على الاقتصاد العالمي وانعكاساته المؤثرة على السياسة الدولية ؟ ..

ان امتنا تملك من عناصر القوة وادوات النفوذ ووسائل التاثير ما لا يملكه غيرها ، اذا قسنا الامور بالمقياس المادي الوضعي . أما اذا نظرنا الى الواقع بنظرة مستمدة من ذاتيتنا وعقيدتنا وكياننا المعنوي فلن نجد ما يطمئن المؤمنين ...

لقد كانت تركيا الى العقد الثاني من هذا القرن عاصمة للخلافة الاسلامية ، ودولة ذات قوة ووجاهة ومكانة ، حتى اذا انحازت – كلية – الى الغرب ، وأدارت ظهرها للعرب ، واستطاع رجل مشبوه من ابنائها أن يلغي بجرة قلم الشريعة الاسلامية واللغة العربية والآذان بلغة القرءان على عشرات الآلاف من المآذن ، انقلبت الى دولة تابعة فى فكرها واقتصادها وسياستها وثقافتها وحروف لغتها الى اوروبا التي اذلتها وقهرتها ما شاء لها المكر الصليبي أن يذلها ويقهرها .

لماذا نسوق الحديث عن تركيا ؟ . ما دخل تركيا فيما نحن بصدده ؟ ...

لقد كانت هذه الدولة الاسلامية ذات التاريخ المشرق والمجد التليد بمثابة « حقل تجارب تغريبية » أعطى للاستعمار الاوربي نتائج مشجعة أغرته بنقل التجربة الى العالم العربي والاسلامي فصادف نجاحا يتفاوت فى العمق والاثر الذي خلفه من دولة الى أخرى .

من هنا تكتسب تركيا الحديثة أهمية خاصة فى الحديث عن تطور مسيرة الشعوب العربية والاسلامية خلال قرن ونصف قرن من الزمن .

ان مراجعة سريعة لصفحات تاريخنا المعاصر تضعنا امام حقائق مهولة :

- بعد سنة واحدة من سقوط الخلافة الاسلامية فى تركيا ، ظهرت فى مصر الدعوة القوية – المدعمة بجيش الاحتلال – الى التشكيك فى الشعر العربي الجاهلي كمدخل لاسقاط صرح القرءان الكريم ونسف الاسلام جملة وتفصيلا .

- بعد فترة وجيزة من انتهاء عهد الخلافة الاسلامية بالمشرق تواطات القوى الاستعمارية الاوربية على ضرب المقاومة المسلحة فى جبال المملكة المغربية وصحرائها بعد صمود قل نظيره فى العصر الحديث استمر اثنتين وعشرين سنة .

- امتدت المؤامرة الى الحرف العربي ، فنودي باستبداله بالحرف اللاتيني فى مصر ، اولا ، ثم فى الشام – بمصطلح ما قبل الحرب الكونية – .

دعوة الحق

● بعد أقل من ست سنوات من سقوط الخلافة العثمانيـــة ظهـرت النعرات الاقليمية والعنصرية فى الوطن العربي . فارتفعت أصوات فى المشرق لاقامة دولة للدروز ، وأخرى للعلويـــين ، وثالثـة للمارونيين ، ورابعة للاكراد ، وخامسة بجنوب السودان ... وكانت قمة التحدي للشعور الاسلامي الدعوة الاستعماريـــة ـ هنـــا فى المغرب ـ الى تقسيم الشعب الواحد الى عربي وبربري ، وما عرف يومئذ بالظهير البربري الاستعماري البغيض ..

● هل كانت هذه الاحداث صدفـــة ؟ .

من يقول بذلـــك يلغى عقلــه ..

● هل هناك محاولة جديدة لاعادة هذه الاحداث وتكرارهـــا بصورة أو بأخـــرى ؟ .

المنطق الاستقرائي يقول بذلك .. وكل ما يدور حوالينا ينطق به..

السنا قوة مؤثرة فى الاقتصاد الدولي واتجاهات السياسة الدولية؟ هذا نصف الحقيقة ، اما النصف الثاني فيتعلق بنوعية هــذه القوة ومدى هــذا التاثيــر .

ان القضية ـ باختصار شديد ـ تتطلب تغييراً فى أسلوب المواجهة. ولن يتم ذلك على وجه يحقق الفرض ويوفر الكرامة لامـــة الاســلام الا بالانتقال من طور الدفاع الى مرحلة الهجوم والاكتساح والغزو بالعقـل والعلم والتكنولوجيا والشورى والعدالة الاجتماعية والخلــق المتيــن والتضامن والاخوة والايثار وتطهير الصفوف من العمــلاء والمرتزقـة والمشبوهين فى عقيدتهم وانتمائهم وولائهم لهذه الامة .. ولهذا الدين ..

الغزو الاسلامي المرتقب لن يقوم الا على أساس التفوق الكامل فى الانتاج وامتلاك الادوات المؤثرة فى الحضارة والتغيير فى أنماط السلوك حتى يتحول المسلمون من شعوب مستهلكة فى نهم وشراهة وغباء وتخلف الى شعوب منتجة ممسكة بزمام اقتصادها وصناعتها وزراعتها ومديـــرة لشؤون تعليمها وثقافتها واعلامها وفكرها ...

وتلك هي نقطة الانطـــلاق :

● التحرر من التبعية فى الفكر والاقتصاد والاعلام والتعليم .

● التحرر من الارتباطات والولاءات والاتجاهات التي تفقد الامة الشعور بالعزة والكرامة وتضعف مركزها وتسلب ارادتها وتحد من حريتها .

● التحرر من عقدة النقص بالنظر الى أوروبا نظرة ملؤهـــا الاعتـــزاز بالنفس والثقة فى المنهج والاستناد الى الشعوب العربية الاسلامية..

وتلك ـ فيما نعتقد ـ طريق الخلاص .. وبنـــاء الحاضـــر والمستقبـــل ..

الرد القرآني

على كتيب : هل يمكن الاعتقاد بالقرآن ؟

-12-

للأستاذ عبد الله كنون

ما هي المصالح الممنوعة في القرءان ؟

هذا عنوان كبير لفصل صغير لا يتجاوز صفحة ونصفا ، وهو مع ذلك تافه لا يستحق القراءة فاحرى الرد . ولكننا التزمنا الكر بالنقض لكل اقوال هـذا العبيط ، فلنسر على خطتنا ولننظر في قوله كيفما كـــان .

انه يستهله بما زعم انه آية قرءانية من السورة الثانية تقول : « اذا سبك أحد فاصبر واكثر من عبادة الله فالله معك » ولم يذكر في هذه المرة رقم الآية لا على الخطأ كعادته ولا على الصواب لانه لا توجد في السورة الثانية التي هي سورة البقرة آية بهذا اللفظ ولا بمعناه . فالسفير السوفياتي يكذب على القـرءان ، وهو كذب ليس كالكذب في الدبلوماسية فيغتفر ، انه كذب في العلم ، فيا أسفي على البحث العلمي اذا تولاه من ليس من اهله فانحط الى هذا الدرك ، وعلى أي حال فدعم الشيوعية بمثل هذه الوسائل مما يدل على انهيارها وتصدع بنائها .

ولعل المؤلف قرأ ما جاء في الانجيل من قوله : « اذا ضربك أحد على خدك الايمن فأدر له الخـد الايسر » فسولت له نفسه صياغة آية قرءانية على هذا النسق ، لا سيما مع اعتقاده ان القرءان والانجيل شيء واحد لانهما كتابان دينيان ، والديـن عنـد الشيوعيين لا يختلف . أو هو على راي المبشريـن وبعض المستشرقين الذين يقولون بأن النبي (ص) اقتبس من التوراة والانجيل في تاليفه للقرءان ، فلا بد أن يكون هذا المعنى مما اقتبسه ، ولذلك صح عنده أن يضع آية على غرار ما جاء في الانجيل وينسبها الى القرءان . والا فلماذا لم يذكر رقم الآية في السورة الثانية التي زعم أنها منها ! . . .

هذا والقرآن صريح بمخالفة هذا التعليم اذ جاء فيه **(وان عاقبتم فعاقبوا بمثـل ما عوقبتـم بـه)** (النحل 126) وفيه أيضا **(ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله)** (الحج 60) وفيـه كذلك مدحا للمومنين **(والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفـا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين ولمـن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهـم من سبيـل)** (الشورى 39 — 40) وما لي أنتقـل بيـن السور والسورة الثانية أعني البقرة التي نسب اليها المؤلف تلك الآية المزيفة . قـد جـاء فيها ما يلـي : **(الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثـل ما اعتـدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مـع المتقيـن)** (الآية 194) ولعل هذه الآية هي التي اشتبهت عليه

بما ذكر ، خصوصا وان فيها واعلموا أن الله مع المتقين ، فان يكن الامر كذلك فهو جاهل حتى بمعاني المفردات القرءانية فاي كلام يبقى معه ! ...

والآيات في هذا المعنى كثيرة فلا نطيل بها ، والمقصود أن نبين للمؤلف ان ظنه خاطىء وأن الاسلام غير المسيحية وأن دعوته الى العزة والكرامة والشرف لا تجعل لمعتنقيه مندوحة الى قبول الذل والهوان والاحتقار .

ويعلق المؤلف على الآية المزعومة متسائلا :
لمن يوجه هذا النداء القرآني ؟ في النظام البورجوازي قليلا ما يكون صاحب معمل أو مصنع متعرضا للسب، لان القانون يحميه ، ولان ماله يجعله قادرا على الانتقام ممن يسبه . على العكس من العامل الذي ما عليه فى حال سبه وايذائه من رب المال الا ان يصبر ويكثر من عبادة الله ويعتقد أن الله معه ... والمؤلف فى هذا الكلام يرد على نفسه بنفسه ، فليس فى الاسلام نظام بورجوازي كما ليس فيه نظام شيوعي ، وعلى كل فان كان هناك قانون يحمي صاحب المال فان هناك قوانين ايضا تحمي العامل ، ونقابات تقف بجنبه تمنع عنه الظلم واحرى السب والاذى . وهذا فى النظام البورجوازي الذي الصقه المؤلف بالاسلام على وجه الادعاء والتحكم ، والا فالايراد غير متجه الينا ، على اننا انما نجاري هذا المؤلف فيما زعمه من آيات القرءان وتعاليمه ، وهو فى ذلك مفتر وكاذب على الله .

نعم ما يصوره المؤلف وارد حتما على النظام الشيوعي الذي يسخر العمال تسخيرا ، ولا يعترف لهم باي حق فى الاعتراض ولا فى الاضراب ولا حتى فى العمل حسب طاقتهم فانه يكلفهم فوق ما يطيقون ويعين لهم حجم الانتاج الذي يجب أن ينجزوه وان جاوز طاقتهم ، فان عجزوا عن ذلك عوقبوا اشد العقاب ، بل ربما كان جزاؤهم القتل والابادة الجماعية على ما كان عليه الحال فى ايام ستالين كما يحكى . واخشى ان يكون المؤلف ينتقد هذه الحالة من معاملة العمال فى بلاده ، ولكونه لا يقدر ان يجهر بذلك فانه يرمي بها النظام البورجوازي الذي اتهم به الاسلام وفي الوقت ذاته ينفس عن مشاعره المكبوتة ، وهذا مما يتوافق والمثل العربي القائل « اياك اعني واسمعي يا جارة ! » .

واحب ان القن المؤلف ومن كان على غراره فى الجهالة بالاسلام بعض ما جاء به هذا الدين الحنيف من أحكام وتعاليم فى معاملة العمال والخدم ليعرف الفرق بينه وبين اي نظام آخر سواء كان رأسماليا أو اشتراكيا او سواهما لان الاسلام رسالة السماء وهو نظام قائم بنفسه لايشبهه شيء من هذه الانظمة الوضعية ، ومهما يكن فيها من قوانين محدثة لتحقيق العدالة الاجتماعية وضمان تكافؤ الفرص فى العيش الكريم لافراد مجتمعاتها ، فان الاسلام قد سبقها لذلك بعدة قرون ، وتجافى الحيف الذي فيها على هذا الجانب أو ذاك ، فلم يفرط ولم يفرط (بتشديد الراء فى الثانية) بل ان وسطيته ضمنت مصالح الجميع .

جاء فى الحديث الذي رواه ابن ماجة وغيره عن ابن عمر (ض) انه (ص) قال اعطوا الاجير اجره قبل أن يجف عرقه .. وهو حكم فاصل فى اهم مادة من مواد قانون العمل اعني الاجرة ، يقرره هذا الحديث ويصوغه بصيغة الامر الذي لا يقبل مناقشة ولا مهاودة ، ثم هو يحسم فى أداء الاجير اجره بما لا يدع مجالا للمماطلة أو التأخير ، اذ يعبر عن ذلك بهذه العبارة المؤثرة ، وهي قوله قبل أن يجف عرقه ، اشعارا بما بذله الاجير من جهد وما تحمله من مشقة فى انجاز العمل حتى صار الى الحالة التي جعلته يعرق ، فلا جرم أنه استحق أجره ووجب أن يستوفيه بمجرد أن ينتهي منه ، وخلاف ذلك ظلم وانتهاك للحق كما جاء في الحديث الآخر : مطل الغني ظلم ! (متفق عليه) .

وعن ابي هريرة (ض) رفعه الى النبي (ص) اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما لايطيقون فان كلفتموهم فأعينوهم فانهم لحم ودم مثلكم رواه الجماعة . ان هذا الحديث وان كان وارد فى المملوك الا انه يشمل العامل من باب أولى وأحرى ، وهو يحدد طاقة العمل بمقدرة العامل وينهى عن استنفاد مجهوده فى عمل لا يطيقه الا ان يعينه رب العمل عليه . وهذا الى ما تضمنه من وصاية بالمملوك واحسان اليه بحيث يتساوى هو وسيده فى المطعم والملبس ، وذلك حين كانت القوانين فى روما تبيح للسيد قتل مملوكه ، كما هي فى النظام الشيوعي بالنسبة الى العامل على ما ألمعنا اليه آنفا، فليخرس المتجني على القرءان وشريعته السمحة .

وبلغ اثر هذا الادب الانساني الرفيع في المجتمعات الاسلامية الى ان انعدمت الفوارق بين المشغل والشغيلين وكثيرا ما وقعت المصاهرة بينهما واعتبروا اسرة واحدة . وكان نظام الحرف في فاس وهي المدينة الصناعية المشهورة زيادة على كونها عاصمة الدولة ، يقضي بتبادل الاحترام بين صاحب العمل والعمال ، ولو كانوا من الصبية الصفار ولا يحدث ان يقع بينهم مشادة او خلاف ، فان وقع شيء من ذلك فهناك جماعة من المحكمين تتدخل لفض النزاع بما يحفظ الحق لمن هو له ، رئيسا كان أو مرؤوسا وهذا الى المتولي المختص الذي يسمى بالمحتسب وهو يمنع كل ضيم او تطاول يقع بين ارباب الحرف بمقتضى السلطة القانونية التي كانت له ، وليس هذا في محيط خاص من محيطات العمل بل هو شامل لجميعها وقد كانت في بعضها على ما ادركناه نحن تصل الى بضعة آلاف في المحيط الواحد اي على مثل ما هو الامر عليه الآن في ميادين العمل والصناعة الحديثة وانشاء النقابات واتحادات العمال حسب القوانين المتبعة في ذلك .

ولم يكن الامر في المدن الصناعية الاخرى كمراكش والرباط وسلا وتطوان : يختلف عنه في فاس ، كما هو كذلك في المدن والعواصم الاسلامية في الشرق والغرب ، وبذلك لم تعرف بلاد الاسلام ثورة عمالية من نوع الثورات التي قامت في الغرب لان حقوق العمال فيها كانت مكفولة . وليس يعني كلامنا على الصناع والعمال في المدن ، ان العمال الفلاحين كانوا مهدوري الحقوق فالامر في ذلك على السواء ، اذ ان الشريعة الاسلامية ضبطت حقوق العمال المزارعين بما لا مزيد عليه من الدقة ، وابواب المزارعة والمغارسة والمساقاة في الفقه الاسلامي معروفة وما استحدث في هذا الصدد من اجتهادات واحكام للنوازل الطارئة هو مما خص بالتأليف وتطرقت له كتب العمل الخاص والمطلق .

وفي الصحيح من حديث النفر الثلاثة الذين كانوا في جبل فاخذهم المطر فآووا الى غار فانحطت صخرة من الجبل فاطبقت عليهم الغار فلم يجدوا ملجأ الا الدعاء والتوسل بأحسن عمل عملوه ، فقال الثالث : اللهم اني كنت قد استاجرت اجيرا بفرق ارز فلما قضى عمله قال اعطني حقي فعرضت عليه الفرق فرغب عنه فلم ازل ازرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فجاءني فقال اتق الله ولا تظلمني حقي قلت اذهب الى تلك البقرة ورعاءها فخذها فقال اتق الله ولا تستهزيء بي فقلت اني لا استهزيء بك ، خذ ذلك البقر ورعاءها فاخذه فذهب به . فان كنت تعلم اني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي من فم الغار ففرج الله عنهم . والحديث فيه ضرب مثل للمعاملة الحسنة من رب العمل للعامل عنده ، وهو ان كان خبرا ففحواه الطلب ، ولذلك فان المسلمين بهذا الرصيد الانساني الهائل الذي يتوفرون عليه لم يعرفوا شيئا مما يتحدث عنه المؤلف من سوء المعاملة والاستغلال لجهود العمال في النظام البورجوازي وكذلك في النظام الشيوعي وان سكت عنه هو . وهذا امر عندهم من باب العقيدة وشعائر الدين الذي لا يعلم عنه المؤلف الا ما قاله قادة الشيوعية الثائرون على كل دين ولا سيما الدين الاسلامي الذي يقف قلعة شامخة في وجه اكاذيبهم واضاليلهم ! ...

وهكذا يعقب على كلامه السابق بقول لينين : « ان الدين يلقن الذل والخضوع في هذه الحياة ويمني العاملين الكادحين بالتعويض في الحياة الاخرى، وهو أفيون الشعوب » وهي كلمة قد ابتذلت من كثرة ما تدوولت،خاصة وان الناس لا يرون لها مصدقا في الواقع ؛ بل على العكس يرون ان الذل والخضوع انما هما في النظام الشيوعي الذي يرغم اتباعه على الطاعة العمياء للرؤساء وتنفيذ الاوامر كيفما كانت من غير ملاحظة ولا مراجعة ، الامر الذي تضمحل معه شخصية الفرد وتنسحق ذاتيته تحت سيف الارهاب والتهديد ؛ في حين أن الدين يعلم الاعتزاز بالنفس والاحتفاظ بالكرامة والجراة على قول الحق ونصرة المظلوم ولا يجيز الخضوع الا للخالق عز وجل . ولعل اعظم مثال نعطيه لهذه الحقيقة هو المؤلف الذي نراه وقد خدره أفيون الشيوعية حتى لم يبق يرى لغيرها وجودا في العالم ، فالملايير الثلاثة ونصف من البشر كلهم على خطأ سواء كانوا مسلمين او مسيحيين او غيرهم ، والمصيب هو سبعة الملايين من أعضاء الحزب الشيوعي الذي يحكم الاتحاد السوفياتي ، اعني ان الشعب الروسي والشعوب الاخرى التي يتكون منها الاتحاد وليست منضوية تحت لواء الحزب هي ايضا على خطأ . اليس هذا اعظم تغفيل في العالم ؟ .

ويتعرض المؤلف بعد ذلك في كلمات وجيزة للملكية الفردية فيعيب على القرءان انه يبيحها ، والى نظام الطبقات فيقول ان القرءان يقره ، ويستنكر قطع

يد السارق زاعما أن ذلك من تضامـــن التشريـــع الاسلامي مع الطبقة الغنية ضد الطبقة الفقيرة وحماية مصالحها الشخصية ... أما الملكية الفردية فـــلا يعيب القرءان أنه يبيحها والعالم كله قديمه وحديثه يبيحها ويعتبر نزعها من صاحبها من أعظم الظلـــم وأسوأ الغضب ، وقد تناولنا الكلام عليها غير ما مرة، وحصصناها بالكتابة المستقلة فلا نطيل بأمرها هنا ، لا سيما والمؤلف انما ذكرها استطرادا فى عبـــارة موجزة هي وما بعدها كعادته فى ختام كل فصل من تعميم التشنيع وتنويع الاتهام .

وأما الطبقية بمفهومها الاوربي فلا وجود لها فى الاسلام ولم يعرفها المجتمع المسلـــم فى تاريخـــه الطويل وفى اي قطر من أقطاره ، نعم ان القرءان لم ينكر اختلاف درجات الناس فى الذكاء والعلم والغنى والقوة وما الى ذلك مما هو طبيعـــي فى الحيـــاة الانسانية وواقع لا يرتفع بالانكار ولا يخلـــو منـــه المجتمع الاشتراكي نفسه ، كما المعنا الى ذلك اكثر من مرة فى هذا الرد فما ذا على القرءان ان اقر ذلك؟

بقيت مسألة قطع يد السارق ، وقد غطى عليها اعدام المرتشي فى الاتحاد السوفياتي فالمرتشـــي سارق فى الخفاء ولو قطعت يده لكان أهون من ازهاق روحه ، فالذي حماه القرءان بقطع يد السـارق هـــو الذي يحميه النظام الشيوعي بأفظع من القطع وهو القتل فما بالكم تشاركوننا فى الفعـــل وتفردوننـــا بالانتقـــاد ؟ ...

وبهذا ينفض المؤلف يده من هذا الفصل الذي جعل له ذلك العنوان الكبير ، ولم يورد من ممنوعات القرءان شيئا يذكر ، ونحن ننوب عنه فنختم ردنا على فصله الهزيل بهذه الآيات البينات التي تحتوي على بعض ممنوعات القرءان فى أسلوب جميل وصيانـــة مؤثرة ، قال تعالى : « **وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ، واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، ان ربك يبسط الرزق لمـــن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيـــرا بصيرا ، ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا ، ولا تقربوا الزنى ، انه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ، انه كان منصورا ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلـــغ اشده ، واوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسؤولا ، واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خيـــر وأحسن تاويلا ، ولا تقف ما ليس لك به علـــم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ، ولا تمش فى الارض مرحا ، انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئة عند ربـــك مكروها ، ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله الاها آخر فتلقى فى جهنـــم ملومـــا مدحـــورا)** . صدق الله العظيم .

طنجـــة : عبد الله كنون



حول الزيادة في مقادير الزكوات

للأستاذ الرحالي الفاروقي

لقد وصل الى هيئة المجلس العلمي بمدينة مراكش عن طريق وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ـ مجموعة من الاسئلة حول الزكاة ، واردة من معهد الابحاث الاسلامية بباكستان الدولة الشقيقة ـ وهي اسئلة متعددة ومتكررة ، والمحور الذي تدور عليه والهدف الذي تهدف اليه ، هو رفع الواجبات الزكوية ، والزيادة في مقاديرها الشرعية تبعا لانتشار البؤس والفقر ، ولارتفاع حاجيات العصر ـ ونظرا للفوارق الكبيرة ، التي تفرق بين حياة الضعيف وحياة الغني ، والتي تتباعد تباعدا فاحشا وشنيعا ـ وسدا للطريق على الشيوعية والاشتراكية التي توجهت وتسربت الى البلدان التي تكثر فيها الحاجة ويعيش فيها الفقر ، بهذا الاصلاح المالي الذي يتجلى في رفع مبالغ الزكوات ، ومقادير الصدقات التي توخذ من الاغنياء وترد على الفقراء .

ولقد اجهد باعث الاسئلة الشيخ محمود أحمد نفسه وفكره ، وحاول بعرض الاسئلة المتنوعة والمتنقلة ان يقوي فكرة الزيادة في المقادير الزكوية، وان يقنع بذلك فقهاء الشريعة الاسلامية ، ولكن كل ذلك لا يفيد الوضع الخاص المعروض ، وهو تطوير مقادير الزكاة وتغيير مبالغها بقدر ما يفيد الوضع الواقعي الموجود ، وهو تعلق الهمة باصلاح عام وشامل ، للتخفيف من حدة المشاكل ، وذلك أن الزكاة أخت الصلاة فهي عبادة مالية كما أن الصلاة عبادة بدنية لا تتأثر بكثرة الحاجات والضرورات ، ولا تتغير لاي اعتبار من الاعتبارات ، ما دامت واجباتها محددة ومقدرة من جانب صاحب الوحي صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » ، كما قال سبحانه : « وما آتكم الرسول فخذوه وما نهيكم عنه فانتهوا » ، وقد بين صلى الله عليه وسلم كل شيء ، وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها الا هالك ، ولا نعني بهذا اهمال الفقراء والمساكين وعدم اقامة وزن لهم بل يجب على المسلمين النظر في احوالهم ، وأن يقوموا بحاجاتهم ، ويفرضوا لهم من فضول اموالهم .

قال الله في كتابه الكريم : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين ءامنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير » . « وءاتوهم من مال الله الذي ءاتيكم » . « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » « وما تنفقوا من خير فان الله به عليم » « وما انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » « واقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة » « هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلواتك سكن لهم » « والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

والحق المعلوم كما قال علماؤنـــا هو الزكـــاة والصدقة المأخوذة من الاغنياء ، والمـــردودة على الفقـــراء .

وانفاق المال يكون فرضا وواجبا ويكون تطوعا ومندوبا كما قال الله تعالى فى سورة البقـــرة وفى صفات البررة « وآتى المال على حبه ذوي القربـــى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وءاتى الزكاة » .

قال المفســرون ايتاء المال على حبه هو غير ايتاء الزكاة ، لان الله سبحانه قال بعد ايتاء المال على حبه « واقام الصلاة وءاتى الزكاة » ولو كان ايتـــاء المال على حبه ، هو ايتاء الزكاة بنفسه لكان الكلام تكرارا واعادة محضة .

وعلى هذا فالآية الكريمة نصت على ايتاء المال ندبا وعلى ايتائه فرضا ، وفى الحديث الشريف : ان فى المال حقا سوى الزكاة . رواه الترمذي وابـــن ماجـــة .

وكما ان الصدقة تطلق على الزكاة كذلك الزكاة تطلق على الصدقة « وما ءاتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون » اي من صدقة ، وسميت الصدقة زكاة من حيث انها تزكي المـــال وتوفـــره وتحفظه من الآفات ، وقد قال الله تعالى « يمحـــق الله الربا ويربي الصدقات » .

الامـــوال والمـــوارد :

كانت الاموال تجبى فى دولة الاســـلام مـــن الصدقة الاجبارية ومن الفيء والغنائم وخراج الارض والجزية واعشار السفن المارة بسواحل المسلمين ، واخماس المعادن ، وفوائد الاقطاعات .

اما الزكاة وتسمى الصدقة فتوخـــذ من اموال المسلمين اي من نقودهم وحبوبهـــم ومواشيهـــم وثمارهم ، وتصرف فى مصارف خاصة يتضمنهـــا قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكيـــن والعاملين عليها والمؤلفـــة قلوبهـــم وفى الرقـــاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

ومعلوم ان بعض الموارد لم تبـــق الآن كما ان بعض المصاريف لم تبق الآن ، وسبيل الله فى الآية الكريمة كل اعمال البر الا ان هذه الكلمة صارت اذا ما اطلقت لا يتبادر منها الا الجهاد فتصرف فى لوازمه وتوابعه كما يصرف منها فى الاصنـــاف الباقيـــة واهمها الفقراء والمساكين ، كما ان اعظم المصارف مصرف الدفاع عن حوزة المسلمين .

والزكاة التي تعتبر موردا ماليا هـــي مشروع انساني جاءت به شريعة موسى وعيســـى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وهي بـــاب الضمـــان الجماعي والتعاون الانساني وهي تتعلق بالمال وليست تتعلق بالمالك ، ومن اجل ذلك توخذ من المكلفيـــن وغيرهم كالصبيان والمجانين ، بواسطة اوليائهم ، وتبعا لمذهبهم ــ وتوخذ من المالك الحقيقي وغيره ، فتسد عجز الطبقة الفقيرة ، وتقيم الدليل على عدل الاغنياء نحو اخوانهم الفقراء ، وتربط بعضهم ببعض فتقوي الروابط والصلات ، وتتساند فى الملمـــات والازمات واهميتها لا تخفى على الفضلاء ، وسرها فى الاجتماع لا يغيب عن العقلاء ، ولذا امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان ياخذها من الاغنياء كما قال سبحانه : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلواتك سكن لهم » فكان صلى الله عليه وسلم ياخذها منهم ويصلي عليهم .

وخلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ذهبـــوا هذا المذهب ، واعتبروه امرا لازما ، وجعلوه شرعا دائما حتى قال ابو بكر الصديق رضي الله عنـــه فى حرب اهل الردة : والله لو منعوني عقالا لجاهدتهـــم عليه ، ورجع أصحاب رسول الله صلى الله عليـــه وسلم الى قوله وتابعوه على فعله ، وكان لها ديوان فى مركز الخلافة الاسلامية ، وله فـــروع فى سائـــر الولايات ، وكان لها وال خاص يتولى امرها ، ويسهر على خرصها واخذها وجمعها وحفظها الى أن تـــوزع على اصحابها ــ سئل عبد الله بن عمر رضـــي الله عنهما عن الزكاة فقال : ادفعها لمن بايعـــت ، وروى عنه انه قال ضعوها فى مواضعها ، قال ابو عبيـــد القاسم ابن سلام : ما ذكر من وضعها فى مواضعها انما هو فى زكاة النقدين ، وأما المواشي والحبوب والثمار فلا يليها الا الائمة وليس لربها أن يغيبهـــا عنهـــم اهـ .

ونظرا للمصلحة العامة ، وتبعا لهذه السياسة القارة ، فانه يجب على الحكومات الاسلامية ان تتبنى مشروع الزكاة وتتولاه ما دام موردا من موارد المال ومبدءا من مبادىء الاسلام ، ولا تتخلى عنه لذوي الاموال يستبدون به ويمنعونه عن اهله فان كثيرا من الاثرياء لا يشعرون بوجوبه ، ولا تدع ذوي الحاجات يشتغلون بالخطف والنهب ، والسرقة والغصب ، فتفصل بين الفريقين ، وتحكم بين الجانبين ، بأن تاخذ المال الواجب من اربابه وتوزعه على مستحقيه واهاليه ، ويكون جانبا من جوانب ميزانية الدولة كصندوق الضمان الجماعي ، والتعاون الوطني ، على ان لا يصرف الا فى جهاته المعينة ومواضعه المبينة ، حتى لا تتعطل انظمة الحكم العربي وتتهدم قواعده فى بلد يومن بالاسلام ويخضع لحكمه ، ومن ابرز العناصر التي تنفق فيها أموال الزكاة المجاهدون ، والغارمون ، والعاجزون ، والعاطلون ، ومن انقطعت بهم السبل ، فكل هؤلاء تستمد مساعدتهم ، وتنظم اعانتهم على حساب الزكاة السنوية .

والزكاة وان كانت تبدو شيئا ضئيلا بالاضافة الى مسئولية الامن والتامين التي تتحملها الدولة العصرية ، فانها كافية فى سد الخلات ، ودفع الحاجات عمن لهم حق فى اموال اخوانهم الاثرياء ، والسلطة الشرعية هي التي تؤدي هذا الحق الواجب للضعفاء وتبرىء منه ساحة الكبراء ، وهي الحكم المكلف باقامة العدل بين الطرفين ، واصلاح ذات البين .

وما كانت الزكاة محددة ومقدرة الا وللاسلام قصد فى تاديتها ، وان كان محلها غير مضطر اليها ، لانها قاعدة من قواعده ، وعلامة على وجوده ونفوذه . ولانها حق من حقوق المجتمع الضعيف فلا محيد عن جبايتها ، ولا مناص من تاديتها ، والتفريط فى اخذها ووضعها موضعها ، تفريط فى اهم الاحكام ، واهمال لتشريع الاسلام ، كما انها مطلوبة على الفور من اصحابها ، والتماطل فيها اضرار باهلها .

والفقراء والمساكين وهم اغلب واهم اصنافها ، تتعلق اطماعهم بها وتتشوف نفوسهم اليها ، فهم طالبون لها ان لم يكن بلسان المقال ، فبلسان الحال ، وذلك على عكس التطوعات والتبرعات فانها مطلوبة لهم ولكن على سبيل الاجمال ، والواجبات مطلوبة على التفصيل والتقدير .

وبناء على هذا القدر الذي بين الهدف من توجيه هذه الاسئلة المتقاربة فى مدلولها ومضمونها، والتي انطلقت الى تأييد الفكرة المعروضة وهي رفع مقادير الزكاة والزيادة فى نسبها واعدادها ، فاننا لا توافق على ذلك ولا نؤيده لانه يعتبر استظهارا على الشارع الحكيم ، ومخالفة لما خططه ورسمه ، وقد قال الله جل علاه « وما ءاتيكم الرسول فخذوه وما نهيكم عنه فانتهوا » ، ولاننا لو فتحنا هذا الباب لترتب عليه اختلاف وتنازع فى مقدار الزيادات ، واصناف المزكيات ، حسب اختلاف النظريات والاقتصاديات ، ولعله ينشأ اختلاف آخر فى موضوع آخر ، ويجر ذلك الى ما لا يحمد ولا يغبط — ولاننا لو احكمنا نظام الاسلام فى الزكاة واحطناه بضمانة الامانة والاستقامة والاخلاص فى العمل فتحرينا فى خرصها وحدسها ، وحرصنا على جمعها وحفظها ، وعدلنا فى تفريقها ، ووضعناها فى المحال المخصصة لها ، لربما كانت كافية أو وشيكة والله العليم الحكيم الذي فرضها على الاغنياء ، هو الذي جعلها تسد حاجات الضعفاء فى كل زمان ومكان، والاسلام نفسه لو اخذ بقوة الايمان واحكمت نظمه وصححت أوضاعه ، وسويت أطره ونفذت احكامه لكانت حياته افضل واجمل مما نراه الآن .

ولو فرضنا أن واجب الزكاة لم يكف مع هذا كله لاخذنا من مال الامة ما يسد العجز وما يصون كرامة الفقير والمسكين ، وكنا فى هذا الاخذ عاملين بمقتضى الكتاب والسنة ، كما وضحنا ذلك فى ءايات الانفاق من دون أن نزيد فى حقوق الزكاة ولا ان نقيس على الاصناف لمصادمة ذلك للنص المشروع، ومخالفته للوحي المسموع وكيف يكون ايماننا واسلامنا اذا كان بعضنا عائشا وشابعا ، وبعضنا طاويا وجائعا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا يكون مؤمنا بالله واليوم الآخر من بات شبعان وجاره طاو الى جنبه اه . على انه لا خلاف بين العلماء انه اذا نزلت بالمسلمين حاجة فانه يجب صرف المال اليها ، قال الامام مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء اسراهم ، وان استغرق ذلك أموالهم ، وكذلك اذا انتهت الحاجة بالانسان الى الضرورة وجب على

الناس أن يعطوه وينصروه وان لم تكن الزكاة واجبة عليهـــم .

وبهذا يتحقق معنى التعاضد والتكافـــل بين المسلميـــن .

هذا وان الاستدلال بأحوال الصوفيـــة على الزيادة فى المقادير مما لا معنـــى له لان مذهـــب الصوفية رضي الله عنهم انهم لا يملكـــون مـــع الله شيئا ، والقاعدة أن من لا يملك شيئا لا زكاة عليه ، والناس ليسوا سواء ، فمنهم من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عـــذاب النـــار .

واذا ثبت وتحقق ان الزكاة لا تقوم بحاجـــات الضعفاء ولا تفي بضرورياتهم كما تحرص على ذلك الاسئلة المتكاثرة فاننا ناخذ بماروى عن عمر بـــن الخطاب رضي الله عنه المشار اليه برقم 23 (1) ونعمل بمقتضـــاه ، كما نعمل بما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه المشار اليه برقم 22 ، وكما نوافق على راي الامام ابن حزم ولكن ذلك بحكـــم ضرورة التكافل الاجتماعي والتضامن الاسلامـــي لا بحكـــم الزيادة فى المقادير الشرعية ، كما هو فحوى كلامهم المنزه عن الزيادة فى المقادير الشرعية والحقوق الزكويـــة .

واموال المسلمين تسد كل الثغرات ، وكـــل الحاجات والضروريات ، اذا استدعاهـــا الواجـــب واقتضاها الحال ، فان التكافل الاسلامي أوسع بكثير من نظام الزكاة لانه يتمثل فى عدة خطوط تشمـــل سائر فروع الحياة الانسانية ، وتسع كل الارتباطات البشرية والزكاة خط واحد من هـــذه الخطـــوط الواسعة ــ واما رقم 17 الذي يتحدث عن المكاتـــب التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلـــم الى القبائل فيلاحظ ان النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتاب الصدقة ولم يخرجه من يده صلى الله عليـــه وسلم حتى قبض فاخذه ابو بكر رضي الله عنه وعمل به ، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعمل به ، واستمر العمل على ذلك ، وهذا الحديث هو أصح كتاب فى الصدقة كما رواه أصحاب الكتب الصحاح .

وبهذا يبطل القول ان النبي صلى الله عليـــه وسلم كان يفرض مقادير الزكاة بموجـــب الظروف ــ وبالتأمل الدقيق فى مجموع حديـــث البخـــاري ، والحديث المروي فى سيرة ابن هشام يظهر انه لا تنافي بينهما ، وان كان حديث سيرة ابن هشام لا يلاقي حديث البخاري .

قال ابن رشد فى بداية المجتهـــد ونهايـــة المقتصد : اجمع المسلمون على أن فى كل خمس من الابل شاة الى اربع وعشرين ، فاذا كانـــت خمسا وعشرين ففيها ابنة مخاض الى خمس وثلاثيـــن ، فان لم تكن ابنة مخاض فابن لبون ذكر ، فاذا كانت ستا وثلاثين ففيها ابنة لبون الى خمس وأربعيـــن ، فاذا كان ستا واربعين ففيها حقه الى ستين ، فاذا كانت واحدا وستين ففيهـــا جذعـــة الى خـــمس وسبعين ، فاذا كانت ستا وسبعين ففيها بنتا لبون الى تسعين ، فاذا كانت واحدا وتسعين ففيها حقتان الى عشرين ومائة ــ اجمعوا على ذلك لثبوتـــه فى كتاب الصدقة الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به خلفاؤه ، واستمر العمل به ، نعـــم اختلفوا فيما زاد على العشرين والمائة انتهى .

واعلم ان كل مشروع فى موضـــوع الاغنيـــاء والفقراء تدخلت فيه الحكومة وفرضته لم يكن حلا اختياريا بل يصبح أمرا مفروضا لا خيار فيه لاحد ، والنصوص الشرعية تساعد ولا تعارض .

وكل ما ذكر فى رقم 27 ــ 28 من حديـــث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومن قول وفعل عمر بن عبد العزيز الاموي رحمه الله صحيح ، ولكن لا ينهـــض حجة ، ولا يدل على الزيادة فى مقادير الزكاة التـــي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعبـــرة بالنص فى مثل هذه المشروعات لا بالاستنباط من الكليات والعموميات ، واننا لا نطمئن من خصومـــة النبي صلى الله عليه وسلم اذا قصرنـــا فى حـــق الفقراء والمساكين ، ولا اذا زدنـــا فى المقـــدرات الشرعية وقد هدانا الاسلام الى طريقة العلاج واعطانا كثيرا من النصوص التي تعمل على حل كل مشكل من المشاكل وكل ضرورة من الضروريات .

---

(1) اشارة الى الرقم الترتيبي للاسئلة المطروحة .

وأما تحديد الملكية ، وتقدير الزكاة على الاموال التي لم يذكرها الفقهاء فى كتبهم من كتاب الزكاة فانه لا بأس بذلك اذا اقتضته ظروف الضمان الجماعي لقوله تعالى : « ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو » ولقوله تعالى « خذ من اموالهم صدقة » الآية ، ولكن بشرط أن يكون الاجتهاد فى التحديد والتقدير جماعيا لانسجام النظريات واستقرار التقديرات من دون خلاف ولا نزاع .

ورقم 141 جوابه ان علماء الاندلس نصوا على ان فرض الضرائب لا بأس به اذا كانت ضرورية دعت اليها أوضاع جديدة ومالية .

وايضا فان المدار فى اداء الزكاة على قيمة العملة من الذهب والفضة كانت العملة المتعامل بها ورقا أو شيئا آخر فانها تزكى على حسب القيمة الذهبية أو الفضية ، ولا تسقط الزكاة لانها حق لازم وثابت شرعا فى الذهب والفضة وفيما قام مقامهما .

ونسأل الله سبحانه ان يبصر المسلمين بمصالحهم وأن يهديهم الى حل مشاكلهم على أساس اسلامي صحيح ، وقياس ديني متين .

والحمد لله رب العالمين وسلام على جميع الانبيـــاء والمرسلين .

مراكش : الرحالي الفاروق

فى اعدادنـــا القادمـــة

- سلبيات الطفرة الصناعيــة الحديثــة ودور المسلمين فى المجال التكنولوجــي
- الســت الحــرة حاكمــة تطــوان
- الاستثمــار الاسلامــي للامــوال
- قضايـــا أدبيــة
- الجرجاني الناقد من خلال كتاب الوساطــة .



للأستاذ محمد المنوني

اسمه ـ حسب تحفة النظـــار (1) ـ يتسلسل هكذا : محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم ، وهو ينتسب الى لواتة : القبيلة البربرية التي كانت منازلها الاولى شرق شمال افريقية ، والغالـــب أن منتمـــي المترجم كان الى فرقة مـــن نفس القبيل نزحت الى شمـــال المغرب الاقصى ، ونزلت في طنجة وما اليها ، حيث يوجد بالريف المغربـــي عائلة لا يزال أهلها يعرفون بلقب بني لوي ، على حين ينتسبون في وثائقهم القديمة الى لواتة (2) ، وعلى هذا فان المترجم قد يكون يمت الى الريف بصلة .

وقد اشتهر في بلاده بابن بطوطة ، وهي أسرة مغربية كانـــت في عصر رحالتنا مذكورة بالعلم ، ولما رحل الى الاندلس التقى ـ في طريقه الى غرناطة ـ بقريبه أبي القاسم ابن محمد بن يحيى ابن بطوطة ، وكان في الفترة يتولى قضاء مدينة رندة (3) ، ومن هنا نتبين أن مترجمنا ينتمـــي الى أسرة عرفت بالعلم وولاية القضاء .

ولا يعرف ـ الآن ـ مدلول للقب بطوطة ، وعلى خلاف النطق الشائع ، فان الزبيـــدي في شـــرح القاموس (4) يصحح أن يكون بتشديد الطاء الاولـــى المضمومة ، وهو نفس ما يوجد مشكولا بخـــط ابن خلـــدون .

(1) نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر عام 377 الاحـــالات التاليـــة :

(2) هو ما حدثني به بعض المسنين من فقهاء الـر

(3) الرحلة ج 2 ص 188 ، ومن هذه الاسرة محمد طنجة ـ بابن بطوطة ، هكذا كتب اسمه بتملكه الخشني القيرواني ، وهي التي صارت الى خز

(4) ج 5 ص 109 .

1 هـ ، ج 1 ص 3 ، وهذه الطبعة هي المعتمـــدة في

يـــــف .

بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللواتي الشهيـــر في لمخطوطة « قضاة قرطبة » تأليف محمد بن حارث انة الجامعة الحرة باكسفورد في انكلترا .

ثم انه يذكر في التعريف بالمترجم وصف الطنجي ، ومن الواضح ان ذلك لانتسابه الى طنجة : المدينة المغربية الواقعة عند ملتقى المحيط والمتوسط .

وبهذه المدينة ولد رحالتنا ، في يوم الاثنين السابع عشر من رجب عام ثلاثة وسبعمائة للهجرة(5)، ومنها كان ابتداء رحلته في يوم الخميس ثاني رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة (6) .

وبنفس المدينة ــ فيما يبدو ــ كان تثقيفه ، والظاهر انه لم يرحل للدراسة بفاس ، فهو يذكر انه بارح المغرب أيام السلطان المريني ابي سعيد الاول ، بينما لا يتحدث في «تحفة النظار» عن مقارنات مع مؤسسات فاس في هذا العهد وما قبله ، والمقارنات الواردة في الرحلة انما كانت مع منشئات لابي الحسن او ولده ابي عنان ، حيث شيدت بعدما كان ابن بطوطة خارج المغرب ، ثم رآها لما عاد من رحلته .

والغالب أن المترجم كان على جانب من الثقافة الفقهية ، حيث تاهل بذلك ليكون قاضيا بركب حجاج تونس (7) ، ثم صار قاضيا بالهند (8) ، وفي جزر المالديف التي يذكرها باسم ذيبة المهل (9) ، وسنرى ــ بعد هذا ــ انه تقلد نفس المنصب في موطنه بتامسنا .

وسوى الفقه كان لرحالتنا المام بالتوحيد ، فنراه عند ذكر دمشق يتحدث عن شخصية ملمسة في مسالة كلامية (10) .

وكانت له مخالطة للنحو ، وهو يلاحظ على خطيب جامع البصرة انه كان يلحن في خطبة الجمعة (11) .

وقد اورد في الرحلة قطعة من شعره في سبعة ابيات يمدح بها سلطان الهند ، فدلل على المامه بالادب (12) .

وسوى هذا وذاك كان له اعتناء بسماع الحديث على مشايخ المحدثين الذين يلقاهم بالشرق الاسلامي (13) .

وهكذا نتبين ان المترجم يتوفر على ثقافة في الفقه والتوحيد والنحو والادب والحديث ، ويبدو أن درجة معرفته بهذه المواد كانت متوسطة ، وهو ما يشير له ابن الخطيب (14) حيث يقول عنه : « لديه مشاركة يسيرة في الطلب» ، ويدل لهذا ــ مرة اخرى ــ أن ابن جزي هو الذي تولى تدوين املاءاته عن رحلته، حيث كلف الاديب الغرناطي بان يكتب كلام الرحالة ويهذبه ، ويعتمد ايضاحه وتقريبه .

ومن مكملات ثقافة المترجم انه تعلم التحدث باللغتين الفارسية (15) والتركية (16) .

والآن ننتقل الى الجانب الاخلاقي من حياته ، وقد كان مومنا الى أبعد حد ، وفي رحلته أكثر من شاهد لهذه الظاهرة ، فقد تخلى عن زيارة كنيسة ايا صوفيا بتركيا لما كان الداخل لها يسجد للصليب (17) ، كذلك واجه بانتقاد سلطان عربستان

---

(5) الرحلة ج 1 ص 5 .
(6) المصدر ج 1 ص 4 .
(7) المصدر ج 1 ص 7 .
(8) المصدر ج 2 ص 84 .
(9) المصدر ج 2 ص 132 .
(10) المصدر ج 1 ص 57 .
(11) المصدر ج 1 ص 116 .
(12) المصدر ج 2 ص 83 .
(13) المصدر ج 1 ص 65 ــ 66 ، 135 ، 142 .
(14) « الاحاطة » مخطوطة المكتبة الاحمدية بفاس ، وعن هذا المصدر : ابن حجر في « الدرر الكامنة » : الطبعة الاولى ج 3 ص 480 .
(15) الرحلة ج 1 ص 199 .
(16) المصدر ج 1 ص 181 .
(17) المصدر ج 1 ص 226 ــ 227 .

وهي ـ الآن ـ من اقاليم ايران ، ونهاه عن شـرب الخمـر (18) .

وجاور بمكة المكرمة ثلاث سنوات ، وكان يعظم الاتقياء من المومنين ، وتزوجه اثناء رحلته دليل على تدينـه .

وهو سريع التخلق بأخلاق البلد الذي يقيم به ، كما انه رقيق الشعور ، يفرح ويحزن لادنى سبب ، هذا الى انه كان جوادا محسنا .

وقد نوه به السلطان المريني ابو عنان ، فنظمه في عداد رواد المجلس العلمي الذي كان يعقده بالقصر الملكي من فاس الجديد (19) ، ثم صار قاضيا في تامسنا : بمدينة انفا وما اليها ، واستمر قاضيا الى عام السبعين بعد سبعمائة ، ثم توفي وهو يتقلد خطة القضاء (20) في تاريخ لم يتحدد بعد .

* * *

على ان المهم في حياة ابن بطوطة ، هي تلك الرحلة الطويلة العريضة التي جاب فيها آسية وافريقية وبعض أوربة ، وقضى في سياحته ما يناهز ثلاثين عاما ، هذا الى ذاكرته القوية التي قلما تخونـه في تسجيـل ارتساماته عن مشاهداته في رحلتـه .

ولهذا نتناول تحليل تحفة النظار ، ونسير في عرضها حسب النقط التالية :

— تاليفهـا ونشرهـا .
— منهجهـا .
— قيمتهـا .
— ملاحظـات ختاميـة .

وتبرز ـ اولا ـ ان الرحلة صارت تحمل عنوان « تحفة النظار في غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار » وهي عمل مشترك بين ابن بطوطة وابن جزي : محمد ابن محمد الكلبي الغرناطي : الاول أملاها من حفظه ، بعدما كانت مذكراته ضاعت منه في حادثة لصوصية بالمحيط الهندي (21) بينما كان الثاني هو الذي كتب الاملاءات من انشائه ، مع احتفاظه ـ أحيانا ـ بكلام الرحالة على وضعه ، وقليلا يضيف زيادات من كلام بعض الرحالين السابقين والادبـاء ، أو من كلامـه نفسـه .

وهناك طرف ثالث اشترك في ابراز هذا الاثر ، وكان هو ابا عنان : العاهل المريني الذي اشار باملاء الرحلة وتدوينها ، وحدد منهجها في خمس نقط يلخصها ابن جزي هكذا : « ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي» ابن بطوطـة :

— ما شاهده في رحلته من الاقطار .
— وما علق بحفظه من نوادر الاخبار .
— ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار .
— وعلمائهـا الاخيـار .
— واوليائهـا الابـرار .

ثم كان فراغ ابن جزي من تاليف هذا المشروع، في شهر صفر من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، وتوفي ـ بفاس ـ في نفس العام ـ بعد الفراغ من عمله بمدة وجيـزة .

وكان اسلوبه في كتابة الرحلة يغلب عليه الطابع الادبي ، ويتأثر بأسلوب ابن جبير ، أما أسلوب ابن بطوطة في عرض الاخبار ، فهو ـ في غالب الاحوال ـ يتثبت في الاشياء التي يسوقها ، ويتحرى في ايراد ما يشك في صحته ، فيصدره بمثل يقال او زعموا او نحو ذلك ، وربما يقول نسيته ، وغير ما مرة يأتي بمقارنات بين مشاهداته في مختلف انحاء العالم التي زارها .

وله ملاحظات صائبة يعلق بها على بعض ما يلفت نظره من احوال البلاد التي زارها ، كما يفسر المصطلحـات الشرقيـة .

---

(18) المصـدر ج 1 ص 124 .
(19) ورد اسم المترجم ضمن اللائحـة المطولة للشخصيات التي كانت تحضر هذا المجلس ، حسب آخر شرح البردة البوصيرية للجادري ، مخطوط القرويين رقـم : 643 .
(20) حسب « الاحاطة » و « الدرر الكامنة » ج 3 ص 481 .
(21) الرحلـة ج 1 ص 238 .

واقدم طبعة للرحلة وقعت فى منتصف القرن الماضي بباريس ، واضيف الى النص العربي ترجمة فرنسية ، حيث ظهر المجموع فى اربع مجلدات ، ثم طبعت فى القاهرة مرات متعددة : تامة او قطعا منها ؛ وجاء المستشرق الانكليزي Cipp فوضع ملخصا لها بالانكليزية نشر سنة 1929 م ، ومن اهم مخطوطاتها مخطوط المكتبة الاهلية بباريس ، وهو بعض النسخة التي خطها ابن جزي بيده .

* * *

والآن يصل بنا المطاف الى منهج الرحلة ، وكما هو الشأن فى كتابة الرحلات ، فقد صاغها مدونها محتذيا الطريق التي سلكها ابن بطوطة فى تنقلاته مسافة فمسافة ، ومن هنا يمكن أن نقسم ترتيب تحفة النظار الى ثلاث فترات رئيسية : زار فى الاولى شمال افريقية والشرق ، وفى الثانية الاندلس الاسلامية ، وفى الثالثة السودان الغربي .

وتعتبر الفترة الاولى أطول المسافات وأهمها ، ويمكن تصنيفها فى تسع مراحل نستعرضها واحدة فواحدة .

ويلاحظ عن المرحلة الاولى أن المترجم حين يذكر خروجه من مسقط راسه ، لا يحدد ـ بعد ذلك ـ الطريق التي مر بها من طنجة الى تلمسان ، ولا يمكن أن يكون سافر على البحر ، حيث انه يؤكد ان اول ما ركبه كان بعد هذا : فى سفره من جدة الى اليمن (22) ، على أن أقرب طريق من طنجة الى تلمسان ، هي الطريق الجبلية المارة باقليم الحسيمة، فلا يبعد أن المترجم سافر عليها الى قاعدة المغرب الاوسط .

وقد اخترق فى هذه المنطقة من شمال افريقية: طريق الوجه البحري ، فانتقل من تلمسان الى مليانة، الى مدينة الجزائر ، ثم مر ببجاية فقسنطينة ، فبونة التي صارت تعرف بعنابة .

ومن تونس العاصمة الحفصية سار الى سوسة فصفاقس فطرابلس ، ثم مر بالاسكندرية ودمياط حتى انتهى الى القاهرة ، ومنها ينتقل الى مدينة عيذاب وكانت ـ فى هذه الفترة ـ تعتبر مرفئا مهما على الساحل الافريقي للبحر الاحمر جنوبي مصر .

* * *

ولما لم يكن الطريق البحري آمنا ، فقد عاد الرحالة من عيذاب مبتدئا المرحلة الثانية ، وسافر من مصر منتقلا بين مدائن فلسطين ولبنان وسورية، وخرج من دمشق الى الحج ، حيث زار الحرمين الشريفين: مكة المكرمة والمدينة المنورة .

* * *

ومن هذه الاخيرة تابع سفره فى المرحلة الثالثة مخترقا العراق ، فزار النجف الاشرف . وواسط . والبصرة . وبعض مدن ايران : مثل تستر . وصبهان وشيراز وكازرون ، وعاد الى العراق فزار مدينتي الموصل وديار بكر التي صارت تسمى بشامل، ومن بغداد سافر الى الحرمين الشريفين، وجاور بمكة المكرمة ثلاث سنوات .

* * *

وفى المرحلة الرابعة ساح فى اليمن وسائر جنوب الجزيرة العربية ، فافريقية الشرقية ، ومن الخليج الفارسي عاد الى زيارة الحرمين الشريفين حيث حج للمرة الخامسة .

* * *

وسافر فى المرحلة الخامسة ـ عبر مصر والشام ـ الى آسيا الصغرى وشبه جزيرة القريم وروسيا الجنوبية ، ووصل الى جبال القوقاس ومدينة بلغار .

* * *

وعاد الى القوقاس ليغادره ـ فى المرحلة السادسة ـ الى القسطنطينية مارا على شبه جزيرة البلقان .

---

(22) المصدر ج 1 ص 154 .

وفي المرحلة السابعة سافر الى خوارزم وبخارى وافغانستان والسند ، وهي – الآن – مقاطعة في باكستان ، وانتقل منها الى الهند ، واقام في عاصمتها دهلي حوالي ثمانية اعوام ، تولى – خلالها – خطة القضاء على المذهب المالكي .

* * *

وانتهى – في المرحلة الثامنة – الى جزائر ذيبة المهل ، وهي التي صارت تعرف باسم جزر المالديف في ماليزيا ، وقد اقام بها ثمانية عشر شهرا ، وتقلد بها ولاية القضاء على المذهب المالكي ايضا ، ثم زار جزيرة سيلان والملايو وسومطرا ، ووصل الى بكين : العاصمة الصينية ، في سفاره من سلطان دهلي الى خان الصين .

* * *

وبمغادرة العاصمة الصينية تبتدىء المرحلة التاسعة والاخيرة من سياحة المترجم في افريقية والشرق ، وقد سافر من بكين مارا على سومطرا ، ثم الخليج الفارسي ، ومن بغداد مر بدمشق ففزة فدمياط فالاسكندرية فالقاهرة ، ومنها حج – للمرة السادسة – الى مكة المكرمة ، وزار المدينة المنورة، ثم انقلب عائدا الى المغرب عبر مصر وشمال افريقية، حتى وصل مدينة فاس أواخر شعبان من عام خمسين وسبعمائة ، بعد رحلة استغرقت ما يزيد على خمسة وعشرين عاما .

* * *

وبعد ما مثل امام ابي عنان المريني في نفس المدينة قصد مسقط رأسه طنجة ، ومنها توجه للاندلس من مرسى سبتة ، وهذه هي الفترة الثانية من الرحلة ، وقد زار بالاندلس جبل طارق ورندة ومالقة وبلش وغرناطة ، ثم عاد من نفس الطريق التي سافر عليها حتى وصل الى سبتة ، ومنها انتقل الى اصيلا فسلا فمراكش ثم مكناس ففاس .

وكانت خاتمة مطاف الرحالة ، أن سافر من فاس متوجها الى السودان ، وهي الفترة الثالثة والاخيرة من الرحلة ، وقد ذهب الى سجلماسة،ومنها الى تغازي ، فايو الاتن ، فمالي ، فتنبكتو ، فكوكو ، واخيرا مدينة تكدا ، ومنها عاد – عبر واحات توات – الى سجلماسة ، وقد وصل اليها في الثاني من ذي الحجة ، عام أربعة وخمسين وسبعمائة ، حيث انتهى المترجم من رحلته التي تبينا تصميمها .

* * *

وسيبقى – بعد هذا – معرفة قيمتها ، وفي هذا الصدد يلاحظ – أولا – أن تحفة النظار ، ليست كتابا وصفيا للبلاد والجبال والانهار التي رآها ابن بطوطة، وانما هي عبارة عن نسخة من الصور التي ارتسمت في ذهن الرحالة عن الاشخاص والناس الذين القت بهم الصدف في طريقه ، ولهذا فان قيمة الرحلة في انها صفحة من التاريخ الاجتماعي الاسلامي أكثر من أن تكون كتابا في تقويم البلدان والجغرافيا (23) .

* * *

وفي هذا الاطار فان الرحالة يلم الماما بوصف المدن الكبرى، ويتوسع في الحديث عن ملوكها وسيرهم وتقلبات أحوالهم ، ويعتني بوصف مواكبهم وحفلاتهم الى حد ان يصف حتى الاطعمة والمشارب .

كما يذكر العلماء والحكام والاعيان ، وكذلك الاولياء ، ويذكر كراماتهم ومشاهدهم ، وقد كان شديد البحث عنهم ، حتى أنه يترك طريق السياحة ليزور ناحية فيها ولي .

هذا الى اهتمامه بذكر الربط والجماعات ، مع اعتناء زائد بالعادات والازياء والاخلاق والعقائد . وحتى الخرافات .

ولم يهمل الرحالة الحديث عن آثار التاريخ القديم بالمدن وما اليها ، وكذا عن الانظمة الحكومية ، وعرض بعض القوانين السياسية مثل قوانين جنكيزخان (24)

وفي مجال الاقتصاد يذكر اهم ما يختص بالمدن التي زارها : من منتجات زراعية أو صناعية ، ولا تفوته الاشارة الى الطريف أو الغريب منها ، ويتحدث – أيضا – عن العلاقات الاقتصادية ، والحيوانات النادرة ومكانها ، وعن بعض المعادن ومواقعها .

---

(23) دائرة المعارف الاسلامية : النص العربي ، مج 1 ص 100 .

(24) الرحلة ج 1 ص 241 – 242 .

ومن مزايا رحلة ابن بطوطة انها الاولى التي كشفت عن كثير من الانظمة والمظاهر الحضارية للجهات التي زارها .

فهو يذكر عن دمياط ـ البلدة المصرية المعروفة ـ انها قاعدة عسكرية مسورة ، وكل من دخلها لم يكن له سبيل الى الخروج منها الا بتوقيع الوالي ، فمن كان من الناس له اعتبار يمنح الاذن بورقة مختومه بطابع ، ومن كان دون ذلك يوضع الطابع على ذراعه (25) .

ويذكر عن نزالة قطيا في حدود مصر والشام : انه لا يقع المرور عليها الى الشام الا بجواز مصري مكتوب ، والقادم من الشام يطالب ـ بدوره ـ بجواز مكتوب من الجهة الشامية (26) .

كما يذكر عن دمشق قصة وقف الاواني المتكسرة في ايدي الصبيان ، ويعلق عليها بأن فيها جبرا لقلب كل من الصبي وصاحب الاناء (27) .

وهو يتحدث ـ اسهاب ـ عن الزوايا والرباطات التي كانت منتشرة بالشرق العربي وبلاد فارس وآسيا الصغرى ، ويعطي معلومات قيمة عن نظام هذه المؤسسات بمناسبة حديثه عن خانقاه القاهرة (28) .
ومن اطرف ما في الرحلة حديثه عن جماعات الاخوان أو الفتيان التي كانت موجودة في تركيا (29) .
واهمية اخرى لحديثه عن تركيا ، فهو يعطي صورة للدولة العثمانية في ايامها الاولى ، ويصف الدويلات والامارات التركية بآسيا الصغرى ، قبل ان يجعل منها العثمانيون دولة موحدة .

وان رحلة ابن بطوطة تعد مرجعا ـ من الدرجة الاولى ـ فيما يرجع لعادات واحوال القريم وروسيا الجنوبية .

اما وصف رحالتنا للقسطنطينية ، فهو صورة قيمة لها ؛ قبل أن يغير العثمانيون بعض معالمها بعد فتحها .

ولدى حديثه عن بخاري ذكر ان شواهد القبور الموجودة في مدافن علمائها ، كانت تتضمن اسماء الكتب التي صنفوها في حياتهم (30) .

وفي وصفه للسفن الصينية ، ذكر أنه كان بتلك السفن ما يسمى ـ الآن عند شركة الملاحة البحرية باسم « كاليني دلوكس » (31) .

وان وصفه لجزر المالديف يعتبر اول وصف معروف لها حتى الآن .
وهو اول من ذكر شيئا عن استعمال اوراق النقد في الصين ، وعن استخدامهم الفحم الحجري ، كما ذكر مهارتهم في التصوير ، وعادات رجال الادارة البحرية في تقييد اسماء البحارة وركاب السفن قبل الاذن للمراكب بالسفر ، واعجب ببعض منشئات الشؤون الاجتماعية في هذه البلاد ، كما سجل نظام التأمين الاجتماعي في الصين (32) .
اما ما كتبه عن الصحراء الكبرى والسودان ، فقد اثبت به انه اول رحالة جاب الافاق المجهولة في هذه الجهات وكتب عن مشاهداته فيها (33) .

---

(25) المصــــدر ج 1 ص 17 .
(26) المصــــدر ج 1 ص 31 .
(27) المصــــدر ج 1 ص 63 .
(28) المصــــدر ج 1 ص 20 ـ 21 ، 119 ، 120 ، 125 .
(29) المصــــدر ج 1 ص 181 ـ 182 ؛ ، 187 ، 196 . ولتحليل انظمة هذه الفتوة الاسلامية وابعادها ، يحسن الرجوع الى دراسة مطولة بعنوان « فتيان الشرق وفرسان الغرب » حيث نشرت ـ في سبع حلقات ـ « بمجلة المستمع العربي» التي كانت تصدرها هيئة الاذاعة البريطانية : من العدد 17 الى عدد 23 : السنة الثانية ، مع « دائرة المعارف الاسلامية » النص العربي مج 13 ؛ ص : 179 ـ 181 عند مادة « الشد » .
(30) المصــــدر ج 1 ص 238 .
(31) المصــــدر ج 2 ص 116 .
(32) المصــــدر ج 2 ص 160 ـ 163 .
(33) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن ، نشر دار المعارف بمصر ، ص 171 .

وفى الرحلة ـ فوق هذا وذاك ـ معلومات عن المغرب المعاصر للمترجـــم .

وقبل ان ناخذ فى عرض ذلك ، يكون من المناسب التذكير بأن تدوين الرحلة خضع الى المنهـــج الذي حدده أبو عنان للرحالة ، وقد تبينا انه يتـــدرج فى خمس نقط يلخصها ابن جزي محرر الرحلة هكذا :
ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي ـ ابن بطوطة ـ

ـــ ما شاهده فى رحلته من الاقطار .
ـــ ما علق بحفظه من نوادر الاخبار .
ـــ ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار .
ـــ وعلمائها الاخيـــار .
ـــ واوليائهـــا الابرار .

* * *

وعلى ضوء هذا التصميم ، فان المترجم لـــم يهتم بوصف اي من مدائن المغرب فى مرحلة ذهابه عند بدء سياحته ، وفى مرجعه أثبت ارتسامات وجيزة عن بعض الامصار المغربية ، وضمنها ذكر مآثر السلطان المريني ابى الحسن وابنه ابي عنان ، وهذه المدن هي : فاس ومراكش ومكناس وسجلماسة .

وقد حظيت فاس من الرحالة بوصف المدرسة العنانية بالبلد القديم ، وفى فاس العليا نوه بمسجدها الجديد ، وبزاويتها التي كانت تعرف بدار الضيوف .

وهو يذكر مدينة مراكش بسعـــة ارجائهـــا ، وانفساح نواحيها ، وضخامة مساجدها ، ووفـــرة الخيرات بها من الفواكه والاقوات ، ويلفت نظـــره ـ بصفة خاصة ـ جامع الكتبيين وصومعته ، والمدرسة المرينية ، مع الخراب الذي استولى على المدينة .

وبعد هذا يصف مكناسة الزيتون ، ويذكر مـــا يحيط بها من البســـاتين التي تحفها أشجار الزيتون من سائر جهاتهـــا .

كما يسجل عن سجلماسة أنها من احسن المدن ، ويخص بالمدح تمرها ، ويلاحظ عن بعض أصنافـــه انها لا نظير لها فى المعمور .

وهكذا نتبين ـ من هذا العرض ـ وجهة نظر ابن بطوطة فى اعراضه عن وصف المدن المغربية وصفا كاملا ، بعدما رجعنا الى المنهج الذي خطه ابو عنان لتدوين الرحلة .

* * *

وسوى هذا فان تحفة النظار تعرضت لمواخذات وجيهـــــة .

وبالاضافة الى بعض الاغلاط التي نبه عليهـــا ابن جزي (34) ، يوخذ على ابن بطوطة المبالغات التي كتبت بها بعض اجزاء الرحلة .

كما يوخذ عليه اقتضاب الحديـــث فى بعـــض المواضيع مثل ما فعل فى الصين ، ويمكن أن يكون ذلك راجعا الى ضياع المذكرات الاولى للرحلة .

ويوخذ عليه ـ ايضا ـ انه اخطـــا فى نهـــر النيجر فسماه بالنيل ، على حين أن الادريسي ذكره قبله ، وهذا يدل على أن ابن بطوطة لم يكن طالـــع كتب تقويم البلدان .

ويوخذ عليه ـ للمرة الرابعة ـ وجود اخبـــار غير مطابقة الواقع ، مثل ما حكاه عن ابن تيمية فى قضية النزول ، فى حين أن هذا فى تاريـــخ دخول الرحالة لدمشق كان فى السجن ، باتفاق الذيـــن ترجموه : مثل ابن عبد الهادي ، وابن كثير (35) ،

---

(34) انظر ـ مثلا ـ ج 1 ص 126 من الرحلة .
(35) للشيخ عبد الرحمن الوكيل : « ابن بطوطة يفتري الكذب على ابن تيمية » ، مجلـــة « الهـــدي النبوي » ، العدد 4 ، المجلد 15 ، ص 202 ـ 207 .

ويمكن ان يقال في مثل هذا ان ذاكرته خانته ، او انه التبس عليه الامر .

* * *

وبسبب هذا كله لم تزل الانظار مختلفـــة في ابن بطوطة ، فابن خلدون يحكي أن الناس يتشككون في اخباره (36) ، بينما وثقة ابن جزي مدون رحلته (37)، ونوه بهاسماعيل ابن الاحمر الغرناطي نزيل فاس (38)، وكان البلفيقي رماه بالكذب فبراه ابن مرزوق . وقد سجل هذا الاخير عنه أنه لا يعلم أحدا جال البـــلاد كرحلتـــه (39) .

الربـاط : محمد المنوني

---

(36) المقدمة ، المطبعة البهية المصرية ، ص 158 .

(37) يصفه في مقدمة الرحلة بالثقة الصدوق ، ج 1 ص 3 .

(38) ذكره بحلية الفقيه القاضي الخطيـب ، الحاج ، الكثير الجولة بالمشرق والمغرب ، العـارف بالتاريخ ، وذلك بمناسبة عرض لائحة الشخصيات التي تحضر المجلس العلمي في حضرة أبي عنان، ونقل ذلك عن ابن الاحمر تلميذه الجادري آخر شرح البردة البوصيرية : المخطوط المشار له عند التعليق رقـم 19 .

(39) « الدرر الكامنـــة » ج 3 ص 481 .



المجلد الرابع من « الوثائـق »

● عن المطبعة الملكية صدر المجلد الرابع مـن دورية « الوثائق » ، ويتضمن نصوصا وظهائر شريفة تتعلق بفترة هامة من تاريخ الدولة المغربية .

من مظاهر الوحدة العربية والاسلامية

الرحلات الحجازية

وصلت بين شقي العروبة

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله .

لا يوجد في تاريخ الانسانية موقع جغرافي حج اليه ملايين البشر في كل جيل مثل الجزيرة العربية، ولا يوجد موطن استقطب خمس الانسانية في طموحاتها الفكرية وتطلعاتها الروحية مثل الحجاز ، الوطن الروحي الاول لكل مؤمن ، فادعاء الاغتراب في مهبط الوحي ومنطلق الرسالة المحمدية هو شذوذ في عقيدة كل مؤمن يستشف في مثوى الرسول رمز الرحمة والمثالية واشعاع الروح وايماض الوجدان فلذلك لم تعرف ولن تعرف مواقع السياحة الدولية مسارا أكثر استراحا وأشد استمراحا من هذه الارض الطاهرة التي ظلت كعبة الرواد منذ انطلقت دعوة ابراهيم الخليل الاب الثاني للبشرية تذكي الافئدة والمشاعر خلال اربعة آلاف من السنين وشاء القدر الذي هيا لهذه البقعة المقدسة ان تكون منارا للانسانية جمعاء — ان تكون أيضا منطلق الحضارات التي اشعت على الرافدين ونهر بارادا والبحر المتوسط وقد جمعنا الحجج التاريخية النابعة من الحفريات الاثرية ومقارنة اللهجات السامية الدالة على ان الجزيرة العربية هي منبثق الحضارات السامية التي كيفت اقاليم الهلال الخصيب وما وراءه اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ولذلك يمكن القول بأن العرب البائدة الاصلية هي التي نزحت من جنوب الجزيرة العربية حول الالف الثانية قبل الميلاد الى جنوب العراق واستقرت في مناطق بابل الى آسيا الصغرى ومنها انطلق الآخيون والدوريون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد الى بحر ايجه لتأسيس ممتدنات اليونان . (1)

فلا بدع اذن ان تستكمل الجزيرة العربية مسارها الحضاري في تاريخ المستقبل لانها هي النبع الوحيد الذي يفيض ليغمر تواريخ الانسانية في كل مكان وخاصة في المعمور الذي رفرفت عليه الوية الاسلام .

وقد تجلت هذه النفحات في آلاف الرحلات التي دونها المسلمون طوال أزيد من الف عام في

(نص محاضرة القيت في مؤتمر العالمي لتاريخ الجزيرة العربية اوائل عام 1977)

(1) راجع بحثنا حول « اللغة الام » في مجلة اللسا ن العربي م. 11 ، ج. 1 .

مختلف بقاع الارض ليسجلوا انطباعاتهم وارتساماتهم في طريقهم اللاحب الى الحرمين .

وقد يكون من العبث محاولة تقصي هذه النفحات بالنسبة لاقليم بذاته فضلا عن المجموع غير أن استعراضا موجزا لرحلات ضمن مكان مخصوص كرحلات المغاربة في مختلف العصور تعطينا صورة عن مدى اسهام الفكر العربي المسلم في هذا الشق الغربي للعالم العربي في دعم مقومات الكيان الذي هو من أبرز مفاخر تراثنا ومظاهر وحدتنا.

وهاكم نبذة يسيرة وانموذجا مقتضبا عن الرحالين المغاربة :

— ابراهيم السوسي العيني (المتوفى عام 1199 هـ / 1784 م) .

له رحلة الى الحجاز في مجلدين .

وقف على نصفها بخط المؤلف في مجلد المرحوم العلامة المختار السوسي في قرية داود (قبيلة أكلو بضواحي تزنيت جنوبي المغرب) وقد اختصرها محمد بن مسعود المعدري ووقف على الاختصار كذلك الشيخ المختار السوسي وهو مبتور كالاصل .

— ابن ابي عمرية احمد الفاسي الفهري (1137هـ/ 1724 م) .

له رحلة حجازية نقل عنها صاحب « نشر المثاني » في ترجمة ابراهيم بن محمد الشاوي السريفي ونسبها له سلطان المغرب مولاي سليمان في كتابه « عناية أولي المجد » ولعلها ضاعت .

— الأزرقي احمد بن محمد ابو محمد اسحاق الخزاعي الفاسي .

له « تاريخ مكة » (نسخة بالمانيا الشرقية الشرقية عدد 1705) .

— ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي (779 هـ 1377 م) له « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » وهي لا تزال مفقودة لم ينشر منها الا قسم اختصره ابن جزي (بأمر السلطان ابي عنان المريني) توجد نسخة منها بمكتبة جامعة القرويين بفاس (عدد 1285) وست نسخ بالمكتبة الملكية بالرباط من عدد (151 الى 1356) ونسخة بالمكتبة العامة بالرباط (عدد 1376) . طبعت مرارا أعوام 1278 / 1322 / 1346 .

— ابن جبير محمد بن أحمد الكناني الاندلسي (614 هـ / 1217 م) .

له رحلة اسمها « تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار » نشرها وليام رايت Mright الانجليزي عام 1269 هـ / 1852 م) . كما نشرت في ليدن عام 1325 هـ / 1907 م ومخطوطاتها نادرة توجد نسخة مبتورة بالزاوية الحمزاوية بالمغرب وأخرى مبتورة ايضا بالمكتبة الملكية بالرباط (عدد 5855) .

— ابن جزي محمد بن احمد (741 هـ / 1340 م) له فهرست كبيرة اشتملت على كثير من رجال المشرق ومن بينهم شيوخ الحجاز .

— ابن جعفر احمد الكتاني (1340 هـ / 1922 م) له فهرست عد فيها أشياخه المشارقة مع نصوص اجازاتهم . توجد نسخة عند ولده الاستاذ محمد ابراهيم في ثلاثة كراريس .

— ابن جعفر محمد بن ادريس الكتاني (1345 هـ/ 1926 م) .

له « الرحلة السامية للاسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية » الفها في رحلته الاولى عام 1322 هـ / 1904 م ومات دون اتمامها والموجود منها سبعة كراريس .

— ابن حسون احمد بن العربي الوزاني
له « الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية » (في 8 كراريس) رحل الى الحجاز عام 1229 هـ / 1852 م .

توجد نسخة بخط المؤلف في خزانة الشيخ عبد الحفيظ الفاسي وأ خرى في الخزانة السودية بفاس .

— ابن رشيد محمد بن عمر بن محمد السبتي (المتوفى بفاس 721 هـ / 1321 م)

له رحلة تسمى « ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة وطيبة » (فى خمسة أجزاء مصورة بمعهد مولاي الحسن بتطوان . وتوجد نسخة بالاسكوريال) .

— ابن سعيد المغربي علي بن موسى العنسي (685 هـ / 1286 م) .

له « النفحة المسكية فى الرحلة المكية » (بالاضافة الى رحلته « عدة المستنجز ») .

— ابن سودة عبد القادر بن محمد بن عبد القادر ابن الطالب (ولد عام 1301 هـ / 1883 م) .

له « الرحلة الكبرى فى أخبار هذا العالم برا وبحرا » (رحل الى الحج عام 1327 هـ / 1909 م) وهي تقع فى أربعة أجزاء طبع الاول والثاني منها بالمطبعة الجديدة بفاس .

— ابن طوير الجنة أحمد المصطفى الصحراوي الحميري الشنجيطي .

له « رحلة المنى والمنة » قام بها بعد عام 1245 هـ / 1829 م وهو غير ابن الطوير عمر المراكشي الذي شهر بالحجاز بأبي الخطاب السوسي (المتوفى 622 هـ / 1225 م) .

— ابن الطيب محمد الصميلي الشرقي المتوفى بالمدينة المنورة 1170 هـ / 1756 م .

له ثلاث رحلات منها رحلة قام بها عام 1139هـ/ 1726 م توجد نسخة فريدة منها فى خزانة ليبسيك Leipsig (بالمانيا الشرقية) وقف عليها الاستاذ محمد الفاسي .

— ابن عثمان محمد المكناسي وزير السلطان المولى سليمان (1202 هـ / 1787 م) .

له « احراز المعلى والرقيب فى حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب » (نسخة لابن زيدان ضمت الى المكتبة العامة بالرباط) .

— ابن العربي المعافري ابو بكر بن عبد الله (543 هـ / 1148 م) .

له رحلة توجد نسخة منها فى مكتبة السيد عبد الحي الكتاني ضمت الى المكتبة العامة بالرباط وهي فى أسفار ذكرها الناصري فى رحلته وأشار اليها المراكشي فى الاعلام ج 5 ، ص 223) .

— ابن مليح محمد بن أحمد السراج .

له رحلة حجازية اسمها « أنس الساري والسارب من أقطار المغارب الى منتهى الآمال والمآرب وسيد الاعاجم والاعارب » .

ارتحل من مراكش عام 1040 هـ / 1630 م صحبة الركب الحجازي (نسخة بالمكتبة الكتانية فى عشرة كراريس) عدد 3152 . وقد حققها الاستاذ محمد الفاسي .

— ابن ناصر محمد بن عبد السلام (1239 هـ / 1823 م) .

له « الرحلة الكبرى » فى سفرين رحل عام 1196 هـ / 1781 م اختصرها المراكشي فى الاعلام (ص 193 — 233) — توجد نسخة فى خزانة تامكروت فى جزء ضخم ونسخة بالمكتبة العامة بالرباط عدد 2327 (النصف الاول) والمكتبة الملكية بالرباط عدد 147 .

له رحلة صغرى قام بها عام 1211 هـ / 1776م (مجلد وسط فى الخزانة الاحمدية) .

— ابو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر الناصري المعسكري الجزائري الجليلي (1239 هـ / 1824 م) .

له عجائب (أو غرائب) الاسفار (نسخ بالجزائر عدد 1632 وتلمسان عدد 96 وباريس عدد 5114) .

— ابو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي رحل الى المشرق عام 696 هـ / 1295 م .

له رحلة وقف عليها ابن حجر (كما فى « الدرر الكامنة ») فى ثلاثة مجلدات ضخام جدا فيها

حذو ابن رشيد الذي رحل قبله بعشر سنوات وزاد هو تضمين الرحلة مشيخته مستوعبة .

— أحمد الشيخ بن عبد العزيز بن الرشيد الهلالي (1175 هـ / 1761 م) .

لـــه رحلـــة الى المشـــرق .

— احمد بن عبد القادر بن علي القادري يدعى علالا عاش سبع سنوات في القاهرة وتوفي بفـــاس 1133 هـ / 1721 م .

له رحلة سماها : « نسمـــة الآس في حجـــة سيدنا أبي العباس » (أي أحمد بن معن الذي رافقه الى الحج عـــام 1100 هـ / 1689 م) توجد في المكتبة الملكية عدد 8787 وكراريس منها في الخزانة الفاسية .

— احمد بن علي بن محمد دينية الرباطي (1282هـ/ 1864 م) .

له رحلة الى الحج (1267 هـ / 1850 م) ذكرها حفيده في كتابه « النسمات الندية » (طبعـــة الرباط 1936) .

— احمد بن محمد اجزى الهشتوكي .

له رحلة اسمها « هداية الملك العلام الى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام» (توجد بخط المؤلف بخزانة تمكروت بالصحراء رقم 276) وقد شرع في هذه الرحلة عـــام 1096 هـ / 1684 م .

— ادريس بن عبد الهادي الشاكري (1331 هـ/ 1913 م) .

له رحلة حجازية في كراستين . توجد نسخة منها في المكتبة العامة بالرباط عدد 1115 د ونسخة اخرى في مكتبة الكلاوي ، وقد حج عام 1288 هـ / 1871 م ، وفي رحلة ثانية الى الحـــج ، توفي بالحجاز .

— الحسن اليوسي له رحلة جمعها ولـــده محمد قام بها عام 1101 هـ / 1689 م .

توجد نسخة منها في المكتبة الملكية بالرباط عدد 2343 .

— عبد الرحمن المدعو رحو الغنامي الشاوي .

له رحلة اشار اليها صاحب « صفـــوة مـــن انتشر » ونقل عنها في « نزهة الحادي » .

— عبد السلام بن محمد بن المعطي السرغينـــي العمراني المراكشي .

له رحلة قام بها مع شيخه سيدي محمد الكتاني عام 1321 هـ / 1903 م توجد نسخة منهـــا بخزانة الكتاني بالمكتبة العامة بالرباط .

— عبد القادر بن ابي جيدة احمد الكوهن .

له رحلة حجازية توجد نسخة منها بخزانـــة الكتانـــي .

— عبد الله بن احمد أبو مدين الروداني الدرعـــي (1137 هـ / 1723 م) .

له رحلة حجازية ينقل عنها ابراهيم العيني في رحلته (نسخة بخزانة تمكروت في مجلد) .

— عبد الله بن محمد الوردي المراكشي (كـــان حيا عام 999 هـ / 1590 م) .

له رحلة حجازية (ذكرها ابن القاضي في درة الحجال ج 2 ص 342) .

— عبد الله بن محمد بن ابي بكر ابـــو ســالـــم العياشي (1090 هـ / 1679 م) .

له رحلة اسمها « ماء الموائد » في مجلديـــن طبعـــت بفـــاس عـــام 1316 هـ / 1898 م اختصرها محمد بن الحسن بناني (المكتبـــة الملكية نسخ عدد 629 الى 5259) ورحلة اخرى سماها « تعداد المنازل » الفها لتلميذه احمد بن سعيد المكلاتي (نسخة بخزانة الشيخ عبـــد الحفيظ الفاســـي) .

— عبد المجيد بن علي الزبادي المنالي الفاســـي 1209 هـ / 1794 م .

له رحلة سماها « بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام » توجد نسخة منها فى المكتبة العامة بالرباط رقم 1808 د (فى 184 ورقة) واخرى بالخزانة الفاسية وقد تضمنت قصيدة رائعة فى 129 بيتا جامعة لمراحل الحجاز من مصر الى مكة مع مناسك الحج عليها شرح اسمه « اتحاف المسكين الناسك ببيان المراحل والمناسك » لاحد تلاميذه .

— عبد الواحد بن الصنهاجي السوسي (1135 هـ/ 1722 م) .

له رحلة ذكرها الشيخ الحضيكي فى الطبقات .

— اعربي بن علي المشرفي المعسكري المتوفى اوائل العشرة الثانية من القرن الرابع عشر .

له « الرحلة العريضة فى اداء الفريضة » يوجد منها طرف فى الخزانة السودية بفاس .

— العربي بن محمد الدمناتي .

له رحلة ذكرها ابو عيسى المهدي بن سودة فى ترجمته من فهرسته وقد رحل قبل 1244 هـ / 1828 م وهي تعد مفقودة .

— محمد بن احمد بن عبد الله الحضيكي .

له رحلة حجازية (نسخة بالمكتبة العامة بالرباط عدد 896) واخرى بالمكتبة الملكية عدد 405 .

— محمد بن الحسن السبعي .

له رحلة قام بها عام 1310 هـ / 1892 م (توجد نسخة منها بمكتبة الكتاني الملحقة بالمكتبة العامة بالرباط) .

— محمد بن سعيد الرغيني الفاسي (778 هـ / 1376 م) .

له رحلة نظم فيها مراحل الحجاز (جذوة الاقتباس ص 147) .

— محمد بن سليمان بن داود الجزولي (863 هـ / 1458 م) .

له رحلة ذكرها ابن القاضي فى « لقط الفرائد »

— محمد بن عبد القادر الاسحاقي المدعو الجيلالي المتوفى بعد 1150 هـ / 1737 م .

له رحلة قام بها عام 1143 هـ / 1730 م مع السيدة خناثة بنت بكار ام السلطان مولاي عبد الله بن المولى اسماعيل العلوي (تقع فى مجلدين يوجد الاول بخزانة جامعة القرويين عدد (ج ل 80 — 383) .

— محمد بن عبد الله الولاتي الشهير بمولاي الشريف (1101 هـ / 1689 م) .

له رحلة حجازية ربما ضاعت (الاعلام للمراكشي ج 5 ص 48) .

— محمد (أوحم) بن عبد الوهاب الوزير الغساني (1119 هـ / 1707) . « رحلة الوزير فى افتكاك الاسير » .

له رحلة اخرى الى الحجاز .

— محمد بن علي الرافعي التطواني .

له الرحلة الشرقية الحجازية (توجد نسخة منها بخزانة الاستاذ محمد داود بتطوان) . (تاريخ تطوان ج 1 ص 312) .

— محمد بن علي الطرابلسي المعروف برغوان .

له رحلة اسمها « النفحات القدسية فى الرحلة الحجازية » (توجد نسخة بالمكتبة العامة بالرباط عدد 1836 د (فى 103 ورقات) .

— محمد بن علي المعروف بالعياشي (لقبا لا نسبا)

له رحلة حجازية ذكرها عبد المجيد بن علي الزبادي المنالي فى رحلته حيث وقف عليها فى مجلد بخط المؤلف بخزانة رواق المغاربة بالازهر الشريف .

— محمد بن محمد المرابط الدلائي الفاسي (1099 هـ / 1687 م) .

له الرحلة المقدسة (136 بيتا) ذكر فيها منازل الحج من فاس الى المدينة المنورة (راجع البدور الضاوية لسليمان الحوات) .

— محمد بن محمد بن علي العبدري المتوفى آخر المائة السابعة .

له رحلة قام بها عام 688 هـ / 1289 م تقع فى مجلد وسط توجد نسخ بالزاوية الحمزاوية بالصحراء المغربية وبالخزانة الاحمدية بفاس وبخزانة جامعة القرويين (عدد د 1012) والمكتبة الملكية بالرباط (1351 / 6594 / 869 / 2810 وجامع الزيتونة (53) والمكتبة الوطنية بباريس (2283) وليدن (801) والاسكوريال (1738) اختصرها ابن قنفد فى كتاب سماه « المسافة السنية فى اختصار الرحلة العبدرية » (وقف على الاختصار بسوس الشيخ المختار السوسي (راجع كتابه « من خلال جزولة ») .

وقد طبع الرحلة الاستاذ محمد الفاسي عام 1968 ، وكان لرحلته أثر كبير فى الشرق حيث قرا على شيوخ جلة وتتلمذ عليه آخرون .

— محمد بن محمد بن محمد التامراوي (1285 هـ/ 1868 م) .

له رحلة قام بها عام 1242 هـ أوردها بنصها محمد المختار السوسي فى كتابه المعسول (ج 8 ص 198 — 213) .

ومن فوائد الرحلة استيراد المؤلف لكتب كثيرة بخط مشرقي عززت التبادل الثقافي بين المشرق والمغرب (1) .

— محمد بن منصور العامري التازي (المتوفى حوالي 1170 هـ / 1756 م) .

له « الرحلة العامرية » وصف فيها المراحل من تازة الى الحرمين والشام وهي همزية نظمها فى 335 بيتا عام 1152 هـ توجد نسخة بالمكتبة الاحمدية بفاس ونسختان بمكتبة الاستاذ محمد المنوني بمكناس احداهما بخط المؤلف وقد نشر المنوني نص هذه الرحلة فى كتابه « ركب الحج المغربي » (ص 88) .

— نظم مراحل الحجاز مع شرحه لابن غازي المكناسي (النيل ص 272) ، وهنالك رحلات اخرى غير هذه يتعذر استيفاؤها وانما اعطينا نماذج لنلمس مدى اهمية هذا النوع من التراث فى القاء اضواء كاشفة على جوانب خاصة من تاريخ الجزيرة العربية والاقطار الواقعة فى طريق الحجيج وهي دول المغرب العربي وليبيا ومصر بالنسبة الينا نحن المغاربة الرابضين بين البحر المتوسط والمحيط فهنالك مثلا رحلات سوسية منها فى خصوص القرن الثاني عشر فقط علاوة على ما ذكرنا رحلة أبي مدين ورحلة اليبوركي ورحلتا أحمد أحوزي الكبرى والصغرى ورحلة عبد الواحد بن الحسن الصنهاجي وغيرهم .

ولا توجد فى جغرافية « المسالك والممالك » قطعة من الارض حظيت بعناية الرحالين والمؤرخين مثل الطرق الكبرى المؤدية الى الحجاز التي صنفت فيها مآت الكتب المختلفة المنازع والاساليب ومآت القصائد الحافلة بوصف المنازل والمراحل علاوة على ما تطفح به من مشاعر الحنين التي جعلت من هذه الطرق لا متعبدات فقط بل مجمعات استوثقت عبرها الصلات بين الشعوب الاسلامية ومبادلة الاجازات بين العلماء وتلاقح معطيات الفكر العربي والاسلامي مما لم يعرف له نظير حتى بعد عصر النهضة وما طرا من سهولة وسرعة على المواصلات .

بل ان طرقا صوفية سنية كطريق أبي محمد صالح دفين آسفي (وهو من رجالات القرن الثامن امتدحه شعراء الشرق مثل البوصيري) اقتصر شعارها الصوفي على ترحيل الحجيج من المغرب الى الحجاز وتوفير النزلات ومتطلبات السفر على طول المراحل وخاصة خلال الصحراء وكان هؤلاء الحجيج الذين لم تكن تخلو منهم الجادات والسبل الكبرى طوال السنة يتواكبون فى ركب موصول

(1) راجع كتابنا « رسل الفكر بين الشرق والغرب » فى مختلف العصور .

يسمى « الركب الصالحي » يستهدف بالاضافة الى اداء فريضة الحج توثيق الرباط بين الشعوب الاسلامية وكانت الافواج الحجيج قوافل تنحدر من شنقيط وكبريات عواصم المغرب لتتجمع بسجلماسة او مراكش أو فاس ومنها تتخذ طريقها متكاثفة عبر ما سماه الرحالة ابن المليح بطريق الفقهاء أي فقهاء المذهب المالكي الذين كانوا ينحازون عن متجمعات الخوارج فى بعض مناطق المغربين الاوسط والادنى للانسلال من بلاد (فزان) الى أرض الكنانة .

وقد تبلور نتاج هذه الروابط علاوة على الرحلات فيما صنفه العلماء من فهارس واثبات سجلوا فيها اجازاتهم وارتساماتهم وما جنوه من ثمار خلال رحلاتهم فلم يقل هذا النوع من المعلومات فائدة ولا عائدة عن مضامين الرحلات وكانت الصلات حقا متبادلة الا أنها نادرة بالنسبة للواردين على المغرب من الشرق ومع ذلك فان فكرهم النابع من اجازاتهم ودروسهم ومؤلفاتهم كان يرحل الى المغرب مع العائدين فيسهم بحظ وافر فى اثراء المكتبة العربية الاسلامية فى المغرب العربي وما زالت مكتباتنا العامة والخاصة تزخر بنوادر المخطوطات الشرقية التي ضاع بعضها فى الشرق واحتفظ المغرب بأصولها الفريدة ويندهش المشرقي عندما يتصفح فهارس المخطوطات بالمغرب فيجد مئات المصنفات الاصلية التي لا تعرف مكتبات الشرق الا عناوينها محفوظة مصونة تنتظر توثيق التعاون بين شقي العروبة لاحياء هذه المعالم الناصعة لتراثنا المشترك وهو عمل يجب أن لا نتوانى فى وضع التخطيطات الرصينة لبعثه لانه لا يقل اهمية عن باقي مقومات تراثنا ودعامات كياننا الحضاري ، وقد حاولنا استيفاء ما لدينا من عناصر هذا التراث فى المعلمة التي أصدرناها بعنوان « الموسوعة المغربية للاعلام الحضارية والبشرية » (2) والتي طبع منها لحد الآن خمس فصلات من خمسين تحتوي بالنسبة لكل عالم مغربي على منجزاته العلمية مثبتة بأرقامها فى سجلات المكتبات المغربية العالمية ويبذل الآن « معهد المخطوطات » التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قصارى الجهد لتصوير التراث وجعله فى متناول الدارسين والباحثين من اجل تحقيقه وطبعه ولنضرب أمثلة بمدى تنوع مجالات ومجالي جوانب من تراثنا لم نتمكن بعد من تقييمها وبعضها منتشر فى مخطوطات التراث فاذا اقتصرنا على من رحل من المغاربة الى الشرق للحج او الجوار دون تصنيف رحلات خاصة عن اسفارهم وجدنا كثيرا من هؤلاء قاموا بدور طلائعي فى بلورة التبادل بين اجزاء العالم الاسلامي وقد كتبت بحثا بعنوان : « رسل الفكر بين المرق والمغرب » لمحنا فيه الى اهمية هذه الجوانب .

ومن هؤلاء : احمد بن عبد الله الغربي الرباطي الدكالي (1178 هـ / 1764 م) رحل الى المشرق عام 1140 هـ / 1727 م وأخذ عن شيوخ مصر والحرمين وطار صيته فى الحجاز فاصبح احد سفراء الشرق لا فى المغرب الاقصى وحده بل من فاس الى (دكار) نظرا للدور الذي كانت تقوم به جامعة القرويين وعلماؤها بين الشناقطة واهل السنغال من خلال مذهب واحد تغلغلت جذوره فى قلب الحواضر والصحاري وهو مذهب امام المدينة مالك بن أنس ويكفي أن نلاحظ أن المسمى علي بن عبد القادر الشرقي باشا السودان (أي السودان الغربي او السنغال الحالية) هو الذي تراس ركب حجيج السودان عام 1040 هـ / 1630 م صحبة الرحالة المغربي ابن المليح الذي اشرنا آنفا الى رحلته حيث كانت مواكب الحجيج من (داكار) الى فاس تتجمع لتاليف قوافل ما يمكن أن تسميه اليوم بافريقيا الشمالية الغربية .

وبعض هؤلاء الحجاج الذين لم يضعوا الرحلات صنفوا فى « مناسك الحج وآداب الزيارة » كأحمد ابن قاسم جسوس (1331 هـ / 1912 م) (الذي توجد مخطوطة كتابه فى المكتبة العامة بالرباط عدد 1821) وأحمد بلقاسم الكرسيفي السوسي .

ومن المغاربة الذين جاوروا فى الحجاز وطافوا المعمور ناقلين روائع الفكر الاسلامي الحجازي وخاصة المكي والمدني الى مختلف الجهات :

— سليمان بن احمد الطنجي المتوفى قبل 440 هـ/ 1048 م .

(جذوة المقتبس ص 208 طبعة 1952) .

— موسى بن ابراهيم ابو هارون الاغماتي المحدث (516 هـ / 1122 م) الذي التحق بعد مقام

(2) أصدرتها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمغرب .

في الحجاز بمصر وخراسان وما وراء النهر واقام بنيسابور ، (طبقات السبكي ومعجم ياقوت الحموي) .

— علي بن عتيق بن عبد الرحمن الفاسي الاصولي المفسر الحافظ (كان حيا عام 726 هـ / 1315 م) الذي استقر بعد في « صفد » قبل العودة الى المغرب .

— محمد بن موسى المراكشي المكي الذي سمع من شيوخ مصر ثم رحل الى الشام والقدس واليمن حيث ولي مدرسة الناصر واقام بها الى ان توفي عام 823 هـ / 1420 (الاعلام للمراكشي ج 4 ص 50 / ذيول طبقات الحفاظ) ، وقد اجاز له ابن عرفة (شذرات الذهب ج 7 ص162)

— محمد بن محمد العقاد المكي (1030 هـ / 1620 م) الذي مدح المنصور السعدي ملك المغرب بموشحة عارض فيها موشحتي ابن الخطيب وابن سهل وتولى قضاء اليمن بتدخل المنصور لدى خاقان ملك الاتراك .

— محمد المجيدري اليعقوبي الذي كان احد اربعة لم يبلغ احد مبلغهم في عصره وهو القرن الثاني عشر الهجري وكانت له جولات في الحجاز وسائر أقطار الشرق ، وقد أفرد بعض هؤلاء الشيوخ علماء الشرق أوبعض عواصم الشرق بالتأليف حيث صنف (حازم) صاحب المقصورة وشيخ ابن رشيد السبتي « الدرة المضية في تاريخ الاسكندرية » في مجلدات « والمستفاد من شيوخ بغداد » (درة الحجال ص 137) وما ناب عواصم الشرق هو قل من كثر مما كتب حول الحرمين الشريفين .

— عبد الله السوسي الاديب الشاعر الذي اقام بتونس وفاق اقرانه ثم توجه الى الشرق وخاصة الحجاز واستفاد من علمائه وعاد الى افريقية حيث نقله الامير علي الى تونس (عيون الاريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم اديب للشيخ محمد النيفر ج 2 ص 20 طبعة تونس 1351) .

— محمد بن خليفة المدني الرحالة الشاعر الذي توفي بمكناس (1313 هـ / 1895 م) (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 178 — مخطوط) .

— محمد القاطمي بن الحسين الصقلي الشاعر المحاضر دفين المدينة المنورة (1311 هـ / 1893) .

له تاريخ في علماء عصره (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 157 — مخطوط) ، وقد افتتحه بشيخه علي بن ظاهر الوتري مسند المدينة المنورة (2261 هـ / 1922 م) الذي زار المغرب مرتين (1287 و 1297) واخذ عن علماء مغاربة جلة .

وابن ظاهر هذا هو الذي احيا موات الرواية بالمغرب وانعشها بالمشرق (الاعلام للمراكشي ج 7 ص 135 — مخطوط) .

— محمد بن احمد بن سالم الصباغ المكي الذي توفي في رحلته الى المغرب (1321 هـ / 1903) .

له « تحصيل المرام في اخبار البيت الحرام والمشاعر العظام » (الاعلام للزركلي ج 6 ص 247 / ملحق بروكلمان ج 2 ص 815 / دار الكتب المصرية ج 5 ص 125) .

وهنالك كتب أخرى انتشر خلالها تاريخ الفكر من علماء الحجاز ككتاب « ايماض البرق في ادباء الشرق » لابن الابار البلنسي (البلنسي 658 هـ/ 1259 م) « واسماء شيوخ مالك لابن خلفون (636 هـ / 1239 م) » (توجد نسخة منه بالاسكوريال ف 1747) ومسند حديث مالك لابن الدباغ خلف بن قاسم (393 هـ / 1003 م) وشروح الموطأ كشرح ابن صاف الفاسي (642 هـ

1244 م) و « تهذيب المسالك في نصرة مذهب مالك » لابن دوناس الفندلاوي (543 هـ / 1148 م) (توجد نسخة منه في المكتبة الحمزاوية بصحراء المغرب) والتمهيد لابن عبد البر وشروح ابي بكر بن العربي المعافري وشرح ابن السيد البطليوسي (521 هـ / 1127 م) و « الموعب في شرح الموطأ » لابن الصفار يونس (429 هـ / 1038 م) .

تلك فذلكة مقتضبة يتضح لنا من خلالها مدى ما يمكن أن نستفيده من بعث تراثنا العربي الاسلامي في مختلف مظاهره ومعطياته وهو بعث كفيل بالاسهام في دعم تاريخ العروبة والاسلام خاصة في مهدهما بالجزيرة العربية عموما والحرمين الشريفين خصوصا ، كما يتضح لنا منها مدى متانة الروابط وعمق الصلات التي كانت تجمع بين شقي العروبة شرقا وغربا ، والتي جعلت من أرض الحجاز المباركة مهبطا لافئدتها ، وملتقى لعلمائها ومنزلا روحيا لابنائها على مر العصور .

الإعلام
بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام
تأليف
العباس بن إبراهيم
الجزء الثامن

الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام

● اخرج مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بنمنصور الجزء الثامن من الموسوعة القيمة « الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام » لمؤلفه العلامة المرحوم العباس بن ابراهيم .

● أعلام الأندلس

القاضي أبو بكر بن العربي
(468 - 543 هـ)

للأستاذ سعيد أعراب

— 13 —

(ج) في الفقه واصوله :

والقاضي ابو بكر بن العربي من ائمة الفقه المجددين (1) ما في ذلك شك ، وهو من الرواد الاول، الذين ادخلوا علم الخلافيات الى المغرب – كما يقول ابن خلدون (2) .

ومن اوسع مؤلفاته في هذا الباب :

40 – كتاب « الخلافيات » (3) .

41 – « الانصاف ، في مسائل الخلاف » – عشرون مجلدا (4) .

42 – « التلخيص (5) في اصول الخلاف » .

43 – « تلخيص التلخيص » (6) .

44 – وله : « التقريب والتبيين ، في شرح التلقين » (7) – للقاضي عبد الوهاب البغدادي .

45 – « شرح غريب الرسالة » (8) – لابن ابي زيد القيرواني .

---

(1) انظر الاستقصا ج 1 / 144 .
(2) المقدمة ص 809 – طبع بيروت .
(3) .....
(4) انظر الاحكام 1 / 126 ، و ج 2 / 282 ، العرضة 3 / 266 ، وص 302 ، والنفح 2 / 36 .
(5) الاحكام ج 1 / 96 ، و ج 2 / 337 ، العارضة 5 / 27 .
(6) الاحكام ج 1 / 265 ، و ج 2 288 .
(7) توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بمدريد ، انظر دعوة الحق س 10 – ع 2 ص 94 .
(8) انظر هدية العرفين 2 / 90 ، وازهار الرياض 3 / 95 .
(9) انظر الروض الهتون ص 44 ، والاتحاف 4 / 517 .

46 ـ « الرسالة الحاكمة ، على الايمان اللازمة » ـ وقد ناقضها قاضي مكناس : ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المكناسي ـ رسالة اخرى اسماها « الخارمة للرسالة الحاكمة » (9) .

47 ـ « النواهي عن الدواعي » (10) ـ رسالة رد فيها على ابن حزم ـ فى مسائل تشريعية .

48 ـ « الطلاق المؤقت » (11) .

49 ـ جزء فى مسح الرجلين (12) .

50 ـ كتاب ستر العورة (13) .

51 ـ رسالة فى جواز تقبيل يد الامام العادل (14) .

ومن مؤلفاته فى اصول الفقه :

52 ـ « التمحيص » يحيل عليه كثيرا فى كتبه (15)

53 ـ وقد لخصه فى كتابه « المحصول » فى علم الاصول » (16) ، ومهد لكتابه « المحصول » ـ هذا بعشر مقدمات ، سماها سوابق :

1 ـ فى وجه الحاجة التي يقع بها البيان ، فالانسان ـ كما يقول ابن العربي ـ مدني بالطبع ، وقد سبق بها ابن خلدون ، فهو مفتقر الى غيره بالضرورة،لانه خلق خلقا لا يستقل بمعاشه ، ولا يستبد بمنافعه ، فهو فى حاجة مستمرة الى سواه .

2 ـ قسم علماؤنا العبارة الى قسمين : حقيقة ومجاز ...

3 ـ اختلف الناس هل فى كتاب الله مجاز ام لا ؟

4 ـ قسم بعض الناس الاسماء الى لغوية وشرعية، وجعلها البعض الآخر ثلاثة أقسام ...

5 ـ اختلف الناس فى جريان القياس فى اللغة ، فمنهم من جوزه ، ومنهم من منعه ..

6 ـ صيغة النفي ـ وهي لا اذا اتصلت بالنكرة ـ مما اختلف الناس فى ذلك ، فقيل انها مجملة لا يسوغ الاحتجاج بها،وقيل انها عامة ، ومنهم من ذهب الى انها ظاهرة يجوز التمسك بها فى الاحكام ، والمسألة تتصور فى كثير من الادلة الشرعية ، منها مثلا قوله ـ صلى الله عليه وسلم : (لا صيام لمن لم يبيت الصيام ...) .

7 ـ انقسمت الاسماء فى اللغة ـ فى دلالتها على المعاني ـ الى قسمين :

احدهما ما يدل على معنى واحد ، لا يشترك معه فيه سواه ـ وذلك كثير فى اللغة ، والثاني ما يدل على معنيين ...

8 ـ اللفظ الصريح اذا احتمل الشيء وضده ، فلا يخلو اما ان يكون احتمالهما سواء ، او يكون فى احد المعنيين اظهر ، فان كان فى احد المحتملين اظهر فهو الظاهر ، ولا خلاف فى صحة التعليق به فى الاحكام ، وان كان الاحتمال واحدا فهو العموم .

9 ـ الكلام فى اللغة ينقسم الى اللفظ والى المعنى ، اما اللفظ فهو المعبر عن المعنى ، فلا غنى عنه على ما سبق بيانه ، واما المعنى ، فهو المراد باللفظ ، وسنبرم فيه عقدين :

ـ العقد الاول فى شرح اللفظ ....

ـ الثاني فى شرح المعنى ـ وهو المقصود فى هذا الفن ...

---

(10) انظر العواصم من القواصم 1 /68 ، وص 94 ـ طبع الجزائر ، والاحكام 1 / 308 ، والعارضة 4 / 104 ، وازهار الرياض 3 / 99 ، واعلام المغرب ـ (ابن حزم) ص 205 .
(11) انظر الاحكام 2 / 331 .
(12) الاحكام 1 / 239 .
(13) الاحكام 1 / 239 .
(14) انظر نيل الابتهاج ص 235 .
(15) انظر العواصم من القواصم 1 / 26 ، والعارضة 7 / 172 .
(16) توجد نسخة منه باستنبول ، وبالخزانة العامة بالرباط مصورة عنها رقم (640) .

— ثم لخص محصول اصول الفقه فى اثنى عشر بابـا وخاتمـة :

1 — الاوامـر
2 — النواهـي
3 — العمـوم والخصـوص
4 — المحكـم والمتشابـه
5 — المنطـوق والمفهـوم
6 — الافعال — يعني افعاله — صلى الله عليه وسلم
7 — الاخبـار
8 — التنزيـل للتاويـل
9 — الاجمـاع وكيفيـة حصولـه
10 — القيـاس واقسامـه
11 — الناسـخ والمنسـوخ
12 — الترجيح بين الادلة — الذي هو معضلـة الاصـول .

— ثم خاتمة فى الاجتهاد ومراتب الفتوى .

منهجـه :

وقد اختصر كثيرا من قواعد الاصول فى هذا الكتاب ، قال فى كتاب النواهي :

ومسائله كمسائله — يعني الامر — كفة كفة ، وزنا وزنا ... وابن العربي يقرر الاصول على مستوى سائر المذاهب ، وهو يميل كثيرا لنصرة مذهـب مالك ، ويدافع عن رايه بالحجة والبرهان ، وناقش الشافعي فى مسائل بناها على اصول لم تسلم له ، وهو كرد فعل لما قام به امام الحرمين وتلميـذه الغزالي من نصرة المذهب الشافعي وتقديمـه على سـواه .

ومن القواعد التي انتقدهـا على الاماميـن : الغزالي وامام الحرمين — قاعدة : هل الامر يحمـل على الفور او على التراخي ؟ وقد قالا بالتراخي ، لانه انما يجوز بشرط سلامة العاقبة كالرامي الى الهدف، قال ابن العربي : وهذا مما لا نرضاه .

ويذكر فى مسالة النهي عن الشيء هل يدل على فساده ؟ — : ان العلماء اختلفوا فيها وارباب الاصول من المالكية ، جهلوا مذهب مالك وقالوا : ان لـه قولين ، والصحيح من مذهبـه — ان النهـي على قسميـن ...

مصـادره :

واهم المصادر التي اعتمدها ابن العربي فى هذا الكتاب : الارشاد للباقلاني ، والبرهان لامام الحرمين، والمنخول ، والمستصفى — للغزالي ، وسواها .

54 — « نزهـة المناظـر » — اشار اليـه فى العارضـة (17) .

55 — « مفتاح المقاصد » — ذكـره فى هديـة العارفين (18) .

56 — رسالة « الكافـي ، فى ان لا دليـل على النافـي » (19) .

— ونسب له بعض المفهرسين — خطا — « بغيـة الأمل ، فى شرح الحاصل » وتوجد نسخة منه فى الخزانة الحمزاوية (20) .

وحجتنا فى اسقاط هذا الكتـاب من قائمـة مؤلفات ابن العربي :

1 — انه لا يتناسب مع روح ابن العربـي — كما لا يخفـى .

2 — ان « الحاصل » المشروح هو للقاضي تـاج الدين محمد بن حسين الارموي (ت 656هـ) (21) وقد اختصره من محصول شيخه الامام الرازي

3 — يشير صاحب الشرح الى مصادر جد متاخرة،

---

(17) انظـر ج/144 .
(18) انظـر ج 2 / 90 .
(19) انظر أزهار الرياض ج 3 / 95 .
(20) واخذت منه صورة على ميكروفيلم للخزانة بالرباط رقم (640) .
(21) انظر كشف الظنون ص 1615 ، ورحلة التجانـي ص 368 .

كتعليق ابي القاسم بن زيتون التونسي (ت 691 هـ) (22) وسواه .

(د) في علم الكلام :

عرض ابن العربي – في كثير من كتبه – لابحاث مستفيضة في علم الكلام ، وهو يلتمس اكثر من عذر لعلماء الكلام – في التجائهم الى الادلة العقلية ، وضرب الملاحدة بسلاحهم (23) .

ومن مؤلفاته في التوحيد – على طريق المتكلمين :

57 – « الوصول الى معرفة الاصول » (24) – يعني اصول الدين ..

يقول في مقدمته : (... اما بعد ، فان العلم طويل المادة ، والعمر قصير المدة ، والتكليف شديد الوطاة ، والايمان بالغيب عظيم الحرمة ، وثوابه الخلود في الجنة ؛ واولى ما نظر فيه الناظرون ، وفكر في معانيه المفكرون ، علم تكسب به الحقائق والعهود ، ويعرف به الخالق المعبود ، وينال منه – سبحانه – المقام المحمود ؛ كما جعله لاوليائه حلة ، ونصب على وحدانيته ادلة ؛ واول ما يجب على العاقل البالغ ، القصد الى النظر الصحيح ، المفضي الى العلم بحدوث العالم ؛ ومقصود هذا العلم ، اقامة البرهان على وجود الباري وصفاته وافعاله ...) .

وقد رتبه على خمسة ابواب ، وتحت كل باب فصول ، وربما عبر عن الفصل بالقول .

1 – الباب الاول في اسماء مقامات العلماء ...

2 – الباب الثاني في ان العلم قبل العمل ، قال تعالى : « فاعلم انه لا اله الا الله » .

– القول في تقسيم النظر ...
– القول في الاستدلال ...
– القول في اثبات الجوهر ...
– القول في الاعراض ...
– القول في اثبات صانع العالم ...

3 – باب في ما يستحيل على الله ...

4 – باب بيان ان الله – تعالى – سميع بصير ...

– القول في صفات الله تعالى .

5 – باب اثبات الكلام لله تعالى .

– فصل واعلم ان كلام الله تعالى – على مذهب اهل السنة – واحد لا يتصف بالتعدد .

– فصل كلام الله منزل على الانبياء ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في الصدور ، ليس حالا في مصحف ، ولا قائما بقلب ...

– القول في خلق القرءان ... اختلف الناس في هذا الباب اختلافا عظيما ، فمذهب احمد بن حنبل وسليمان بن جرير – الى ان ما كان من القرءان امرا ونهيا فهو مخلوق ، وما كان منه من علم الله ، فلا يقال فيه مخلوق ولا غيره ؛ وذهب يحيى بن معين ومن وافقه من أصحاب الحديث – الى ان القرءان كلام الله وكتابه ، وهو محدث غير مخلوق ، قالوا : ولم نسمع احدا ذكر ان القرءان مخلوق .

– القول فيما يجب في أحكام الله – تعالى .

– جواز رؤية الله تعالى .

– فصل واما نبينا – عليه السلام – فمذهب شيخنا ابي الحسن ، انه راى ربه بعيني راسه ، قال ابن العربي : ومذهب الشيخ ابي الحسن – ليس عليه دليل واضح .

– فصل ، قال بعض العلماء : النظر السائغ استعماله في معرفة الله – تعالى – يكون بمعنى انتظار ، قال تعالى : « هل ينظرون الا ان ياتيهم في ظلل من الغمام » ، وبمعنى اعتبار ، قال تعالى : « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » ، وبمعنى التعطف والرحمة ، قال تعالى : « .. الى ربها ناظرة » . – قال : وكل هذه

---

(22) انظر شجرة النور ص 193 .
(23) انظر قانون التاويل (مخطوط خاص) .
(24) توجد نسخة منه بخزانة ابن يوسف بمراكش – ضمن مجموع رقم (525) .

المعاني لا يصح فى معنى النظر اليه ـ سبحانه، فلم يبق الا ان يكون بمعنى الرؤية .

وختم هذا الفصل ـ وهو آخر فصول الكتاب ـ بمن رووا حديث الرؤية عنه ـ عليه السلام ، فذكر منهم عبد الله بن عبد الله ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وابا امامة الباهلي ، وعبد الله بن مسعود ، وجريرا بن عبد الله ، وجابر بن عبد الله ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وعدي بن حاتم الطائي ، وابا هريرة ، وابا سعيد الخدري ، وابا موسى الاشعري ، وانس ابن مالك .

58 ـ « الغرة ، فى نقض الدرة » (25) ـ رسالة رد فيها على ابن حزم ، ونقض رسالته « الدرة » ـ فى الاعتقاد .

59 ـ « العواصم من القواصم » (26) ـ وموضوعه فتنة صفين وما نشأ عنها من اختلاف وعقائد ... وعرض فى ثنايا الكتاب لكثير من مسائل علم الكلام ، وهاجم الفلاسفة ، وورد على نحو 20 فرقة ، منها :

المشبهة ، المرجئة ، المعتزلة ، الشيعة ، الكرامية ، الباطنية ، الماديون ، الاباحيون ، المعطلة ، الامامية ، الاسماعيلية ، الصابئة ، العباسية ، العثمانية ، الاخوانية ، الروافض ، اليهود ، النصارى .

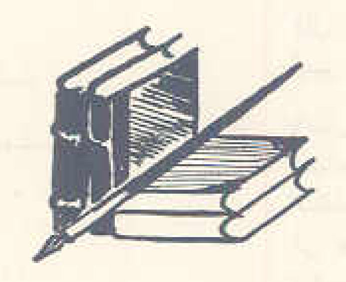
ومن آراء ابن العربي فى هذا الكتاب ـ العقل والشرع صنوان ، وقد سبق بها ابن رشد الفيلسوف .

ولعل ابن خلدون وابن تيمية ، تأثرا كثيرا بابن العربي ـ فى آرائهما الفلسفية .

تطوان : سعيد أعراب

(25) انظر العواصم من القواصم 1 / 68 ـ طبع الجزائر .

(56) طبع بالجزائر فى جزئين ، واعاد نشر القسم الثاني منه محب الدين الخطيب ـ سنة 1371 هـ ، وقدم الاستاذ عمار الطالبي الى جامعة الجزائر رسالة عن « اراء ابن العربي الكلامية ، ونقده للفلسفة اليونانية مع تحقيق الكتاب » ـ نال بها دكتوراه ـ انظر مجلة الاصالة س 1 ع 3 ص 132 .



الكتائب المسيحية
في خدمة الملوك المغاربة

بقلم المؤرخ الاسباني : خوسي اليماني
ترجمة : أحمد مدينة

ان فكرتنا العامة عن العلاقات التي كانت تربط ملوك المغرب بالممالك المسيحية في القسم الاكبر من العصور الوسطى ، يشوبها كثير من الخطأ ، لاننا نجد في هذه الفترة روح التسامح شاملة ، بل نلاحظ ان الوفاق تام بين ملوك المغرب والشعوب المسيحية ، هذا الروح لم لم يكن الى جانب النزعة التي أدت الى نشوب الحروب الصليبية . وحتى في القرن الثامن والتاسع والعاشر ـ حيث كانت غزوات العرب تتوالى على اوربا ـ لم تنقطع الصلات انقطاعا تاما بين البابوية والمسيحيين في افريقيا . فبعد ان تلاشت أخطار تلك الغزوات كان البابوات اول من أعاد صلتهم المألوفة بالمسيحيين وأساقفتهم ، كما انهم ارسلوا الى ملوك المغرب يطلبون امتيازات للكاثوليك القاطنين في البلاد الخاضعة لسيطرتهم .

وقد أفادت الدول الاوربية من الناحية التجارية ، اذ استطاعت ان تمد نطاق تجارتها الى افريقيا الشمالية ، وعقد الامراء المسيحيون معاهدات مع الملوك المغاربة فيما يتعلق برعاياهم .

ومن مظاهر روح التسامح هذه أن الملوك كانوا يتخذون زوجاتهم من رقيق النصارى ويفضلونهن على الزوجات المسلمات (!) حتى أصبح لهن ـ فيما بعد ـ نفوذ قوي في اختيار أولياء العهد . ومن جملتها أيضا تأسيس كتائب مسيحية كانت تؤلف قسما من النظام العسكري خلال عدة قرون في مملكة المغرب وتلمسان وتونس .

كان المرابطون اول من أسس هذه الكتائب وكانت في مبدأ أمرها مؤلفة من أسرى مسيحيين ، وربما من الاهالي أيضا ، ولكن منذ أن تولى الموحدون الحكم في البلاد تألفت هذه الكتائب من رجال احرار ينتمون الى شعوب اوربية مختلفة اغلبهم من القشتاليين المقيمين بمراكش واهل أراغون وقطلونية القاطنين بتونس وتلمسان .

ولا ندري أي نظام في أصله كانت تتبعه ، الا ان نظامها وعملها في مملكتي تونس وتلمسان كان مستقلا عن الجيش المغربي .

ومن تقاليدها المرعية ـ حينما يستوى على العرش ملك جديد ـ انها كانت تأتي كغيرها من فرق الحكومة لتقديم فروض الطاعة والولاء لصاحب العرش يقودها قائد يعينه ملك أراغون تحت امرة الامير الذي يدفع أجورها .

وكان للكتائب أيضا أمينها وقسيسها ، وسمح لافرادها ان يباشروا شعائرهم الدينية في الكنائس بحرية تامة ، كما أذن لهم ـ في بعض الفترات التاريخية ـ بقرع الاجراس ، وكانت راية ملك أراغون شعارا لها تعطى للقائد عقب تعيينه .

واول شيء عني به الامراء والمتنازعـون فى مراكش وتلمسان وتونس وباجة هو تعبئة فرقة من المسيحيين ، الا انهم تجنبوا امتحان مدى اخلاص هؤلاء الجند باستخدامهم ضد الامراء النصارى فى الحروب . لكن حدث — فى بعض الاحيان — انهـم كانوا يقفون وجها لوجه فى حروب افريقية .

والذي قدره الامراء المسلمون فى هذه الكتائب هو نظامها الدقيق واسلوبها الخـاص فى خـوض المعارك . وقد جعلوا منها حرسا خاصـا يتمتـع بثقتهم . قال ابن خلدون : « ... صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج فى جندهم ... لان قتال اهل وطنهم كله بالكر والفر ... مع أن الملـوك فى المغرب انما يفعلون ذلك مع امم العرب والبربـر وقتالهم على الطاعة ، واما فى الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من ممالاتهم على المسلمين » .

العصـــر المرابطـــي :

ورد فى الحلل الموشية ان السلطان علـي بن يوسف — وامه جارية مسيحيـة — كان اول مـن استخدم الفرسان المسيحيين حيث عهـد اليهـم بجباية المكوس وتحصيل الضرائب . ولا ندري هل كان يقصد المسيحيين من الاهالي أم انهم أسرى من الاسبان جلبهم الى مراكش امير البحر علـي بـن ميمون وتاشفين ابن السلطان .

ويذكر مؤلف تاريخ الامبراطـور الفونسو : ان تاشفين بعد حملة سنة 1138 ، عاد الى مراكش ومعه كثير من المستعربين وجميع من لقيهم من الاسرى فى البلاد التي دانت له بطاعتها . وقد انزلهم المدن والحصون مع فوج آخر من المسيحيين لمواجهـة خطر الموحدين الذين اخذوا يهددون مركز الدولة المرابطية ويترقبون الفرصة السانحـة لانتـزاع ممتلكاتهـا .

وكان علي يضع ثقته فيهم ويختـار بعضهـم لمناصب عليا فى القصر ويعين آخرين فى الجيش من مختلـف الرتـب .

وكان بين أسرى علي ، نبيل من برشلونة يدعى « رفرتر » وهو رجل مستقيم دمث الاخلاق يخاف الله لم يهزم قط ، قلده السلطان المركـز الاعلـى بالجيش بما فيه من المسلمين والمسيحيين . وقد ادت هذه الصفات الممتازة فيه أن ينتصـر فى كـل المعارك التي خاضها ضد الموحدين .

وفى سنة 1142 — وكان يتولى زمام الحكـم تاشفين بن علي — خرج « رفرتر » الى الميدان على راس جنده وبينما كان عائدا الى مـراكش محمـلا بالغنائم الكثيرة التي غنمها من بني سنوس ، انقض عليه الموحدون وانهزم جنده وتوفي هو وكثير ممن كان معه من العسكر ، فانتقم منه الظافرون وصلبوه .

ومع ان حكم تاشفين كان قصيرا ، الا انه آثر الجند المسيحيين كأبيه ثم خلفه من بعده اسحق فى زمن اتخذ فيه عبد المومن — السلطان الموحدي — مدينة مراكش قصبة له عام 7 — 1146 م / 541 هـ واستولى عليها كما يقول ابن الاثير بفضـل خيانـة الكتائب الفرنجية بعد ان سئمت الحصار الطويل ، وحذت حذو الشيخ ابن ابي بكر الذي اذعن لامـر المحاصرين وفتحت لهم باب اغمات .

فاذا وقعت هذه الخيانة بالفعل ، فانها تمت على يد « ابن رفرتر » الذي ارتد عن دين ابيه واستمـر يعمل فى جيش الموحدين .

العصـــر الموحـــدي :

باعتلاء اسرة الموحدين عرش المغرب ، تغير كل شيء بالنسبة للنصارى فقد حل التعصب الاعمى محل التسامح الذي ابداه نحوهم آخـر الملـوك المرابطيـــن .

وحينما تولى امر الدولة المغربية السلطان عبد المومن سنة 1146 ، اعلن للملا انه لن يقبل غيـر المسلمين فى مملكته ، وانه سوف يقوض كنائـس النصارى ومعابد اليهود ، فلهم ان يعتنقوا الاسلام والا كان مصيرهم الموت والتشريد . فاسلـم بعـض المسيحيين واستشهد بعضهم ، بينما عبرت طائفة اخرى منهم البحر مع اسقفهم وجانب كبير من رجال الدين ، وحطوا رحالهم فى مدينة طليطلة .

ابــن رفرتـــر :

ومن بين الذين اسلموا نذكر « ابن رفرتـــر » — قائد علي وتاشفين — الذي اتخذ لنفسه اسم ابي الحسن علي بن رفرتر وظل خادما وفيا للموحدين . فأرسله أبو يعقوب خليفة عبد المومن فى آخر ايامـه

الى ميورقة ليتولى الحكم باسمه على جزر البليار فاستسلم اميرها محمد ، ولكن اخوته ساءهم الخضوع لامارة الموحدين ، فبعد وصول « ابن رفرتر » بقليل ، وقبل ان يتولى شؤون الحكم في الجزيرة ، القي القبض عليه وعلى الامير محمد وحبسوهما في القصر ونودي بعلي — احد اخوته — أميرا على جزر البليار ، ثم اعلن الحرب على الموحدين وتوجه باسطوله الى بجاية ، فاستولى عليها .

وقد أفاد ابن رفرتر من غياب علي ، فعمل على مخادعة الحراس والاتفاق مع الجند النصارى في الجزيرة ، وتم الاستيلاء على الحصن وتنصيب محمد من جديد الذي اعترف في الحال بحكم الخليفة الموحدي المنصور . لكن ابن رفرتر ندم بعد ذلك فطلب المعونة من « كوندي برشلونة » فأوعز اليه هذا بالالتحاق باحدى كتائب قطلونية مما أوغر صدور انصاره عليه ، فخلعوه وعينوا مكانه تاشفين . فهرب « ابن رفرتر » ومعه محمد من الجزيرة عائدين الى المغرب . وهناك توفي في معركة غمارة في يونيه سنة 1187 بعد وصوله بزمن قليل .

كونسالفو :

ومن الذين اعتنقوا الدين الاسلامي شخصية من أسرة ملكية اسبانية نجد لها ذكرا في المخطوطات العربية ، وكان يسمى ابا زكريا يحيى بن كونسالفو اللاجيء . ويعرف ايضا باسم « ابن اخت الفونسو » . وقد بحث عن المأوى بجوار احد الموحدين في مكناس حيث شيد بها في أوائل القرن السابع الهجري (1213 — 1223 م) حماما عظيم البناء ونصبه قائدا لفرسان الدولة الذين يحولون دون وقوع حوادث السلب التي يقترفها الرحل من البدو . وكان خيرا محترما من المسلمين الاتقياء يرتدي الزي المألوف عند الموحدين .

ولا ندري اكثر مما ذكرنا عن هذا الرجل الذي يحتمل انه كان لا يزال حيا في سنة 1226 .

وحينما كان يحيى يتولى امر الفرسان بالمغرب بويع المأمون في اسبانيا وكان عالما سمحا له جواري مسيحيات . وقد اعلن للملأ من منبر الجامع قائلا عن المهدي بن تومرت :

« ايها الناس لا تدعوه بالمعصوم وادعوه بالغوي المذموم ، انه لا نبي الا عيسى » ، ولم يشأ أن يعبر البحر الى العدوة ليتولى امر المسلمين فيها مع انهم اعلنوا ولاءهم له واختاروه واليا عليهم الا بعد ان حصل من سان فرنندو على جيش مؤلف من اثني عشر الف رجل فعبر بهم الزقاق الى المغرب فهرب منه يحيى .

بقي الجند النصارى هناك في خدمته ردحا من الزمن سلم خلاله المأمون لسان فرناندو — بمقتضى شروط متفق عليها — عشرة حصون من ثغور قشتالة وسمح بتشييد كنيسة في مراكش وبحق استثنائي يخول لهم قرع اجراسها .

لم يلبث المأمون بن المنصور الا قليلا في عاصمة ملكه حتى اضطر الى الرحيل بجيش الفرنج لحصار سبتة بعد ان نودي بأحد اخوته اميرا عليها . وفي اثناء غيابه دخل مراكش يحيى المخلوع وهدم الكنيسة التي بناها النصارى ، وقتل عددا كبيرا من اليهود وبني فرخان (1) واستولى على ممتلكاتهم ، فلم تكد انباء هذه الحوادث تنتهي الى مسامعه حتى رفع الحصار عن سبتة متجها نحو نحو مراكش غاضبا حانقا على اهلها عازما أن يولي الفرنج امر الدفاع عنها . ولكن المنية عاجلته — قبل أن يصل اليها — بقرب نهر ام الربيع اوائل سنة 360 هـ (1223 م) فكتمت جاريته حباب الفرنجية الاصل خبر موته زهاء يومين ، اتفقت فيهما مع قواد المملكة وقلانكلي — رئيس جيش الفرنج — على الاعتراف بابنها ابي محمد عبد الواحد الرشيد بن المأمون بن المنصور اميرا . فبويع بالملك في نفس المعسكر الذي توفي به والده ، ودخل بعد قليل مدينة مراكش مظفرا .

زاد هذا العمل في شهرة الجند النصارى وقوى نفوذهم . وصار منذ ذلك الوقت القسم من الجيش الذي يتمتع بثقة الملوك وسندهم سواء في محاربة القبائل الثائرة في ارجاء المغرب أم في محاربة بني زيان الذين أعلنوا استقلالهم في تلمسان، وبني مرين سادة النواحي الجنوبية الغربية من المملكة المغربية .

---

(1) بنو فرخان ، جمع فرخ ، ومعناه رجل منحط شرير ، وكان ينعت به الدهماء الجنود الفرنجية حسدا واستصغارا لشأنهم . وقد عاد اعقاب هؤلاء الى اسبانيا في عهد دون خوان الاول .

وفي اثناء حكم الرشيد ثارت قبيلة الخلـوط وحاصرت مراكش ، فخرجت اليها حامية المدينـة تحت امرة عبد الصمد بن يلولان ولكن رجال القبيلة شنوا هجوما بقيادة رئيسهم على الجنود الفرنجيـة فهزموهم وشتتوا شملهم بعد ان قطعوا عليهم خط الرجعـة .

في سنة 1248 مات السعيد بالقرب من وجدة وهو يستطلع موقعا كان يريد ان يأسر فيه يغمراسن اول ملوك بني زيان ومات معه اوربي يسمى ناسي ، ورئيس الجيش المسيحي الذي كان يسميه العرب « اخـا القمط » .

في هذا الوقت كانت فاس قد وقعت في ايدي بني مرين ، وفيها ترك ابو بكر اميرهم ، نائبه السعود، وخرج بجيشه الى بلاد زناتة وبقيت في فاس تحت امرة السعود جيوش الموحدين التي استسلمت لبني مرين ؛ بينهم طائفة من النصارى مؤلفة من ثلاثمائـة نفس على راسهم شريد الفرنجي ، فاستغل اهل فاس، وهم من أنصار الموحدين ، غيبة أبي بكر واتصلـوا بالقاضي ابي عبد الرحمن المغيلي ليفاجئوا السعود ويبايعوا المرتضى بالملك . ولتنفيذ خطتهم المدبرة دعوا القائد المسيحي واعربوا له عن رغبتهم في ان يقتل السعود ويقوم هو بأمر المدينة حتى يكتبوا الى المرتضى ليرسل اليها واليا عليها من طرفه فقبـل عرضهم لميله الى الموحدين .

« فلما كانت صبيحة يوم الثلاثـاء الموفـي عشرين من شوال سنة سبع واربعين وستمائة ، طلع الاشياخ المذكورون الى القصبة للسلام على السعود على عادتهم في ذلك ، فدخلوا عليه بمجلس حكمـه وهاجوه ببعض المحاورات ، فغضب وانتهرهم فوثبوا به ونادوا بشعارهم وكان شريد الفرنجي واقفا في عسكره امام القصبة قد واطاهم على ذلك ، فاقتحم على السعود فقتله وقتل معه اربعة من رجاله واحتز العامة راسه ورفعوه على عصا وطافوا به في اسواق البلد وسككها واقتحموا القصر وانتهبوه وسبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد وبعثوا ببيعتهـم الى المرتضى صاحب مراكش (2) .

وحوالي سنة 655 هـ (1257 م) بايع محمد القطراني المرتضى في سجلماسة . فبعث الى تلك المدينة بابي عامر ليتولى منصب القضاء ، يرافقه احد افراد الاسرة الملكية ليستولى على الحصن . وقـد استصحب معه حرسا يراسه قائد من قواد الجنـد النصارى . فدبر ابو عامر بعد ذلك قتل القطرانـي ونفذ ماربه بمساعدة القائد المذكور .

وفي سنة 660 هـ (2 — 1261 م) امر المرتضى وزيره ابا زيد بن يكيت على جيش لمحاربة علي بن يدر فقصد هذا سوس على راس فرقة كان فيها قائد مسيحي اسمه دون لوب (3) ويظهر انه لم يكن راضيا عن خطط ابي زيد الحربية على انه من المؤكد كما يقول ابن خلدون ان معارك كثيرة نشبت ، كانت الدائـرة فيها تدور دائما على الموحدين بسبب توانى دون لوب وتمرده . فلما اكتشف السلطان — عن طريق وزيره — سوء تدبير القائد ، امره بالمثول بين يديه وعمل على قطع الطريق عليه وتدبير قتله . ولكنه لم يتجرأ ان ينزل به هذا العقاب لسبب واحد ، هو خشيته من تألب جيش المسيحيين عليه .

ان سياسة التسامح التي درج عليها المأمون استمرت — كما راينا — في عهد خلفائه الى ظهور بني مرين . وفي 27 مايو سنة 1233 بعث البابا كريكوريو التاسع بشكره الى الرشيد لما اظهره مـن عطـف وتكريم للاسقف ورجال الدين في مراكش ويقـدر باسم الكنيسة صنيعه ويأمل ان يأتي اليوم الـذي يفتح فيه عينه للنور الصادق (!) ويضيف البابا الى ذلك قائلا : « فاذا كنت تريد ان تصبح عدوا للمسيح لا صديقا له فليس في وسعنا ان نسمح للمسيحيين بالعمل في صفوفكم » .

ولا مراء أن عدد هؤلاء كان عظيما في مراكش حيث اغراهم التسامح الديني والامتيـازات التـي

(2) الناصري ج 2 ص 8 ابن خلدون ج 4 ص 39 .

(3) نشك ان يكون دون لوب هذا هو اسقف مراكش الذي يحمل نفس الاسم ، عينه البابا انوسيتيـو الرابع في 19 ديسمبر سنة 1246 واذن له بعد عشر سنوات بزيارة البلاط البابوي ، فسافر الى روما سنـة 1257 .

تمتعوا بها كما جاء في رسالة ارسلها انوسينسيو الرابع من ليون الى السعيد يقول له فيها : « أهنئكم كثيرا على اقتفائكم اثر اجدادكم الذين منحوا الكنيسة في مراكش ممتلكات وكثيرا من الامتيازات ، فانت لم تحم الكنيسة من هجمات أعداء الديانة المسيحية من الغوغاء فحسب ، بل انك ضاعفت امتياز المسيحيين وبالغت في اكرامهم فلبوا نداء أجدادك . ونأمل ان تكون على استعداد أكثر لوقاية المؤسسات المقدسة ، وان تزداد حمايتك للرعايا المسيحيين المقيمين في ولاياتك ، وسيعلم العالم انك لا تقل شهرة عن اسلافك . وسنقوم من جهتنا بواجب المحافظة على مصالحك ، باذلين أقصى الجهود لحمايتك من خصومك » .

ثم يطلب البابا من السعيد أن يحتل النصارى بعض الحصون ليحتموا بها مع أسرهم ضد الغارات التي تهدد سلطان مراكش من كل جهة . يقول البابا : « ان لك اعداء الداء يبحثون عن انتزاع ملكك بالمكر وبقوة السلاح . ولقد ثبت المسيحيون وأفلحوا في الدفاع عن دينك وعن ولاياتك، وهم لا يهابون الاخطار. وتعلمون جيدا ان عددا كبيرا منهم سقطوا صرعى في ميدان القتال أكثر من مرة . ومن المحتمل ان تفاجئهم في يوم من الايام غارة هوجاء . فلتلافي هذا نلتمس منكم ان تمكنهم من بعض المدن الحصينة ليعتصموا بها في أوقات الشدة ، ونطلب اليكم ان تعهدوا اليهم بحراسة بعض القواعد البحرية ليسهل عليهم – عندما تستدعي الضرورة – الخروج لطلب نجدة جديدة لمساعدتكم » .

وتفكير البابا يتجه الى أن هذه القواعد لا يجب ان تنفصل عن حكم السلطان وانما سيقوم النصارى باعباء الدفاع عنها ليس غير . ولكن من الخطر ان توضع في أيديهم قواعد مهمة كطنجة وسبتة .

مات السعيد دون ان يحقق رغبات البابا ، وفي 16 مارس سنة 1251 الح أنوسينسيو الرابع على أبي حفص عمر المرتضى بن السعيد بن يوسف بن عبد المومن في انجاز نفس المطالب المتقدمة وأضاف الى ذلك انه سيمنع المسيحيين من الدخول الى مراكش ان لم يقبلها . وانه سوف يخاطب أسقف هذه المدينة بأن يأمر الجند بترك خدمة السلطان .

ولكن البابا خبير بالعراقيل التي تعترض السلطان للتسليم بهذه المطالب ، فكف عن المطالبة بها ، واستمر المسيحيون يعملون في جيش الموحدين حتى دالت دولتهم واستمروا يعملون مع بني مرين ومع الاميرين المستقلين بتونس وتلمسان.

العصر المريني :

دامت امبراطورية الموحدين المترامية أكثر من مائة عام . وقد عجلت في تصدع أركانها وفنائها موقعة العقاب .

وكان أول شيء حرص عليه ابو يوسف يعقوب ابن عبد الحق – بعد ان تم له الاستيلاء على مراكش – هو اعداد جيش منظم يشمل فلول جند الفرنج ، وذلك ليواصل فتوحاته ، فلما توجه بتلك الجيوش الى مملكة تلمسان كان ليغمراسن ، صاحبها فرقة من الجيوش الفرنجية أيضا . فخرج للقتال ، فتقابلا عند نهر « ايسلي » في سهول وجدة . وبعد قتال عنيف ، انهزم يغمراسن تاركا خلفه كثيرا من جنوده الفرنج صرعى واسر قائدهم « برنيس » وفر يغمراسن ببقية الجيش .

نشبت هذه المعركة سنة 670 هـ (1271 م) وفيها حارب الفرنج اخوانهم لصالح اسيادهم المغاربة.

ومع ان النصر تم لابي يوسف ، الا انه لم يستطع التغلب على مملكة تلمسان ، فانصرف الى تنفيذ القسم الآخر من مشروعه ، وهو احتلال سبتة. ولكنه رأى من المستحيل عليه أن يقهر المدينة بدون معونة خارجية ، فتقدم الى خايمي الاول ، صاحب برشلونة سنة 1274 ، وامضيت معاهدة 8 نوفمبر تنص على : ان ملك اراغون سيعير السلطان عشر سفن مسلحة ، وعشرة مراكب وخمسين زورقا صغيرا وخمسمائة رجل من الفرسان والنبلاء . ويرسل المغربي – في مقابل هذه المساعدة – مائة الف بيزنطة سبتية خالصة ثمنا لهذا الاسطول ، ومائة الف أخرى لاعداد السفر لهؤلاء الفرسان . ويتعهد – اذا تأخر فتح سبتة سنة – ان يدفع – ما دام الحصار مضروبا عليها – مائة الف بيزنطة سنويا . وبعد ان تفتح تدفع لملك اراغون او لخلفائه من بعده جزية قدرها مائة الف في كل عام ، وعليه ان يرتب

مائة بيزنطة لرئيس الفرسان فى اليوم ، ولكل من الفرسان بيزنطتين ، وله – فوق هذا – ان يمدهم بالجياد ويشيد كنيسة لعباداتهم . وهو ملزم – فى نهاية كل عام – بتسريح كل من أراد العودة الى ذويه. وبعده ملك اراغون من جهته بامداده بخمسمائة آخرين يظلون معه حتى تفتتح سبتة .

لكننا لا نعلم شيئا عن الاسباب التي ادت الى عدم تنفيذ نصوص هذه المعاهدة . ومن المحتمل ان يكون السبب ، تأثير عثمان بن ابي دبوس – آخر ملوك الموحدين – على ملك أراغون . فمن المعلوم انه – بعد انهيار ملك الموحدين – التجا الى بلاط خايمي الاول مؤملا معونة هذا العاهل لاسترداد عرش اجداده على ان الذي يبدو محتملا ان المغربي غض الطرف عما ورد فى الاتفاق مفضلا صرف هذا المال الكثير في محاربة المسيحيين .

فى هذا الوقت كان رئيس الجند الفرنج على عهد ابي يوسف غارسي مرتينث دي كايكوس وهو احد السفراء الذين ارسلهم السلطان الى الاندلس سنة 1278 يطلب الى الاسبان ان يفكوا الحصار المضروب على الجزيرة الخضراء على ان يدفع فى مقابل ذلك مائتي الف مثقال . وبينما كان دون بدرو قائد الجيش المحاصر يستشير اباه الملك فى شان القبول او الرفض ، علم ابو يوسف بالظروف السيئة التي تحيط بالاسطول القشتالي . فاجهز عليه وحطمه فرفع الحصار ، وطلب الفونسو العاشر الصلح ..

وكان احد سفراء ملك قشتالة الى ابي يوسف الفونسو بيريس دى قزمان . وقد تناهت موهبته ومهارته الى اسماع ملك المغرب حتى ذكر حينئذ انه يتمنى ان يكون ضمن حاشيته ليبالغ فى اكرامه ومكافآته على مواهبه .

بعد ذلك ببضعة ايام ، ساءت العلاقات بين قزمان والفونسو العاشر (لان احد اقربائه طعن فى نسبه على مرأى ومسمع من رجال البلاط بدون ان يبدي الملك اعتراضا ما . فطلب ان تعطي له شهادة تثبت نسبه كما هو المألوف فى شريعة قشتالة) . وبادر مع خمسين من اصدقائه وعشرة من خدمه يعرضون خدماتهم على ابي يوسف وهو بالجزيرة الخضراء . فما ان علم عاهل المغرب بمقدمه حتى ارسل للترحيب به غارسي مرتينث دى كايكوس على راس ستمائة مسيحي ممن كانوا تحت امرته . ثم استقبله بنفسه استقبالا حارا وجعله قائدا لحرس القصر ورئيسا لكل الفرنج الملتحقين بخدمته وتعهد قزمان – من جهته – بخدمة السلطان ضد كل اعتداء يوجه اليه من الاشخاص وشعوب الارض قاطبة ما عدا النصارى .

ذهب قزمان – حين عودته مع ابي يوسف الى المغرب – لتحصيل الجزية من البدو الرحل بعد الافراج عن جميع الاسرى المسيحيين المعتقلين فى المملكة ليستعين بهم قزمان فى مهمته . فالف منهم ومن المتطوعة جيشا من الفرسان يبلغ عدد رجاله الفا وستمائة ، امرهم بوضع علامة الصليب الابيض والاحمر على اسلحتهم فى الصدر والظهر ، واشار على ابي يوسف بان يأمر المغاربة المشتركين فى القتال بوضع نفس العلامة حتى يتميزوا فى القتال ، فامروا ، ولكنهم لم يطيعوا جميعا أمره .

قصد القائد تخوم المملكة واغار على البدو فانهزموا لاول صدام ، وتقدموا فى اليوم التالي ينشدون الامان ، فألمهم قزمان بشرط ان يؤدوا ضريبة تلك السنة والسنة التي قبلها فضلا عن دفع نفقات الحملة . ثم عاد بالاموال الى فاس حيث استحق نصف المال المحصل فرق نصف نصيبه بعد ذلك على اتباعه ، فاحبوه لجوده بينما كان المغاربة ينظرون بعين الحسد الى نفوذه ومقامه العظيم .

بين المسيحيين الذين آثرهم قزمان ثيبوليا استاذه وغارسي مرتينث ووصيف له اسمه كونثا لوسانتشيس دى ترونكونيس .

وعندما ارتأى الفونسو العاشر سنة 1282 ان يفتح اشبيلية مدينته الوفية . ويستنجد ابا يوسف، كلف السفراء أن يفاتحوا قزمان فى الامر ، قبل ان يكاشفوا العاهل المغربي ، ويسلموا له تلك الرسالة الشهيرة التي يقول عنها برانتيس ملدونادو انه رآها بين مخطوطات الدوق دي مدينة .

جاء السفراء الى فاس ، وقدمهم قزمان الى يوسف ، فعزم – بعد استشارة قائد جنده – ان ينجد الفونسو ، ويقرضه فوق ذلك ستين الف مثقال فى مقابل التاج الموروث عن سلفه .

واسندت الى قزمان مهمة حمل المال الى اسبانيا ، فقصد اشبيلية واستقبل استقبالا حافلا وقع بعده فى حب دونيا ماربة الونسو كورنيل وتزوجها بعد استئذان سيده واخذ رايه . وبعد خمسة عشر يوما من زواجه ، عاد فى مايو من نفس السنة الى المغرب ثم رجع الى اسبانيا فى شهر يوليو او اغسطس بصحبة ابي يوسف الذي خف لنجدة الفونسو فى حربه ضد ابنه سانتشو . وبمقتضى الميثاق المعقود مع صاحب المغرب لم يشترك قزمان فى حملة ابي يوسف ، بل انصرف الى محاربة صاحب غرناطة .

توفي ابو يوسف فى سفره الرابع الى اسبانيا سنة 1286 وخلفه من بعده ابو يعقوب الذي لم يكن ميالا الى النصارى كأبيه ، اذ أمر ان يعاد الرقيق الى حالة العبودية القديمة قبل ان يعمل قزمان على تحريرهم لاستخدامهم فى الجيش ، وسن عقوبة الاعدم لكل من حاول الافلات ، ثم اراد ان يتخلص من قزمان خوفا من اتساع نفوذه ، ولكنه خشي اذا هو قتله ان يتألب عليه الجند الفرنج ، فاشاروا عليه بأن يرسله مع جمع قليل لجباية الجزية من الاعراب الرحل بعد الاتفاق معهم على مقاومته ، عندئذ يذهب الامير بنفسه لنجدته فيصبح قزمان بين نارين .

وقعت الرسالة فى يد قزمان ، وعلم بالفخ المنصوب له ، فاستبد لها برسالة اخرى يقول لهؤلاء عكس ما جاء فى الاولى . فما كاد يصل اليهم حتى اخذ ما تجمع لديهم من مال متجها بعد ذلك الى الساحل ، ومنه أبحر الى اسبانيا على سفن امير البحر التابع لقشتالة الذي دبر معه وسيلة الهروب ، وكان ذلك سنة 1291 . وهكذا ظل ما تبقى من جند النصارى يعمل بالمغرب دون ان نعلم عنه شيئا (4) الى ان حاصر السلطان ابو يعقوب مدينة تلمسان . . .

لا تكاد نجد فى مؤلفات هؤلاء ما يرفع من شأن الجند النصارى ، وحتى ابن خلدون ذكر ان السلاطين لم يحسنوا صنعا باستخدامهم لان هذا يزيد فى عضد الكفار ، وصحيح أن القسم الاعظم من هؤلاء الجند لم يكونوا على جانب من الخصال الحميدة ، فان الجندي منهم هاجر بلاده تاركا خدمة ملكه املا فى الكسب ، وكان رؤساؤهم لا يترددون فى اطاعة الاوامر التي تصدر اليهم من السلطان لقتل أي شخص يعارضهم ، شيء يبعث الفزع فى نفوس المسلمين الصالحين ، غير انه اذا قيل ذلك فى القواد والرؤساء المعينين من قبل الملوك ، فان ذلك لا يجوز فى حق النبلاء الاراغونيين ممن يعينهم ملك أراغون .

ومع ان معاهدة سنة 1274 لم تنفذ نصوصها بين خايمي الاول وابي يوسف كما اسلفنا ، الا ان العلاقات الودية بين المغرب ومملكة اراغون استمرت منذ ذلك الوقت الى القرن الثامن الهجري يعززها حنق السلطان على ملك غرناطة (صاحب سبتة ايضا) وعدم ثقته — هو وصاحب أراغون العامل على امتلاك غرناطة — بملك قشتالة .

وفى سنة 1308 قدم الى أراغون ابو العباس وبرناردو سيكي أرسلهما السلطان ابو ثابت الى تلك المملكة يعرضان على ملكها راي السلطان اجمالا : « من العار ان يحكم غرناطة رجل وضيع ويجاوره أمير نبيل كأمير اراغون . وان سلطان المغرب يثيره ان يرى سبتة محتلة من قبل ملك كابن الاحمر » .

فمن مصلحة العرشين ان يطرد الاندلسيون من قاعدة سبتة . فسر الملك خايمي كثيرا لهذه الاقوال، ولكنه مع ذلك لم يستطع ان يرضي أبا ثابت بالسرعة المبتغاة لارتباطه بوعد منصوص عليه فى معاهدة كاميو بالا يقلق ملك قشتالة جاره الغرناطي . ومعذلك لم يمنعه التزامه من اظهار رغبته للسفراء فى مفاتحة ملك قشتالة بالامر واستئذانه لارضاء ملك المغرب ، الا ان أبا ثابت مات وخلفه أبو الربيع . عندئذ ابرمت المعاهدة التي كان السلطان يتمناها .. ولم نعرف شيئا يتعلق ببنودها الا عن طريق أوراق الاعتماد والسلطة التي منحها ملك اراغون الى الفيسكوندي

(4) فى سنة 1294 اضطر الامير دون خوان ان يغادر البرتغال ، فأبحر منها الى فرنسا لكن العاصفة دفعت به الى شواطىء طنجة ، فأرسل منها الىأبي يعقوب بفاس رسولا يعرض عليه رغبته فى الدخول فى طاعته ، فوجه اليه والي حاشيته الجياد وكل ما هم فى حاجة اليه ... هناك اتفق معه على محاصرة طريف (تاريخ دون سانشو الرابع ، الفصل الحادي عشر) .

دي كاستلنو فى 3 مايو سنة 1309 . وكان حلفا دفاعيا وهجوميا اوسع مدى من الحلف بين ابي يوسف وخايمي الاول فى سنة 1274 . وبديهي ان يكون احتلال سبتة اول شيء يستلزم العمل السريع وكان على اراغون ان تساعد - حتى سقوطها - بخمسين سفينة والف فارس ، والتزم السلطان ان يؤدي الفي مثقال لكل سفينة اثناء الشهور الاربعة الاولى ، والف فى كل اربعة شهور تليها . وأن يؤدي كذلك نفقة الرجال وان تعطى الغنائم كلها لملك اراغون .

سقطت سبتة فى سنة 1309 نفسها بمساعدة الاسطول والفرسان الاراغونيين تحت امرة الفيسكوندي دى كاستلنو . ثم ولى برناردو سيكي عليها .

توترت العلاقات بين المغرب واراغون بعجز أبي الربيع وخليفته ابي سعيد عن تنفيذ الشروط المتفق عليها للاستيلاء على سبتة ، ولا نظن انها قطعت نهائيا بالرغم من أن خايمي الثاني اجاب امير البحر رايموندو ريكارد فى سنة 1315 بانه فى وسعه أن يحارب الشرقيين قاطبة ما عدا اميري تونس وبجاية، فانهما كانا مسالمين له .

والذي يبعث على الاستغراب ان رعايا ملك اراغون ممن جاءوا بقصد احتلال سبتة استمروا يعملون تحت رعاية السلطان .

ثم ان خايمي الثاني شكا سنة 1322 الى ابي سعيد نقض معاهدة 1309 مطالبا - تنفيذا لها - بارسال اربعين الف مثقال كاعانة ، ويرجوه ان يرخص للجنود الفرنج من رعاياه فى المغرب بالسفر . وان تعذر سفر الجنود كلهم فيكتفي بايفاد سيكي مع مائة فارس مسلم . ولا ندري اذا كان ابو سعيد قبل كل ما كان يرجوه خايمي الثاني او بعضه . فالجند النصارى دابوا يعملون فى المغرب - كما رأينا - خلال حكم ابي سعيد وابنه الحسن خليفته من بعده يحاربون فى صفوفهما .

هذه هي الاخبار التي استطعنا ان نستقيها من المؤلفين العرب والفرنج عن الكتائب المسيحية فى مراكش او فاس . ومما لا شك فيه أنهم استمروا على عملهم اثناء القرن الرابع عشر كله وجزء من القرن الخامس عشر .

وفى أول سبتمبر فى سنة 1388 اذن خوان الاول صاحب اراغون لجيلابرت روفيرا الطرطوشي بالارتحال الى فاس بخمسين من الرجال وعشر نساء يقمن على خدمتهم ، بقصد المشاركة فى الحرب ضد المسلمين الشرقيين .

ويظهر أن روفيرو سار ليحارب لحسابه الخاص، ثم لا ندري بعد ذلك شيئا عن الاعمال التي قام بها هذا القائد الجدير باطلاق اسم دون كيخوتي عليه .

وفى هذا العهد - اى سنة 1386 - كان بالمغرب خمسون رجلا قشتاليا يقال انهم من نسل القوط ، نقلوا الى المغرب بعد فتح الاندلس وقد أرسلوا الى اسبانيا احدهم يدعى ساندرو رودريكس يتوسل الى الملك دون خوان فى ان يقدم طلبا بشانهم لملك المغرب وان تفسح مدينة اشبيلية صدرها لايوائهم . فاجاب الملك رغبتهم ورحبت المدينة بمقدمهم فى 8 أكتوبر ، فوصلوا الى اشبيلية سنة 1390 حاملين كتاب سلطان المغرب للملك دون خوان .

بعد اقامتهم باشبيلية انزلهم الملك انريكي الثالث سنة 1394 منزلة عظيمة تتناسب وما كان لهم من سلطان فى القديم .

أصول التشريع الإسلامي

بين النزعة التقليدية والنزعة التجديدية

للدكتور محمد كمال شبانة

لعل من الاوفق أن نقدم لهذا الموضوع الخطير بالحديث في ايجاز عن أصول التشريع الاسلامي وأهدافها العليا ، من سعادة للانسانية جمعاء في الدارين ، فقد بشر محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الدين باعتباره نظاما سماويا كفيلا باسعاد البشر من جوانبه الروحية والمادية معا ، اذ يعطي الاسلام كل المظاهر الحياتية للمجتمعات ، بحيث يمس جوهر الحضارة بصورة لا عهد للاديان الاخرى بها في الغرب، وفي بداية الامر نرى أن هذا الدين ليس مجرد مجموعة من العقائد الدينية لدى معتنقيه ، وانما هو تنظيم اجتماعي ذو دوافع من المعتقدات .

وما أن دخلت الامم أفواجا في الدين الاسلامي، حتى لمست في الشريعة المحمدية الاطار العام الصالح لحياتها الروحية ، والاساس لكيانها المادي ، وهكذا اشتمل الدين على مجموعة من الانظمة المختلفة ذات مصادر : القرءان ، والحديث ، والاجماع ، والقياس. أما الاجتهاد في تفسير أمور الشريعة فقد كان قاصرا على أصحاب المذاهب الاربعة المعروفة ، تلك المذاهب التي يعترف كل منها للآخر بسلامة العقيدة، والاختلاف حول بعض التفاصيل ، باعتبار هذا الاختلاف « رحمة من الله » . وكل هذا بعد الاعتداد بالاجماع وعدم النقاش حول أي مسألة كان مرد القول فيها اليه . وعلى هذا فقد أضحى للشريعة مصدران فرعيان اقرهما جمهور الفقهاء ، وهما الاجماع والقياس ، بالاضافة الى مصادر اخرى أحلتها او تحلها الضرورة او العرف ، كالقول بـ « الاستحسان» عند الحنفية ، والاخذ بنظرية « المصالح » عند المالكية ، وما الى ذلك .

ولقد تعرض الفقهاء لكل هذه المصادر في « علم الاصول » مستنبطين منها الاحكام الاسلامية ، وهذا الاجراء منهم هو ما عرف باسم « الاجتهاد » الذي هو المنطلق لتطوير التشريع الاسلامي تلبية لمطالب الاقطار المختلفة ، وتبعا لاختلاف الازمنة . بيد أننا ندرك أن الاجتهاد ساعد على مرونة القانون ، ومع عدم اتفاق الفقهاء أحيانا الا أن المسلم لجأ الى الاجتهاد في كثير من المسائل التي دار حولها خلاف الفقهاء ، ولكن الاجتهاد **ليس معناه « حرية الحكم » ابدا** ، وهو ما نص عليه بعض المجددين في الاسلام ، ومن قبل خاف الفقهاء على شرعية « الاجتهاد » لئلا يتخذ ذريعة الى الاهواء الشخصية ، ومن ثم حدوث الانشقاق في الصف الاسلامي ، فبذلوا قصارى جهدهم نحو تحديد مداه، وتطبيق منافذه .

اما الاجماع فقد اقر مبدأ السلطة في نطاق العقيدة ، وكان من طبيعته تضييق نطاق الحرية في الاجتهاد وممارسته ، ومع هذا فقد وفر تسامحا في حدود معينة « واما كان يرتكز ــ الاجماع ــ على ضمير الجماعة ككل ، فلم يكن بامكان أي مسلم يتبنى وجهة نظر ما أيا كانت قوتها أن يعلن خروج معتقدات

اي مجموعة اخرى على الدين ، وعلى فرض حدوث ذلك فلم يكن بامكانه القضاء عليها بالقوة . اما الروافض الوحيدون في الاسلام فهم الذين رفضوا الاجماع ، وحاولوا فرض مبادئهم بالقوة . وطالما ان مفهوم الاجماع لدى المسلمين كان يستند الى الضمير الديني للشعب كمجموع ، فان الديمقراطية الروحية في الاسلام كانت تتخذ شكلا شموليا » .

هذا ، وبحلول القرن العاشر الميلادي نرى المذاهب الاربعة قد ارست قواعدها ، وصارت افكار مؤسسيها وتلامذتهم المصدر الاساسي لطلاب البحوث الفقهية والقانونية ، دون قيد ما على اي مسلم اراد التحول من مذهب الى آخر « وكان الولاء للمذهبين : الحنفي والشافعي غالبا في العراق وسوريا ومصر . وحين استولى الاتراك العثمانيون على الحكم فيما بعد نجدهم يأخذون رسميا بالمذهب الحنفي . اما المذهب المالكي الذي انكمش في الحجاز ، فقد انتشر في الشمال الافريقي والاندلس. وانتشرت عقائد الشيعة انتشارا واسع النطاق في جنوبي العراق واواسط آسيا والهند ومنطقة الخليج العربي . واخذت بها فارس رسميا منذ بداية القرن السادس عشر » .

ولقد طرح باب الاجتهاد تدريجيا ، وحل التقليد محله ، تبعا لاستقرار المذاهب الاربعة، التي اضحت قوانينها حينئذ محل السمع والطاعة ، وكل خروج عنها بدعة ، فكانت النتيجة الحتمية لتلك توقف التفكير الاسلامي ، وانتشار التقليد في امور الشريعة خاصة ، وفي العلوم العربية والاسلامية عامة ، مع ان في هذا مخالفة صريحة لنصوص الدين ومفاهيمه ، ومن شان ذلك الحكم على المسلمين بجمود التفكير ، ومعارضة نظرية النشوء والارتقاء والاستمرار في اتباع ما رسمه هؤلاء لانفسهم وللمسلمين في زمانهم حتى يوم الدين .

«والحق أن الحكم الاستبدادي هو الذي شجع على سيادة الفكر المحافظ . ونتج عن ذلك **ان أصيب الاسلام بمثل ما اصيبت به المسيحية** في العصور الوسطى من تلبيس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الجافة اليه وهو منها براء . وحينئذ اشتد الخلاف بين اتباع السنة والنقل وبين من جعلوا من العقل مقياسا لكل شيء . ومرجع ذلك ان الخلفاء مالوا الى تقريب اتباع الفرق المحافظة، واقصوا عنهم المفكرين الاحرار ، خاصة حين باتت الحكومة في الدولة العباسية ذات طابع ديني استبدادي ، فرسخت عقائد الدين متشحة بالتقاليد، وقررت حدودها ، واضطهد اتباع الفكر الحر شر اضطهاد . وما كاد يحل القرن الثاني عشر الميلادي حتى قضى على كل مفكر مبتكر ، وطرات على الفكر الاسلامي مرحلة ركود استمرت حقبة طويلة ، وأثرت في الدين ذاته ، فالبست الوحدانية ظلالا من الخرافات وقشور الصوفية ، وبرز الادعياء والجهلاء مروجو التعاويذ والسبحات الذين اوهموا الناس بالباطل والشبهات ، وروجوا للحج الى قبور الاولياء ، والتماس الشفاعة منهم (1) » .

والى جانب هؤلاء التقليديين وجد التقدميون المعتمدون على الاجماع للحط من شان البدع ، وعلى تعاقب الاجيال ارتفعت الاحتجاجات بين حين وآخر على التقليد ودعاته ، وذلك على ايدي نخبة من كبار الفقهاء ، من امثال السيوطي (المتوفى عام 1505 م) والجويني (المتوفى عام 1283 م) وابن تيمية (المتوفى عام 1328 م) الذين اعتنقوا مبدا الاجتهاد ، وان كانت جهودهم في هذا الميدان ظلت فردية حينا من الدهر ، ولكن مشاعر المسلمين عامة يومئذ كانت تسودها مبادىء قائمة على تجديد ما هو موروث بالفعل ، وهذا المفهوم المرتبط بالماضي كان يولد شعورا بالاخلاد الى الواقع وان كان مرا ، بالاضافة الى احساس خفي باضمحلال الاجيال المسلمة المتعاقبة ، « فطبقا لحديث مشهور صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بأن جيله هو احسن الاجيال ، وان الجيل الذي يليه أقل درجة ، ثم تأتي بعد ذلك اجيال كل منها اسوا من سابقه . الا ان

(1) د. احمد عبد الرحيم مصطفى « حركة التجديد الاسلامي » ، ص : 12 — 13 .

العقل الجماهيري عزى نفسه بأن كل قرن سيشهد مجتهدا ، ويتوقع ظهور المهدي الذي سيرسله الله لاعادة سلطة الاولياء ، وللاعداد لظهور السيد المسيح ، ونهاية العالم » .

وطبقا لما رسخ فى نفوس المسلمين من ضعف ومخاوف ، **نراهم قد تشددوا فى التقليد** ، وظلت فكرة تجديد الدين وانبعاث مجدد على راس كل مائة عام تراود احلام الناس ، على ان **الذي كانوا يقصدونه بالتجديد هو احياء السنة ومحو البدع** ، وبالتالي يتجهون فى حياتهم اتجاها عمليا حين ياخذون فى تجديد الفقه الذي عليه ترتكز دعائم حياتهم العلمية ، وعليه يمكن استمرار الحركة التجديدية الهادفة الى حماية المجتمع ، والقضاء على المفاسد ، لا سيما وان الاسلام شريعته الاساسية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة الى تغييره متى امكن ذلك (2) .

ويعتبر ابن تيمية ابرز المجددين المسلمين قاطبة اذا ما اخذناه بنسبة عصور الركود التي عاصرت الاسلام ، كما أن تعاليمه لقيت اهتماما خاصا لدى الباحثين والدارسين ، وانها كانت سببا مباشرا فى الهام جيل المجددين المحدثين ، والذين يذكر فى طليعتهم محمد بن عبد الوهاب ، « فقد استخدم ــ ابن تيمية ــ النقد الفعلي فى تقديم الافكار الاسلامية حول أصول الاسلام ، وبذلك مهد للحركات العقلية الاسلامية التي ظهرت فيما بعد ، وهو لم يقتصر على كشف عيوب المذاهب والاتجاهات الفكرية التي عكست احوال المسلمين فى عصره فى النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية ، بل ان نقده كان يهدف الى الاصلاح ، والى اعادة بناء المجتمع الاسلامي . وهو فى نقده لم يجامل فريقا على آخر ، بل اراد اسلاما وجماعة اسلامية ، وان يفصل بين ما هو اسلام وما هو دخيل عليه ، وان يوضح ان القرءان والسنة الصحيحة يكفلان سيادة الجماعة وقوة الفرد فيها (3) » .

ابن تيمية وصلته بمذهب احمد بن حنبل

منهج ابن تيمية فى الاصلاح والتجديد

ولد تقي الدين احمد بن تيمية (1263–1327م) فى حران بتركيا ، واقام فى دمشق ودرس فيها ، وقد حج الى مكة وسافر الى مصر ، وكان قد اتقن القرءان وعلومه ، والحديث ، والكلام ومناهجه ، وسلك سنة الاقدمين . من آثاره « السياسة الشرعية فى اصلاح الراعي والرعية » وهو مطبوع فى دمشق (1951 م) ومجموعة « الفتاوي » ويقع فى خمسة اجزاء طبعت بمصر (1911 م) ويقول الكتبي فى « فوات الوفيات » ان مؤلفات ابن تيمية بلغت ثلاثمائة كتاب .

لقد لاحظ هذا المجدد أن القرءان الكريم كان الركيزة الاساسية لسيادة المسلمين الاوائل ، وان ما لحق مسلمي عصره من ذلة وضعف انما لبعدهم عن دستورهم العظيم ، وانضوائهم تحت لواء المذاهب دون قياس على هذا المصدر . ولذلك دعا ان تيمية الى تحكيم القرءان فى تنقية المذاهب الاسلامية ، واختبار آراء اصحابها ، الذين وقف لهم بالمرصاد فاستعدوا السلطة عليه ، فكان نصيبه السجن والتعذيب ، واخيرا قضى فى السجن بدمشق .

ان ثقافة ابن تيمية مردها الى منهج المذهب الحنبلي ، ولا عجب فقد نشأ فى اسرة ظلت تعتنق هذا المذهب جيلا بعد جيل . وقد اشتغل بالتدريس تبعا لمذهب الحنابلة ، وان كان قد صرح فى اكثر من مناسبة بانه ليس تابعا لاي مذهب او تلميذا لاي مدرسة ، وانما **مقتف لاثر الرسول (ص) واجماع الصحابة ، مستندا الى القرآن والسنة واقوال الصحابة والقياس ، بالاضافة الى اجتهاده فى بعض الامور** ، وعادى الاجماع فلم ياخذ به عدا اجماع الصحابة ، وان كان يعتبرهم فيه عرضة للخطأ باعتبارهم

---

(2) الاستاذ امين الخولي « المجددون فى الاسلام » جـ 1 ، ص : 13 ــ 31 (ط . 1965 م) .

(3) د. محمد البهي « محاضرات فى الفكر الاسلامي فى مرحلته الثانية » ص 15 ، 45 ــ 46 (ط. 1957 م) .

افرادا عاديين ، ولكنه لو قبل الاجماع كلية لترتب على ذلك قبوله لكثير من الامور التي اوجدها اجماع الآخرين كالايمان بالخرافات والمعتقدات ، ولا سيما ما يتعلق منها بكرامات الاولياء وما الى ذلك .

واذا رجعنا الى آراء مذهب ابن حنبل واصحابه وجدناها منعكسة فى آراء ابن تيمية ، لصرف اهتمامه العلمي الى النقد اكثر من الراي ، ودعوته المسلمين الى الارتكاز على القرءان والسنة قبل ان يتجهوا الى الراي او يحكموا العقل ، على أن اثرا واضحا من آثار ابن حنبل ظهر على اتجاه ابن تيمية ، وهو ما لوحظ على هذا الاخير من عدم تقيده بحرفية النص دون التفات الى الظروف التي احاطت به ، فهو بهذا المنهج قد تحرر وتجرا فى كثير من آرائه عن ذلك الجمود التي كان طابع عصره ، حتى كان هذا الجمود يذهب بهيبة الفقه الاسلامي وروعته (4) .

لقد هاجم ان تيمية الفقهاء المتعصبين واشباه الفقهاء من المتصوفة وامثالهم ، ودعا الى هدم الاضرحة وعدم زيارة القبور ، وله فى هذا رسائل مؤلفة ، نابذا القدسية التي خلعها الرافضة على المشاهد والمزارات . على ان ما لوحظ جيدا على هذا المجدد **هو معارضته الشديدة للجدل** الذي اتسمت به طريقة الفقهاء لتأييد آرائهم ومن ثم الظفر بخصومهم ، وبالتالي فهو لا يميل الى الفلسفة ولا الى الفلاسفة ، وليس من الخير لديه اقحام هذه المادة فى علوم الدين باعتباره أن السلف لم يأتوها .

اما موقفه من الصوفية فهو يرى أن هذه الاتجاهات من التصوف انما هي من آثار تعاليم الشيعة والملحدين « وهو يرجع ضلال الصوفية القائلين بالحلول والاتحاد وسقوط التكاليف الى **اصلين باطلين** :

1 ـ فهمهم لمعنى الوجود .

2 ـ الاحتجاج بالقدر على المعاصي ، أي ترك المامورات ، وفعل المحظورات ؛ فان القدر يجب الايمان به ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة امر الله ونهيه ووعوده ووعيده . وهو لم يشن الغارة على الصوفية فحسب ، بل هاجمهم فيما ابتدعوه من رقص وغناء وطرب ووجد وشطح وغيبوبة ، وما الى ذلك .

ونعود الى مسالة « **الاجماع** » وموقف ابن تيمية منها بدقة ، فنرى انه لا ينكر الاجماع مطلقا ، بل **يعتمد منه ما استند الى رواية موثقة ،** وانه ياخذ **بالعرف** الذي يعتمد على المصلحة الحقة ، **والقياس** اذا كان على الطريقة التي استنها المشرع ، وما عدا ذلك من الامور فانه لا ياخذ بها بل ولا يبني عن اهدارها طالما لا يساندها حق حتى ولو أجمع عليه الناس أو صار لديهم عرفا . واما **الاجتهاد** فقد ارتضاه لكل مؤهل له .. (5)

هذا ، ولا مراء فى ان الحركات الاصلاحية فى العالم الاسلامي الحديث لمدينة لابن تيمية وآثاره ، ولا ادل على ذلك من الدعوة الوهابية وما تلاها مما اعتمد على السلف ، فقد عرفت بنزعتها الى تعاليم ابن تيمية ، حتى الحركة السنوسية فى ليبيا ، والدعوة المهدية فى السودان ، وما شابهها من **حركات الاحياء التوحيدي** التي عرفها العالم الاسلامي الحديث ، وكانت خيرا وبركة على هذا الدين فى معظم مبادئها ان لم يكن الحال فى مجموع المبادىء لدى البعض منها .

د. محمد كمال شبانة

---

(8) عبد العزيز المراغي : « ابن تيمية (سلسلة اعلام العرب) » ص : 57 ـ 1958 م .
(4) (5) المراغي : نفس المصدر ، ص 18 ، 103 ، 123 ـ 124 ، 129 ـ 132 ، 173 ، 155 .

مظاهر الثقافة
بالمغرب ما بعد الأدارسة وقبل المرابطين

-2-

للأستاذ عبد الكريم التواتي

4) **أسباب العقم** : بقي ان نتساءل عن الاسباب التي اصابت الحياة الادبية بهذا العقم طيلة هذه الفترة الواقعة ما بين ادريس الثاني وبين قيام دولة المرابطين .

وهذه الاسباب ـ في نظرنا ـ كثيرة ومتعددة ، ومن ثمة فمن الصعب الاحاطة بها كلها ، ولكن ـ كما قيل ـ ما لا يدرك كله ، لا يترك كله .. واستخلاصا من الجهود المتواضعة التي بذلناها في الموضوع ونتيجة ما قمنا به من بحث وتقص ، انتهينا فيما يخص هذه الاسباب الى :

اولا : اهتمام العرب الفاتحين ـ وبالدرجة الاولى من وجودهم ـ بالفتوح والغزوات ، تلك التي توجت ـ كما اشرنا قبل ـ بفتح بلاد الاندلس على يد طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير ، هذا الفتح الذي در عليهم من الغنائم والاسلاب ، ما تزخر به كتب واضابير التاريخ بوصفه ، ومن المعلوم ان المادة الخام للجيش الفاتح كانت من سكان المغرب الاصليين ، الشيء الذي لم يتح لهم فرصة الاستقرار الذي لا بد منه لقيام حياة علمية وفكرية وادبية .

ثانيا : اهتمام اولئك الفاتحين باستتباب الامن واقرار النظام بين هؤلاء السكان الاصليين الذين لم يكونوا كلهم قد تقبلوا الدين الجديد بصدر رحب ، ولم يكونوا بالتالي استسلموا له فقد كان منهم من كان يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، حتى ان صاحب الرسالة الفقيه ابن ابي زيد القيرواني يتحدث عن كيف ان البربر ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة قبل ان يسلموا له القياد ويسلسوا الزمام من طرابلس الى طنجة .

ثالثا : انسياح الخوارج جماعات كثيفة الى المغرب، هروبا من مطارديهم في الشرق ، وبحثا لهم عن نقطة ارتكاز ، فقد وجدوها في المغرب ـ أو هكذا خيل لهم ـ حيث اعتبروا ارضه تربة خصبة صالحة لبث افكارهم وزرع معتقداتهم ، مستغلين الوضع المتقلقل، وعدم الاستقرار ، والصراعات المتواثبة بين الفاتحين والسكان الاصليين .

وقد نشط هؤلاء الخوارج في بث دعاويهم ، فاحدثوا بذلك فجوات في العلاقات العربية البربرية التي كانت بدات في الالتئام والتلاحم ، كما احدثوا اضطرابات وقلاقل بينهم وبين الحكومة الاسلامية المركزية في دمشق التي كانت تطاردهم بدون هوادة او رحمة .

وقد سعى الخوارج الى زج المغاربة في اتون تلك الاضطرابات قسرا واكراها ، فاغرقت البلاد بسبب ذلك في بحار من الدماء والدموع ، وقد استمرت اضطرابات الخوارج هذه زهاء ثلاثة قرون ، ولم يطفىء اوارها ويخمد نيرانها الا ورود ادريس بن عبد الله الاكبر الذي استطاع بفضل نسبه وارومته ، وبفضل حنكة راشد مولاه ، أن يجمع حوله القلوب

المؤمنة ، ويوحد الاهداف الصالحة ، ويكون من عنصري سكان المغرب جيشا قويا مؤمنا ، حارب به الخوارج ، وكل الذين كانوا يحاولون بخروجهم عن الجماعة ان يصطادوا في الماء العكر ...

وادت هذه الحركات المتطاحنة الى (... بقاء المغرب زهاء ثلاثة قرون طعمة لنيران الحروب ، وميدانا لتجريب الحظوظ ، وهو في كل ذلك انما يزداد سوء حالته من ناحية انتشار الجهل وعدم الاستفادة مما اتى به الفاتحون العرب حملة الهداية الاسلامية) النبوغ المغربي ج 1 ص 46 .

رابعا : مااستحر - تبعا للنقطة قبله - من الحروب والصراعات الدموية بين العرب الفاتحين وبين البربر السكان الاصليين ، تلك الحروب التي كانت في البداية نتيجة تشبث هؤلاء باستقلالهم التام وحريتهم الكاملة وحماية وطنهم من كل احتلال اجنبي ، اذ كانوا يعتقدون في بداية الفتح الاسلامي ، ان هؤلاء العرب الفاتحين ، ليسوا هم الاخرين سوى استعمار من نوع جديد ، اي يحاربوا بنفس الضراوة التي حورب بها الاستعمار الروماني والفينيقي من قبل ، وان يرفض التعاون معهم في اي ميدان .

وهذا الموقف من المغاربة ، ازاء الاجانب الاستعماريين - موقف طبيعي ومتاصل من قبل ، اذذاك ما حدث بالضبط غداة حاولت القوات الفرنسية الاستعمارية الاستحواذ على المغرب ، والى الدرجة التي راى معها المغاربة الامازيغ ان مجرد الاتصال بفرنسا ولو حتى بتعلم لغتها منكر وكفر وفسوق وتخل عن الوطنية الحقة ، مما حمل الكثيرين من المواطنين على عدم الاقبال على المدارس التعليمية التي كانت انشاتها فرنسا وبانتحال اوهى الاعذار لعدم انخراط ابنائهم ضمن اسلاكها ...

ثم تحولت تلك الحرب التي استمرت بين الفاتحين والسكان الاصليين في بداية الفتح ، والتي كانت ذودا عن الوطن والحريم الى حروب من اجل التهارش على الحكم ، والاستئثار بالسلطة ، والتنازع على الرئاسة ، واستنكارا لما وصفه صاحب النبوغ المغربي بقوله : (.. لاجل استبداد العرب بوجوه المنافع واختصاصهم بالمناصب العليا في الدولة ، فبدات المطالبة بالمساواة في الحقوق وعدم محو وجودهم السياسي ، ثم تعلقت آمالهم بالملك والامارة)

ويستدل الاستاذ كنون على الاستبداد العربي ، بايثار ادريس الثاني الوافدين عليه من افريقيا والاندلس اولئك العرب الذين كونوا الجالية الاولى للوجود العربي في دولة ادريس الثاني ، وكانت من هذه الجالية ، النواة لبطانته ، فقد اتخذ منهم ادريس الثاني بطانته دون البربر ، فكانت هذه البادرة بداية التحول في سياسة العرب الاسلامية ، تلك السياسة التي كانت قائمة على مبدا المساواة والاخوة والعدالة في الحقوق والواجبات .

خامسا : ظهور دولتي مغراوة وبني يفرن الزناتيتين، وما احاط او اكتنف قيامهما من ظهور موسى ابن ابي العافية ، ورغبته - فيما يزعمه بعض المؤرخين - في استئصال شافة العرب وسعيه لمحو وجودهم وخاصة الاشراف منهم ..

ولكنا نحن نرى ان قيام هاتين الدولتين : مغراوة وبني يفرن ، اللتين هما من الارومات المغربية الصميمة ومن ابناء اولئك الذين استقبلوا المولى ادريس بحفاوة بالغة ، حتى لقد توجوه سلطانا عليهم حبا في العترة النبوية التي كان المغاربة - وما يزالون - يحملون لهم بين صدورهم انبل العواطف واسمى التقديرات واجل التقديس ، واكرم المنازل، لا علاقة له بهذا الزعم الخاطىء ، اذ لم يكن ابن ابي العافية الا من ابناء اولئك المجلين للبيت النبوي الكريم ، فما كان لتكون له رغبة ما في استئصال السلالة الطاهرة ، وانما ارى ان قيام هاتين الدولتين كان نتيجة النقطة الرابعة قبل هذه ، اي لانه يدخل في محاولة البربر اقامة اعتبار حقيقي لهم في الدولة ، وانه يدخل ايضا في نطاق محاولة استغلال الصراع الدائرة رحاه بين اموبي الاندلس وبين عبيديي افريقيا القيروان ، والذي كان يستهدف الاستحواذ على مجموع اقطار الشمال الافريقي .. التي من بينها المغرب .

ومن ثم ظلت القوتان المتصارعتان تتعاوران رغبة الاستحواذ على السلطة هذه وخيرات البلاد ، فاراد ابن ابي العافية - وهذا مجرد افتراض - الاصطياد في الماء العكر ، واستغلال الصراع لتحرير المغرب والمغاربة من نفوذ الدولتين المتناحرتين معا، واثبات وجود مغربي مستقل الكيان ، متمايز الذاتية.

ولتحقيق ذلك ، نفترض انه ليس من المستبعد ان يكون ابن ابي العافية فكر في الانحياز الى صفوف

العبيديين حكام تونس يومئذ والولاء لهم ، ولاثبات ولائه هذا قام بحركة تطهير لكل العناصر المناوئة لهذا الانحياز والولاء ، استدرارا لعطف العبيديين ، واستمالة لقلوبهم رجاء حملهم على الاعتراف بالدولة المغربية الفتية ، التي كان ابن أبي العافية ينشئها ويعمل على اقامتها ، وعلى تدعيم استقلالها عن طريق التعاون بينه وبين أولئك العبيديين ، على غرار ما كان حدث فى الحرب العالمية الاخيرة 1939 ـ 1944 من تعاون بين حركة المقاومة الفرنسية مثلا وجيوش من كانوا يسمون الحلفاء ، للقضاء على العدو النازي المشترك ومحوره ، الذي كان مؤلفا من المانيا الهتليرية وايطاليا واليابان .

على ان هذا الانحياز نفسه الذي قام به ابن ابي العافية الى جانب العبيديين التونسيين دليل قاطع على عدم وجود اية كراهية متأصلة خاصة لآل النبي الطاهرين لدى ابن ابي العافية ، لان اولئك العبيديين انفسهم انما قاموا على اساس انتمائهم لهذه الدوحة الشريفة الطاهرة .

لكل ذلك نؤكد ـ وهذا رأينا الخاص ـ ان المغراويين واليفرنيين الزناتيين ، لم يكونوا قط العوبة مطلقة مطواعة فى يد العبيديين ، وانما نرى ان العلاقة التي كانت قائمة بين ابن ابي العافية وبين حكام تونس لا تعدو علاقة المصالح الآنية ، مما يقوم غالبا بين الهيئات والدول المتحدة المصالح ، او المشتركة الاهداف والمرتبطة المصائر ، مما نشاهد أمثاله فى عالمنا المعاصر ، والمجسمة فى هذا العديد من الاحلاف العسكرية وغيرها والمنظمات الاقليمية، والاتحادات الجهوية ، والجامعات العرقية ، والاسواق المشتركة والوحدويات القومية او الدينية مما يزخر به عالم القارات الخمس .

أما ما انتهت اليه دولتا مغراوة وبني يفرن من انهيار خلقي ، وتهافت سياسي ، مما تجلى فى حركة التطهير التي قام بها ابن ابي العافية ، وشملت بعض افراد الاسرة النبوية الشريفة ، فيعود ـ فى نظرنا ـ الى الرسوبات العفنة والآسنة التي استقرت فى اغوار نفوسهم بسبب سوء معاملتهم ، تلك المعاملة التي اعتبروا معها كما مهملا ، لا مكان له فى القيادة والتوجيه ، اثناء تعاور حكام اموية الاندلس ومحاولة العبيديين التونسيين الحلول محلهم .

سادسا : قيام دولة الفاطميين العبديين أولئك بالشمال الافريقي ، وما أدى اليه من تناحر شديد بينهم وبين أمويي الاندلس من اجل السيطرة على المغرب ، ولا شك ان تناحرا من هذا القبيل يفرق البلاد فى بحران من الفوضى والاضطراب السياسي، وما كان غير الاستقرار الذي يعني الازدهار ان ينتج علما او ثقافة او ادبا .

وقيام دولة الفاطميين عرض الوحدة السياسية فى المغرب للتمزق ، اذ اشرأب قادة الدولتين الاموية والفاطمية الى امتلاك المغرب احدث مجابهات وتحديات بينهما داخل المغرب الذي تحمل على الدوام آثار تلك المجابهات السيئة ، وكان بالتالي كبش الفداء والضحية كما يقولون .

سابعا : بعد المغرب عن مراكز الفكر والثقافة العربيتين : دمشق ـ بغداد ـ مكة ، والمدينة ، وهذا البعد جعل تنقل العلماء والمثقفين ، وجعل الاتصال فيما بينهم صعب التحقيق ان لم يكن مستحيلة احيانا . . ويضاف الى ذلك فيما يخص هذه النقطة بالذات ما أشار له العلامة عبد الله كنون من ان أولئك الفاتحين لم يكونوا يتخذون المغرب وطنا يستقرون فيه ، وانما كانوا يعتبرونه دار جهاد ومعبرا الى الاندلس او الى القيروان ، الشيء الذي لم يمنح البلاد استقرارا واستيطانا علميا دينيا ، شبيها بذلك الذي تمتعت به كل من الاندلس والقيروان ، وساعدهما على قيام بوادر ثقافية وطنية اقليمية فى ساعة مبكرة نسبيا فى الوجود العربي بهما ، وقد سمقت تلك البذور الثقافية فيما بعد ، وصارت ادواحا ضخمة ، تضارع اخواتها ، وفى كل المجالات ، فى الوطن الام للوجود العربي ، بل وفاقتها فى كثير من الابعاد ، وفى غير قليل من الميادين .

ويضاف الى هذا البعد المكاني العائق لانتشار المد الثقافي العربي بالمغرب ، ان أولئك العابرين من المغرب لم يكن معظمهم الا من الجنود العاديين ، او بتعبير ادق انما كانوا من طوابير المرتزقة المحاربين، وهؤلاء فى الغالب ابعد الناس عن فهم الرسالة العلمية والادبية ، فكيف بضرورة مواكبتها للفتوح الحربية ، ولهذا فليس فى مطالبتهم بالاسهام ـ لا من قريب ولا من بعيد ـ فى ايجاد وقيام جو ثقافي متميز عن ثقافة الاقطار العربية الاخرى او حتى على غرارها . .

تلك هي بعض الاسباب التي استطعنا ان نستنتجها من خلال تقصينا المراجع التي بين ايدينا ، والتي عالجت هذه الحقيقة من تاريخنا السياسي والعلمي والادبي ، وهي اسباب في عمومها ما كانت لتسمح بقيام ظروف ثقافية حقة ، او ايجاد عبقريات تستطيع الانتاج والانشاء .

ولكن رغم كل ذلك ، فان بذور ثقافة مغربية ، وجدت مبكرا في المغرب ، بسبب الروافد والرسوبات الثقافية المتخلفة عن الامم التي تعاورت الوجود في هذه الرقعة الترابية ، كما سنرى في حديثنا عن بعض المراكز الثقافية لهذا العهد ، وعن اسس هذه الثقافة ، تم بفضل السياسة الرشيدة التي كان سنها الخليفة المسلم عبد الملك ابن مروان الاموي (646 — 715 م) ، اذ في عهد هذا الخليفة شوهدت تطورات هامة في ميدان الحضارة العلمية نتيجة اهتمامه الخاص ، والمتزايد بتعميم استعمال اللغة العربية كلغة رسمية في جميع الاصقاع الاسلامية بعد ان صك النقود الذهبية والفضية ونظم سبر البريد .

على انه في عهد هذا الخليفة ، وفد على افريقيا عامله عليها حسان بن النعمان الغساني الذي اقتفى آثار مليكه في التنظيم الاداري والتعميم العلمي ، وتدوين الدواوين ، وجعل لغتها هي اللغة العربية ، فساعد عمله هذا على تشجيع المواطنين جميعهم عربا وبربرا على تعلم العربية نطقا وكتابة .

وجاء عهد عمر بن عبد العزيز فحرص هو الآخر على نشر ما يمكن ان نصنفه ضمن التعليم الديني، غير مكتف بما سنه من سبقه ، فزاد عليه بان قرر ارسال بعثات تعليمية الى مختلف الاقطار الاسلامية، حتى لقد كان من نصيب افريقيا من بين افراد هذه البعثات عشرة من الفقهاء جاءوا يعلمون المواطنين المغاربة في شمالي افريقيا ، لا القراءة والكتابة فحسب ولكن ايضا ليعلموهم شعائر دينهم ويفقهوهم في شؤونه . .

وقد اصبح عمل عمر بن عبد العزيز هذا — فيما بعد — سنة تقتدى وتتبع من جميع الخلفاء والولاة الذين تعاقبوا على الخلافة الاسلامية بعده ، حتى لقد راينا كيف ان موسى بن نصير عين هو الآخر فقهاء وقراء في مختلف اقطار الشمال الافريقي .

فكانت هذه المبادرات من امراء الخلافة الاسلامية ، ومن بعض ولاتها على هذا الجزء من المعمور الاسلامي النواة لهذا العدد الضخم من الفقهاء الذين برزوا في ميدان التشريع في هذه الحقبة الممتدة ما بين نهاية ادريس الثاني وبداية قيام المرابطين .

ولكن اذا كنا استطعنا ان نضع جردا لبعض الفقهاء الاعلام ممن اشرنا اليهم سابقا ، فهل نستطيع ان نفعل ذلك بالنسبة للادباء والشعراء ؟

من المؤسف حقا ان نؤكد باننا لا نستطيع ذلك لان ميدان الشعر والادب ، بدا — في هذه الحقبة الطويلة بالخصوص — شاغرا الا من افراد لا يتجاوزون عدد اصابع اليدين ، مع التذكير بانه حتى هذا العدد الضئيل من هؤلاء لا يمكن ادراجهم ضمن زمرة الشعراء والادباء الا مع تجاوز كبير ، والا على اساس الاعتبار القائل بان كل من ينسب اليه انشاد بيت واحد او بيتين اثنين يعد شاعرا ، وهذا الاساس في عالم المفهوم الحق للشعراء يتجافى والمطلوب من الشعراء .

على اننا حتى على هذا الاساس لا نجد الا اعلاما مثل ادريس الثاني وابنه القاسم ، وعبد الله بن يحيى ابن ادريس ، والحسن الحجام ، وعبد الله الكفيف الطنجي ، وسعيد بن هشام المصمودي ، وابراهيم بن محمد الاصيلي . .

اما تراجم هذه الاعلام المفصلة ، واما آثارهم الشعرية ، فلا شيء منها بموجود ، الشيء الذي يؤكد ان اوضاع المغرب السياسية والثقافية من لدن اوائل الفتح الاسلامي الى بداية قيام المرابطين ، تشكو ضمورا واضحا ونضوبا اشد في المجال الادبي.

ولكن مع ذلك سنحاول قبل تناول حقبة المرابطين ، بما يعن لنا من تحليل ان نسلط اضواء ليست من الانارة بالمكانة القصوى على نقطتين اثنتين لهما شديد الاتصال بموضوعنا ، والاولى تتعلق بما يمكن ان نسميه اسس الثقافة المغربية وخمائرها قبل عهد المرابطين ، والثانية تختص بذكر المراكز التي احتضنت تلك الخمائر والرسوبات . .

فاس : عبد الكريم التواتي

الشاعر الوزير محمد ابن موسى دراسة شعره

-6-

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

ثقافتـــــــه :

تحدثت ــ فيما سبق ــ عن حياة ابن موسى ، وعرفنا انه درج فى بيئة علمية ، وانه شخص الى فاس للدراسة بجامعة القرويين ، فأخذ عن شيوخها مختلف العلـــــوم .

ولا ريب عندي ان شاعرنا كان يتصرف منـــذ فتاء عمره وبهجة سنه فى غير اوقات الدراسة لقراءة الادب العربي شعره ونثره يتمثل صـــوره وجـــواءه والوانه ، ويرتاد آفاقه واظاليله ، وما يحفل به مـــن اضواء شذية واطياف مطيبة ، ويقـــف على شوارده واوابده متمليا على مداه الوسيع ، مغانيه المعشبـــة ردحا من الزمن بعيدا عن ضوضاء الحياة راويا عطشه من ينابيعه الثرارة ، ملبيا بذلك الرغبة التي امست تلهاب اعماقه لاثراء محصوله الادبي واغناء اداته الفنية الى ان غدا بعد معاناة ودربة شاعرا تنقاد لقلمه الكلمة الشعرية فى يسر ، وكاتبا تستجيب لريشته العبارة فى سهولة غير ضنينة عليه باشراقاتها واشذائها .

ولا ريب عندي كذلك ان شيخه العالم الشاعـــر احمد البلغيثي كان له نصيب وأي نصيب ــ كمـــا سلف ــ فى توجيهه وتفتيق ملكاته واقالة عثراتـــه ورعايته رعاية شاملة اسهمت ايما اسهام فى صياغـــة كيانه العلمي والادبي .

ومن خلال ما يرويه اصدقاؤه ومـــن حضـــر مجالسه الادبية ، ومنهم الاخ الاستـــاذ محمد ابـــو خبزة ، انه كان ذا حافظة قوية وذكاء ثاقب وبديهة عجيبة ، يستحضر النصوص الشعرية والنثرية فى احاديثه ومسامراته ، وحسبه انه كان يحفظ (ريحانة الكتاب) لابن الخطيب (1) ، ويحفظ المطولات مـــن شعره ، من ذلك القاؤه قصيدته الرثائية التي تبلـــغ

---

(1) هو محمد بن عبد الله السلماني اللوشي الغرناطي (713 ــ 776 هـ / 1313 ــ 1374 م) ، يعرف بلسان الدين ويلقب بذي الوزارتين من كبار أدباء الاندلس ولد بغرناطة واستوزره ابو الحجـــاج يوسف انتقل الى المغرب باستدعاء من عبد العزيز المريني ، مات مخنوقا فى السجن بفاس ودفن بها له تآليف عديدة من بينها (اللمحة البدرية فى الدولة النصرية) و (نفاضة الجراب) و (روضـــة التعريف بالحب الشريف) انظر (المقري) (أبو العباس احمد) النفح (ابن القاضـــي) (أبـــو العباس احمد) جذوة الاقتباس ص 194 طبعة فاس و (ابن الاحمر) (اسماعيل بن يوســـف) نثر فوائد الجمان تحقيق محمد رضوان الداية ص 242 وما بعدها ــ دار الثقافة ــ بيروت 1967 .

ستة وستين بيتا فى حفلة تأبين شيخ الجماعة السيد احمد الزواقي (2) من حافظته ، وما لوحظ عليه ـ كما اكد ذلك الحافظون فى التأبين ـ تعثر او سهــو اذ انطلق يقرأ القصيدة فى صوت هادىء تجلله نبــرة الحزن وتتلاحق فى تضاعيفه الكلمات مترابطة كما لو كان صاحبها يقراها مكتوبة .

وقد بلور لنا شعره ونثره آفاق ثقافته فى شتى الفنون فى القرآن والحديث ومصطلحه والفقه واللغة والنحو والعروض ، وغير هذه الانماط المعروفــة التي تكاثفت فيما بينها على تكوين شخصيته العلمية الادبية فاطلعت مواهبه وريقة سخية ، ووريقة مزهرة حملت التجربة والمعاناة فى تعدد النبرات والوجوه .

عندما دخل (3) الخليفة السلطاني الى طنجــة يوم الجمعة 22 صفر 1360 موافق 21 مارس 1941م فاضت قريحة الشاعر الاسباني (رفاييل دريــوس جيوتيـــه) (4) Rafael Duyos giogeta

بقصيدة فى الموضوع قام بترجمتها الى النثر العربي الاستـــاذ (خوســي اراغــون كانيـنــاريس (5) José Aragon Canizares فاطلع عليها شاعرنا مترجمة واعجب بها فنقلها الى الشعر العربــي فى موشـــح جميـــل .

وفى هذا الموشح يتحدث ابن موسى عن اعمى يتحرق شوقا الى رؤية الامير ، لكنه لا يستطيع أن يحقق امنيته وهو اعمى حرم نعمة البصر ، وهنــا يتخلص شاعرنا تخلصا موفقا من المعاني التي تطرق اليها الشاعر الاسباني فيستوحي معارفه القرءانيــة والحديثية مضيفا الى الصورة التي رسمها الشاعــر الاسباني للاعمى صورة اخرى اجمل واوقع فى النفس وخاصة بالنسبة للقارىء المسلم يقول :

صدح البوق عندما لحت أنسا
فهوى القوم للمســامــع همسا

هو ذا (6) هو ذا لقد طاب نفسا
وعلا بالبهاء بــدرا وشمســا

ومن الحشد شاحب
اكمه ظاهر الجــلال

شيبتــه النوائــب
فنضا الراس والبــال

نضو حزن يراقــب
كيف يعتد بالمحــال

يقدح النور من محاجر رمــه
ودها لو ابن مريـم ثمـــه

اوعرت فى قميص يوسف نسمه
او يد قد كفت قتادة غمه (7)

---

(2) مــر التعريــف بــه .

(3) كانت الزيارة بمناسبة الغاء نظام طنجة الدولي رسميا وضمها الى المنطقة الخليفية . انظر الوحــدة المغربية ـ السنة 5 ـ العدد 174 ص ـ 201 ـ صفر 1360 / 19 مارس 1941 .

(4) لـم اقــف على ترجمتــه .

(5) كان مترجما بالاقامة العامة واستاذا للغة الاسبانية بالمعهد الرسمي ـ القاضي عياض حاليا .

(6) كذا فى الاصل وهو لا يتزن الا اذا شددت واو (هو) الثانية ، والتشديد فى (هو) و (هي) لغة ـ كما قيل ـ عند همدان وضرورة عند باقي القبائل العربية ، والمحققون يعدون كل ذلك من الضرائر حتى عند همدان ، انظر الالوسي (محمود شكري) (الضرائر فيما يسوغ للشاعر دون الناثــر) ص 178 ـ 179 ـ دار البيان بغــداد ـ دار صعــب بيــروت .

(7) ليس هناك اية اشارة فى النص الاسباني لما أورده الشاعر ابن موسى عن معجزات أنبياء الله الثلاثة عليهـم الســلام .
انظر الكتاب الذي صدرت فيه القصيدتان : العربية والاسبانية بمناسبة دخول الخليفة السلطانــي طنجة وعنوانه (موشح) فى ذكرى دخول صاحب السمو الملكي الى طنجة ، وانظر كذلــك النص الاسباني فى الصفحة 23 ـ 24 ـ طبعة تطوان ـ 1361 هـ ـ 1942 م .

فالاشارة هنا الى معجزة سيدنا عيسى عليه السلام فى ابراء الاكمه وقد نص عليها القرءان الكريم فى قوله تعالى (.. وأبرىء الاكمه والابرص واحيي الموتى باذن الله) (8) والى معجزة يوسف عليه السلام حين القي قميصه على وجه ابيه فارتد بصيرا بعد ان ابيضت عيناه من الحزن وفى ذلك يقول تعالى (اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه ابي يات بصيرا واتوني بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم : اني لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون . قالوا: تالله انك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا) (9) .

والاشارة هنا كذلك الى معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما رد بصر الصحابي الجليل قتادة بن النعمان الذي سالت حدقته فى غزوة (بدر) فأراد قطعها ، ثم أتوا به الى الرسول صلى الله عليه وسلم ودفع حدقته بيده المباركة حتى وضعها موضعها ثم غمزها براحته وقال (اللهم اكسها جمالا) فجاءت وانها لاحسن عينيه وما مرضت بعد (10) .

ونقع فى شعره على الكثير من هذه الاشارات من بينها قوله فى مزدوجته (الجناح الاخضر) :

ورد فى الحديث ان العلما
ورثة المنبين عن وحي السما
وذا عطاء خصهم فاعظما
سحائب الفضل به وانعما
بنعمة الايجاد والارزاق
وصح عن شمس حقائق الشرف
صلى عليه الله ما نبت ورف
يحمل هذا العلم من كل خلف
عدوله عمن مضى من السلف

وهو بذلك يلفت نظرنا الى قوله صلى الله عليه وسلم : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وان الملائكة لتضع اجنحتها رضى لطالب العلم ، وان العالم ليستغفر له من فى السموات والارض والحيتان فى جوف الماء ، وان فضل العلم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الانبياء ، وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم ، فمن اخذه اخذ بحظ وافر) (11) .

ويلفت نظرنا كذلك الى قوله صلى الله عليه وسلم : (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) (12) .

---

(8) سورة آل عمران الآية 49 .

(9) سورة يوسف الآيات : 93 – 94 – 95 – 96 .

(10) صحابي جليل انصاري (... 23 هـ – 644 م) كان من الرماة المشهورين ، حضر المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اصيبت عينه يوم غزوة بدر وقيل يوم الخندق وقيل يوم احد (انظر ابن عبد البر (يوسف) ج 3 الترجمة 2107 ص 1274 – 1275 – تحقيق علي محمد البجاوي وانظر الرازي (عبد الرحمن) (الجرح والتعديل) القسم 2 من المجلد 3 – ص 132 الترجمة 72753 – ط 1 عام 1372 هـ – 1953 م .

(11) رواه بو داود عن ابي الدرداء ، انظر سننه (باب الحث على طلب العلم) ج 2 ص 285 – ط 1 – 1371 هـ – 1952 م .

(12) ذكره البغوي (الحسن بن مسعود) فى (مصابيح السنة) ج 1 ص 17 – دار القلم – بيروت (بدون تاريخ) كما ذكره (التبريزي) (ولي الدين محمد) فى (مشكاة المصابيح) ج 1 ص 82 – 83 ، الحديث 248 – ط 1 – منشورات المكتب الاسلامي – 1380 هـ – 1961 م ، وقد قال محمد ناصر الدين الالباني محقق هذا الكتاب : ان الحديث مرسل لانه مروي عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري وهو تابعي لكن الحديث قد روى موصولا من طريق جماعة من الصحابة وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي . انظر بقية التعليق فى هامش الحديث المذكور .

وتطالعنا فى كناشته (13) نصوص حديثية موزعة هنا وهناك جمعها ضمن ما جمعه أثناء قراءته العديدة أيام الشباب والطلب بمدينة فاس منها ما رواه الطبراني (14) ومنها ما رواه الامام احمد بن حنبل (15) وما ذكره السيوطي (16) مما يدل على اتصاله الوثيق بالحديث وولعه بـه .

ومن معارفه فى علم مصطلح الحديث قوله فى رسالة سلطانية : (رفع الله اعلام العز والتمكين ، وسخر رياح النصر والفتح المبين لامر مولانا أمير المومنين ، ولا زالت سعود التهاني تابعة لركابه بالمنعوت والمعطوف ، ووفود الاماني جامعة بأعتابه بين المرسل والموقوف) (17) .

بجانب هذا فقد كان لابن موسى ثقافة فقهية لا تقل عن ثقافة معاصريه من علماء تطوان الاختصاصيين ، غير انه اشتغل بالشعر والكتابة الفنية ، وصرف لها جهوده الامر الذي جعل الناحية الفقهية لا تبرز بوضوح فى حياته ، ومع ذلك فانه حين يكتب فى الفقه يفوز باعجاب المختصين ، ومما يعضد ما اذهب اليه فتوى شرعية حررها عام 1372، فى قضية تجارية مرفوعة من طرف محمد ابن يعيش الصفار المدعو (الشطيبات) الاصيلي وهي تتألف من سبع ورقات من القطع الكبير المكتوب على الآلة الكاتبة .

ويعالج فى هذه الفتوى قضية سطو على مليونين من البسيطات مفصلا الحديث عنها متتبعا خيوطها والمراحل التي قطعتها بمحكمة باشا اصيلا ، وبالمجلس الاعلى للعدلية المخزنية ، وبالمحكمة الشرعية الاصيلية ، وفى كل ذلك يعتضد باقوال كبار الفقهاء كالمازري (18) .

وقد استطاع ابن موسى بذكائه وحسه الفقهي ان يكشف عن كثير من التناقضات فى هذه القضية من خلال استنطاقات المدعي والمدعى عليه واجوبة المحكمة ، وغير ذلك ، واثبت هنا فقرات من هذه الفتوى كنموذج على معارفه واساليبه الفقهية المتادبة:

(... وان من تتبع هذه القضية بما تقتضيه اهميتها من المناقشة ليخوض فى ظلمات بعضها فوق بعض ، فلا يكاد يسد ثلمة الا استقبلته ثلمة ، ولا يتخلص من غبش الا تورط منها فى ظلمة فلنكتف عن

---

(13) سلم لي هذه الكناشة اخيرا الاخ الاستاذ محمد ابو خبزة وهي احدى الكنانيش التي كان الشاعر يسجل فيها ما كان يعثر عليه من نصوص شعرية ونثرية ومعلومات وفوائد فى شتى المجالات والتي ضاعت كما قيل لي ، ولم يبق منها مع الاسف الا هذه ومن الحجم الكبير وتضم اربع وثمانين ورقة مكتوبة بخطه المغربي الجميل.

(14) هو سليمان بن أحمد اللخمي الشامي 260 — 360 هـ 873 — 971 م) من كبار المحدثين ينسب الى طبرية الشام له رحلات فى البلدان له فى الحديث ثلاثة معاجم وله كتب أخرى ، انظر ابن خلكان ج 2 ص 141 .

(15) ابو عبد الله احمد بن حنبل الشيباني الوائلي (164 — 241 هـ / 780 — 855 م) المحدث الجليل وامام المذهب الحنبلي اصله من مرو ولد ببغداد سافر فى سبيل العلم الى كثير من المدن له تآليف منها (المسند) عذب فى سبيل الله عذابا شديدا لامتناعه عن القول بخلق القرءان فكان قدوة فى الصبر والجهر بالحق رضي الله عنه .

(16) عبد الرحمن بن ابي بكر الخضيري السيوطي (جلال الدين) (849 — 911 هـ / 1445—1506م) امام حافظ مؤرخ نشأ وعاش فى القاهرة له تآليف عديدة من بينها (الاتقان فى علوم القرءان و (بغية الوعاة) ، انظر السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) (الضوء اللامع) ج 4 ص 65 .

(17) انظر شرح المصطلحين عند ابن كثير (اسماعيل) (الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث) ص 24 — 25 — دار الفكر — بيروت ، وعند ابن الخياط (أحمد) (حاشية ابن الخياط على شرح محمد الفاسي) لنظم القاب الحديث للعربي الفاسي . وعند صبحي الصالح (علوم الحديث ومصطلحه ص 217 و 6 طبعة جامعة دمشق — 1379 هـ — 1959 م .

(18) هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري نسبة (مازر) Mazzara بصقلية (453 — 536هـ/ 1061 — 1141 م) من فقهاء المالكية المرموقين . له تآليف منها (الكشف والانباء فى الرد على الاحياء) ، انظر ابن خلكان (وفيات الاعيان) ج 3 ص 413 .

تشريح الهيكل بتشخيص الامراض وبعرض الجوهر عن تناول الاعراض والله يصلح الحال ويطهر القلوب والاعمال .

وبعد ، فالذي يظهر لكاتبه ــ سامحه الله ــ أن قضية المواجرة لها اصل يدل عليه اقرار المدعي عليه والذي عليه فيها اليمين حسبما تقدم .

اما قضية القراض باربعة ملايين فهي قريبة احاطت بها مخائل الريبة والاختلاق احاطة الحراس بالسارق في رابعة النهار فأصبحت ولا مجال للتردد في بطلانها رغم تلم تلك الشهادة الملفقة التي رجع احد شاهديها فأخذت في الانحدار الى مستقرها من حضيض البطلان ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

نظر كاتبه ــ كان الله له ــ في حل القضية :

القضية بطرفيها تجارية بحتة وفي خصوص التموين ولاموال البنك دخل فيها بدليل تقدم اربابه لتقويم ما اشتمل عليه خزين المؤاجرة حسبما تقدم في التلخيص ومواد التموين تؤخذ من «الكوميتي»(19) بحساب مضبوط ، فالقضية على هذا سهلة التناول ، سهلة الحل ان صدق العزم عليه من طريقه ، وذلك بتعيين لجنة تجارية يوكل اليها مراجعة الحسابات الجارية بـ (الكوميتي) مع خزين الاجارة مدة المعاملة معه وقيمتها راس المال الذي دخل عليه المدعي عليه فتحصى البضائع المستهلكة بواسطته مدة المعاملة وقيمتها قدر الربح المعدود لها ، وما كانت الادارة تدفع ، وممن كانت تاخذ قيم ما تدفع ثم يقع الاتصال بالبنك لاخذ صورة علاقته بالخزين وكيفية حسابه معه عن المدة المذكورة ومثل ذلك يقع في شأن معاملة القراض ان كان لها وجود في الخارج ، وبتحقيق الحساب على هذه الصورة يظهر الغث من السمين بلا مقال ولا جواب ولا اقرار ولا انكار ولا افتاء ولا استفتاء ولا تلاعب من المستهزئين بالحقوق فان بقي بعد هذا تناكر في أمر خاص بين الجانبين عينت له لجنة شرعية تتولى حسم مادته في جلسة او جلستين) .

وحين نقرا هذه الفتوى من فاتحتها الى خاتمتها نتبين نفسا فقهيا جديرا بالاعجاب ، كفيلا بالتقدير تبلور لنا ثقافة ابن موسى الفقيه ، وأكاد أجزم بانه لو تابع هذا الطريق لاصبح فارسا فيه .

ومن معارفه اللغوية أنه لاحظ على الشاعر العالم ماء العينين ولد سيدي العتيق الشنقيطي (20) استعمال جمع قلة (أوشح) وهو غير وارد في اللغة ــ بدل جمع كثرة (وشح) (21) في قوله من قصيدة له عصماء كان انشدها شاعرنا حين زاره في تطوان في 21 ربيع النبوي الشريف عام 1376 هـ .

تمور على اوساطها الهيف أوشح
وتشكو قراها حشدها وبرودها

وقد غير ماء العينين كلمة أوشح بـ (وشح) فصححها هكذا :

تمور على أوساطها الهيف وشحها

---

(19) باللغة الاسبانية Comité ومعناه اللجنة ويقصد به في تلك الفترة قسم التموين بادارة الاقتصاد .

(20) من علماء الصحراء المغربية (1307 ــ 1377 هـ / 1887 ــ 1957 م) كانت ولادته بـ (السمارة) تربى في حضن والده شقيق العالم الشهير ماء العينين ونشأ في بيت علم وصلاح له تآليف وديوان شعر ، انظر السوسي (محمد المختار) (المعسول) ج 4 ص 294 وما بعدها ــ مطبعة فضالة ــ 1380 هـ ــ 1960 م ؛ وانظر الكتاني (زين العابدين) دعوة الحق ــ ص 46 وما بعدها ــ العدد 10 السنة 18 ــ ذو الحجة 1397 هـ نونبر ــ دجنبر 1977 م .

(21) تنص القواميس اللغوية على ثلاثة جموع ليس غير هي وشح وأوشحة ووشائح ، أما أوشح فلا تذكرها ، راجع ابن اللسان ج 3 ص 930 ع 1 والقاموس المحيط ج 1 ص 255 .

ولم تفت هذه الحادثة ابن موسى دون ان يسجلها في قولـــه :

ومنتقد من سائرات خليلـــة
يخر لنجواها جرير(22) وجرول(23)

على وجهها من شارة الحسن شامة
تدافع عينا بالتي هي اجمـــــل

راى كحلا يحلى فانكر مـــا راى
وريم الفلا لو ابصر الرشد اكحل

اقول له والحسن ملء ردائهـــا
وخيم التصابي من جناها معلـــل

اعد نظرا يظهر لك الحسن سافرا
بكبر من اعطافهـــا ويهلـــل

فقد يستفز الخد والخد اخيــل
ويسحر طرف الخود والطرف اشكل

وتطالعنا كذلك في (كناشته) شروح لغوية لـــه لبعض الكلمات الواردة في نصوص شعرية ، من ذلك هذه التعاليق على قصيدة العالم الشاعر ابي علـــي الحسن اليوسي (24) :

فالنفس يحيا وتفنى لوعة بهوى
كالماء يشرق طورا باللغاديـــد

ريح اذا ما صفت اهدت لنا أرجا
من كل حب شفيق القلب مودود

وممتع النفس بالصهباء نفرغهـــا
من فيك صافية لا من نواجيـــد

اللغاديد : جمع لغدود لحمات الحلـــق ، أرج : ريح الطيب ، مودود : محبوب ، الصهباء من اسماء الخمـــــر .

(يتبـــع)

(22) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي (28 – 110 هـ / 640 – 728 م) من شعراء بني أميـــة يحتل مكانة مرموقة في الشعر العربي ، له نقائض مع الفرزدق وله ديوان شعر ، انظر ابن ســـلام (محمد) (طبقات الشعراء) ص 96 ، طبع في ليدن 1913 ، وابن خلكان (وفيات الاعيان) ج 1 ص 286 وما بعدها .

(23) هو جرول بن اوس العبسي يكنى أبا مليكة ويلقب الحطيئة وبه اشتهر (... نحو 45 هـ /665م) شاعر مخضرم عاش في الجاهلية والاسلام وكان هجاء سليط اللسان ، له ديوان شعر ، انظـــر الاصبهاني (علي بن الحسين) (الاغاني) ج ج ص 157 – دار الثقافة والارشاد القومي ، وابـــن قتيبة (عبد الله بن مسلم) (الشعر والشعراء) ج 1 ص 238 ط 2 – 1369 هـ .

(24) من فحول علماء المغرب وشعرائهم في وقته (1040 – 1102 هـ / 1630 – 1691 م) تعلـــم بالزاوية الدلائية وتنقل في البلدان يأخذ العلم عن علمائها كسجلماسة ودرعة ومراكش ، استقـــر بفاس استاذا بجامعها ، عاد الى قبيلته ودفن بـ (تمزرت) ، من انتاجه (الكوكب الساطـــع في شرح جمع الجوامع) وديوان شعر ، انظر الكتاني (عبد الحي) (فهرس الفهارس) (ج 2 ص 464– 469 طبعة 1346 ، وانظر حديث صاحب هذا البحث عنه في صحيفة (الحسنى) من عدد 40 الى 48 عام 1382 هـ / 1962 م تحت عنوان : (شخصيـــات من بـــلادي) .



التطوّر والتصوّر الإسلامي

للأستاذ محمد العربي الناصر

التطور صنم من اصنام الفكر الحديث بدون منازع ، فله دالت العقول وخضعت وتعلقت فى شتى الاشكال والصور . فلم يعد هناك من علم او معرفة او تصور او مذهب او بحث ودراسة الا وجعلت منه ركيزتها، او منطلقها ومرشدها وغايتها .. نجد مفهوم التطور فى كل مذهب فلسفي وفى كل علم من العلوم الانسانية ، وفى كل ميدان من الميادين الفكرية . وفى كل ذلك نجده عندهم حقيقة علمية وتفسيرا مبدئيا لكل المظاهر .

والذي يجعلنا نتوقف قليلا مع هذا الصنم الفكري الجديد ، ان كثيرا من المسلمين تقبلوه دون تمييز أو تمحيص ، والهوه كغيرهم من المفكرين الغربيين ، ولا نقول ان لهم عذرا لانها فترة تاثر بالحضارة الغربية ، وان هذا الانسياق مفروض عليهم ، فمن كان يحمل رسالة ضخمة ورفيعة ، ومن كان يملك تصورا وتفسيرا لكل مظاهر الحياة ، كان الاولى به أن يقارن ويماثل بين المفهومين والتيارين اما أن يهمل مفهومه وتصوره وتفسيره لينساق مع صنم التطور الذي قدمته وتقدمه الحضارة الغربية وهو جزء منها فامر فيه خطأ وانحراف ، ولا بد من وقفة تشجبه .

وقد يتساءل المرء وكيف ؟ كيف يمكننا تصويب هذا الركام الخاطىء أو هذا الانحراف الفكري وقد أصبح التطور على لسان كل قوم ، وهدفا لكل جماعة فى عقائدها وفى عاداتها ، فى علومها وفى مهاراتها ؟ ! هذا تساؤل معقول لولا ان الامور قد اختلطت وتشابكت ، وتشعبت ، فغمضت المفاهيم على الانسان فلم يعد يفرق بين تطور وتطور ، بين تخريج فلسفي لمفهوم التطور ونمو او تغير او تبدل يحدث فعلا فى مظاهر الكون والحياة ، بين منهج يبحث مراحل نمو الشيء أو فنائه ومفهوم ميتافيزيقي يجمع ملايين المخلوقات فى ملايين السنين فى قالب واحد وشجرة واحدة .. بين نمو مخلوق من المخلوقات فى اطوار ومراحل بعناية الخالق وتقديره وتدبيره حيث الانضباط والانتظام والضرورة ونمو خالق لنفسه منظم لصدفه بل ومعقد لتركيباته التطورية على ايقاع منظم حيث تجتمع العشوائية والحتمية فى اطار تناقضي لا تبين معالمه .

نشـــاة مفهـــوم التطـــور :

اذا وقفنا وقفة مع علماء التطور وجدنا بعضهم يفهمه كمجرد مراحل ضرورية تقطعهـا الاشيـاء والاحياء . وموقفهم هو ضبط هذه المراحل الخاصة بكل كائن ، او ضبطها ضمن علاقاتها مع الكائنـات والاشياء الاخرى . وهم بذلك لا يخرجـون كلمـة التطور عن منهج من مناهج البحث التاريخي للاشياء والاحياء ولا يطرحون مفهوم التطور كتخريج فلسفـي تفسيري للكون والحياة .. وموقف الاسلام من ذلك واضح جدا من آياته القرآنية التي تدعو الى البحـث والنظر فى المخلوقات التي خلقها الله سبحانه .

قال تعالى فى سورة الاعراف : 185 :

« اولم ينظروا فى ملكوت السمـاوات والارض وما خلق الله من شيء » .

وقال تعالى فى سورة الغاشية : 17

« افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » .

وعكس هؤلاء نجد علماء يفهمون التطور كناموس وقانون يسري على جميع الاشياء والاحياء . ويفسرون به كل المظاهر والحوادث والمخلوقـات فى اطـار واحد .. وهم وان اتفقوا فى النظرية العامة فهـم يختلفون فى الناموس الذي يسير عليـه التطـور فالبعض يجعله تآلفا وتكيفا والبعض يجعله انتقـاء واصطفاء طبيعيا والبعض يجعله صراعا جدليـا فى المادة وفى الحياة ..

وهذا المفهوم التطوري يفسر اشكاليات نشأة الحياة وتطورها ، ونشأة الانسان وتطوره والقانـون العام الذي يتحكم فى هذه النشأة وهـذا التطـور والملاحظة الاولى على هذا الطرح فى الاساس انـه يبعد الاعتقاد فى الاله الخالق ويؤكـد على الخلـق الذاتي والتلقائي !

بهذا الابعاد يصبح الامر امـام تخريـج فلسفـي محض وليس وصفا لواقع حقيقي ، مما يجعل مفهوم التطور فى اوله مفهوما ايديولوجيا قبل كل شيء بل ومفهوما سياسيا كذلك ، يرتبط بالنزعات القوميـة والعنصرية فى الحضارة الغربية وبالتالي بالحركـات الاستعمارية الاستغلالية التي عمت العالم (1) .

وحقيقة مفهوم التطور فى جذورها بدأت مـع النهضة الاوربية .. فاوربا التي كانت تحت اقـدام الجهل والجمود هزتها الحضارة الاسلامية فبـدات تنتعش فى جميع ميادين الحياة وبدات تتغير معالمها الثقافية والاجتماعية والحضارية مما أوحى لاوربـا بفكرة التقدم التي ارتبطت فيما بعد بالتصور العـام للحضارة الغربية . ففترة النهضة ومعالم التغييـر فيها ، كانت عاملا اساسيا لانبثاق وانتشار مفهـوم التقدم وقد أثرت المفاهيم الفلسفية اولا ثم العلمية ثانيا فى تحوير وتطوير هذا المفهـوم الى التطـور الشامل ووسعت تطبيقاته بل جعلته المفهوم الاولى للحضارة الغربية الحديثة والمفهوم المعادي لكل فكر سابق على مرحلة النهضة ، وقد بلغ هذا المفهـوم اشده فى فلسفة وعلوم القرن التاسع عشر ، العصر الذهبي لمفهوم التطور .

ادلـــة التطوريـــــين :

يستدل بعض علماء البيولوجيـا على مفهـوم التطور بسبعة فروع مختلفة من علوم البيولوجيا . وهي علم التشريح المقارن وعلم الاجنة وعلم التقسيم وعلم الحفريات وعلم التوزيع الجغرافي للحيوانـات والنباتات وعلم وظائف الاعضاء او الفيسيولوجية وعلم الوراثة وعلم استئناس الحيوانات والتربية الانتقائية. ويمكن القول ان الادلة مستنبطة من فرع واحد وقد تكون كافية تماما بمفردهـا ولكن لو اخذت الادلـة من جميع الفروع لتاكد لنا حقيقة التطور (2) .

هذا ما يراه المؤيدون لمفهـوم التطـور فى اعتمادهم على علم البيولوجيا ، فى حين نرى أن هذا التاكيد ليس أساسيا ، فمن الممكن ان نؤكـد بنفس الحقائق البيولوجية على تفسير آخر مناف لمفهـوم التطور . فعلم التشريح مثلا ، يؤكد على التشابه مع الاختلاف ، فى الاجزاء المختلفة فى مجموعات أصغر كالحشرات او الاسماك او الطيـور او الثدييـات . وبمعنى آخر لو درسنا جهازا معينـا فى الامثلـة المختلفة من الحيوانات فى مجموعة مـا فسيشعـر

---

(1) التطور والانسان ، حسن زينو . ص : 14 .

(2) تطور الكائنات الحية ، مجلة عالم الفكر م. 3 ع. الرابع . 733 ، ص 17 .

الباحث حتما ، ان هذا الجهاز أو التركيب مشتق من نموذج اولي يختلف اختلافا طفيفا في الاجناس المختلفة لهذه المجموعة ويؤكد هذا التسابق في التصميم الاساسي حقيقة التطور (3) .

ويمكن ببساطة ان يقطع ويقتنع ان البحث والتصنيف كان علميا ووصفا حقيقيا ولكن تركيب نظرية تطور على اساس ذلك ليس علميا بالمرة وانما هي تخريج فلسفي بحت ، وعطاء نظري لا غير ، ويمكن ان يرد بتفسير آخر ، اي بثبات التصميم في الكائنات الحية اي وحدة التصميم مع تعدد الاشكال وتنوعها بحيث اذا كانت المخلوقات نشأت عن مواد عضوية ومن خلايا حية على اساس من التآلف والتكيف او الانتخاب والاصطفاء ، فلماذا لا يفترض ان كل نوع خلق بنفس الطريقة ولكن مستقلا عن غيره ، بمعنى غير منحدر منه . تبقى امكانية التهجين والتلقين والتزاوج قائمة فحسب في اطار النوع الواحد . فنجد الاصل خلايا ذات تصميم واحد مع تعدد الانواع حسب نشأة كل نوع على حدة ، وخلايا ذات تصميم واحد مع تعدد الفصائل في النوع الواحد . فالتصور الاسلامي يؤكد هذا التعدد في الفروع والفصول ضمن وحدة اساسية متماثلة خاضعة لقدرة الخالق وتدبيره .

قال تعالى في سورة الانعام : 38

« وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » .

وقال تعالى في سورة الانعام : 102

« ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه » .

وقال تعالى في سورة لقمان : 28

« ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير » .

واذا تساءلنا وأين هي عمليات التطور ؟ كان الجواب : ان ذلك لغو . هناك تغير يحدث ، ونمو بطرا على هذه الانواع والفصائل فمنها من يولد ومنها من يموت ومنها من يقصر ومنها من يطول ومنها من يعرض ومنها من يرق ولكن تربتهم واحدة وماؤهم واحد ، وخلقتهم واحدة في تصميمها وخالقهم واحد . وما الاختلاف والتشابه الا مجرد تعدد في الاشكال والانواع .

قال تعالى في سورة الانعام : 99

« هو الذي انزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يومنون » .

وقال تعالى في سورة الرعد : 4

« وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وقال تعالى في سورة يس : 36

« سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

واذا تساءلنا بعد هذا لماذا وجدت هذه المظاهر المتشابهة سواء في القطعة الواحدة او على طول الزمن ؟ ! لما كان الجواب صعبا ، فليس ذلك دليلا على علاقة قربى بين المخلوقات المختلفة وترابطها باي شكل وانما هو خضوع لوحدة المكان والزمان اي الارض والسماوات ولاحدية الخالق او بمعنى اوضح الالوهية لله والعبودية للخلق .

قال تعالى في سورة الانعام : 38

« ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فانى توفكون»

وقال تعالى في سورة الانعام : 102

« ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل » .

وقال تعالى في سورة الرعد : 16

« ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

---

(3) تطور الكائنات الحية ، مجلة عالم الفكر م. 3 ع. الرابع . 733 ، ص 18 .

وليس ادل على هذه الوحدة فى الخلــق وفى التصميم وفى الخالق من علم الاجنة او ما حاول أن يثبته « فون بير » من وحدة النمو فى الاجنة المختلفة وتشابهها فى الاطوار الاولى واختلافها فى الطــور الاخير فحسب . بمعنى أن هذا العلم يدل فقط على وحدة اطوار الاجنة مع استقلالها وتنوع خلقها . مما يجعل بالتالي الاقسام التصنيفية من انواع واجناس وعائلات وفصائل ورتب وشعب والتي تشبه الى حد كبير فروع الشجرة العائلة كما يقول التطوريون فى علم الاقسام ، ليس الا دليلا آخر على اكتمال وكمال وحدة الخلق مع التعدد الممكن . ورغم انهم يحاولون الاستغاثة بعلم الحفريات لاثبات هذه الشجرة العائلة ذات الفروع على مدى العصور حيث يقولون بتعاقب السجل الحفري من كائنات بسيطة للغاية الى كائنات أكثر تعقيدا أو تخصيصا فيبدأ بحيوانات تختلــف اختلافا كبيرا عن الحيوانات الحديثة ثــم اعقبتهــا تدريجيا حيوانات اخرى اكبر شبهــا بحيواناتنـــا الحديثة حتى تمتزج تلك الحيوانات بالتي تعيش فى وقتنا .. وهذا قد يوحي بالتدرج او ما يسمونــه التطور . وخاصة عندما نرى المراحل تتعاقب ، ولكن مع ذلك فان الحيثيات المحيطة تبقى امكانية تفسير آخر غير التطور . فانقراض صنف من الاحياء دليل على الانحسار فيه خاصة بمعنى توقفه عن الاستمرار والتقدم ، ودوام بقاء احياء اخرى كالتـــي تسمـــى دهرية (400 مليون سنة) دون ان ينقرض منها اي نمط دليل على جمودها وبالتالي على نفي التطــور . وتواجد هذه المخلوقات الاولية مع المخلوقات المعقدة الراقية حاليا دليل آخر على اضطراب شجرة السجل الحفري التطورية ، وخاصة ان السجل الحفري لــم يثبت فيه خروج نوع من نوعه او تحوله الى نوع آخر فالحصان لم يخرج عن كونه حصانا والانسان لم يخرج عن كونه انسانا .. فتحول الانواع لم يثبت بالدليل القاطع لان انصاره لم يذكروا حتى الان مخلوقا واحدا تحول من نوع الى نوع بفضل الانتخاب الطبيعــي او تنازع البقاء او البقاء للاصلح او حتـــى الصـــراع الجدلـــي (4) .

وهكذا يبقى التغير الحادث ليس الا عمليتـــي الخلق والفناء فى حد ذاتهما فى اطار تأثير الوحـــدة الارضية ومعطياتها فى اطار وحدة التصميم مع تعدد الانـــواع .

وعلم وظائف الاعضاء هو الآخر يثبت وحـــدة التصميم وتشابه جميع الحيوانـــات اساسيـــا فى عمليات النمو الغذائي والحساسية والانفعال والتكاثر وغيرها بالرغم من وجود اختلافات كثيرة فى تفاصيل هذه العمليات ولا شك ان تأكيد التطوريين على الاصل المشترك وعسر تفسير ذلك فى نظرهم باية فكــرة اخرى ليس الا غلقا لباب البحث والتأمل . وتأكيدا لنظرية دون أن يكون هناك عطاء علمي وفعلي يؤكدها، فكل تلك الادلة المقدمة يمكن تفسيرها بوحدة الخالق ووحدة الخلق ووحدة المكانية . يمكـــن تفسيرهـــا باكتمال وحدة الخلق وكمال وحدة الخالق .

وبطبيعة الحال فان التغير الذي يطرا فى العالم على الكائنات والاشياء هو تغير يتساوق مع نواميس الكون وقوانينه . فهو تغير ضروري مرتبط بعالــم الحركة ، عالم الموت والحياة ، عالم البناء والهدم ، والتقدم والتاخر ... وان هذا الذي يسمى تغيرا فى مظاهر الكون والحياة اذا سميناه تطورا نكون قــد اجهضنا الجانب السلبي التقهقري فى مفهوم التغير القابل للاحسن والاقبح معا ، بحكم ان التطور مفهوم يقود دائما الى الافضل والاحسن وهـــذا ما يزيــل الالتباس والخلط بين المفهومين : مفهـــوم التطـــور كتخريج فلسفي محض ومفهوم التغير كواقع فعلي وعملي . وبالتالي يبطل الاحتجاج بما يحدث من نمو او تراكم للاشياء على صحةمفهوم التطور حيث ينقلنا الى مساحة اوسع ، وتصور ابعد مدى من مفهوم التطور ذاته . مفهوم يجمع الزوجين معا ودائمـــا ، وكلمـــا تجمعت الامكانات لهذا او ذاك فى هذا الوجود . ومن الطبيعي أن مفهوم التطور لا يهتم لهما معا ، ولا يعبر عن الشقين أو الزوجين ولا يصفهما فيتضخم جانب التطور والتقدم على جانب الانحسار والتراجـــع . وهذا يجعلنا نتجاوز عمليات التغير كما نشاهدها فى مظاهر الكون نحو الاحسن والافضل او نحـــو الاسوء والاقبح الى مفهوم احادي النظرة ، مفهوم تجريدي لا يستند الى الواقع بقدر ما يستند على التخريـــج الفلسفي . ولهذا فالاحتجاج بعمليات التغير التـــي نلمسها فى الحياة الواقعية لاثبات مفهوم التطور هو احتجاج باطل ، وناقص ، لا يقدم الا جزء من الحقيقة الواقعة ، وبالتالي فان مفهوم التطور ليس مفهومـــا واقعيا ، ولا مفهوما علميا ، يعبر عن واقعية يومية او تجربة حية كاملة ، وانما هو انتشار لمفهوم فلسفي

---

(4) التطور والانسان ، حسن زينو ، ص : 19 .

ايديولوجي سياسي نشأ مع النهضة الاوربية وتفاقم مع الحركات القومية العنصرية والاستعمارية للتعبير عن الديناميكية الغربية .

اللـــه الخالـــق ام التطـــور الخالـــق ؟ !

امام ابعاد العطاءات لاثبات التطور نجد عنـد بعض المومنين تأكيدا على أنه لايتنافى مع عقيـدة الاديان .. وهذه فكرة خطيرة جدا واصحابها امـا يعون اخطارها ويرددونها لاستغفال الناس . وامـا انهم لا يدركون فعلا الهوة السحيقة بين مفهوم التطور فى فلسفة الغرب عموما والتي بلغت الى تاليه التطور وسموه بالتطور الخالق كما فى فلسفة برجسـون مثلا . وبذلك جعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله ..

نقول هذا ونحن نعلم ان ليس فى الاسلام مـا يؤيد او ينفي نظرية التطور لان القرآن الكريم ارفـع شانا من هذه النظريات ، ويؤكد فحسـب حقيقـة واحدة هي الالوهية لله والعبودية للكون والحيـاة . واما تفاصيل ذلك وكيفية ذلك فللعلم والاكتشـاف العلمي كلمته الاخيرة . فالتصور الاسلامي لا يعارض حقيقة من حقائق العلم ولا يضيف مفهوما او تصورا جديدا يغاير الحقائق التي تقدمها علوم البيولوجيا . وكل ما توصل اليه هذا العلم من حقائق بغض النظر عن مفهوم التطور الفلسفـي لا يعـارض التصـور الاسلامي فى شيء . فكل ما فى الامـر ان مفهـوم التطور الذي اكتشفه الغربيون وروجوا له واضافوه الى الحقائق العلمية فى البيولوجيا ، جعلوه خالقـا فى الميدان الفلسفي . واما التصور الاسلامي فيقرر ما يتوصل اليه العلماء دون ان يضيف مفهوما جديدا غير ما أقره هـؤلاء فى ابحاثهـم . فان قالـوا ان المخلوقات متشابهة فى اعضائها المختلفـة ، وفى نظام خلاياها ، وقالوا أن الحيوانات متعددة الاشكال والانواع والفصائل وبينوا ما بينها مـن تقـارب او تباعد . فهذا كله يحث الاسلام على التعرف عليه وضبطه واتقان علومه . ومن هنا نجد ان اشكالية الاختلاف بين مبدا الخلق الديني ومفهوم التطـور ليسـت اشكالية صحيحة ، فالتطور مجرد مفهوم فلسفـي وليس بحقيقة علمية والتعارض معه ليس تعارضا ذا خطورة على أي موقف علمي لان الاشكالية فى وضعها الصحيح ان كانت قائمة فهي بين الخلق والحقائـق العلمية وليست بين الخلق والتطور لان الخلـق فى ذاته لا يناقض التطور فى ذاته كنمو ، كجزء مـن عملية التغير التي تطرأ على المخلوقات سـواء على الفرد منذ ولادته الى مماته او النوع منذ خلقـه الى انقراضه . فهذا النمو فى المخلوقات او التراكـم والتكدس فى الاشياء والمعرفة او التقنيات نتيجـة طبيعية فطرية فى العلاقات القائمـة فى البيئـة والتكيفات معها للاستمرار فى البقـاء او الانقراض والفناء . او نتيجة ارث وراثي يثبت ذاته فى جميع الامكانات وجميع أنواع الظروف المقدمة اوانها كل هذه الحيثيات مجتمعة ! فنحن لا نجد فى كل هـذه الحالات تعارضا مع مبدأ الخلق اطلاقا ، لان وحـدة الخلق وما يمكن تسميته بوحدة تصميم الخلـق فى الكائن الحي وفى الكائن المادي ، وبالتالي امكانـات التعدد والتشكل فى هذا الاطار من وحدة الخلـق يجعلنا امام تشابك كامل بين الخلق والتغير والتحول والتبدل ويجتمعان معا دون تناقض .

ونحن اذا وقفنا مع يوسف عز الدين عيسى فى تأييده للتطور العضوي للكائنات الحية نجده يسـرد ادلة علماء البيولوجيا على التطور لم ينتهي الى اثبات الخلق ووحدته ومع ذلك لا يشعـر باي تناقض او تنافر بين التصورين وكان مفهوم التطور هو نفسـه حقائق البيولوجيا .

يقول : « فتشابه الحيوانات فى الاطار الاساسي لتكوينها هو فى نظري يدل على وجود أسلوب واحـد للخلق يبدعه خالق واحد ، احد ، فعين القطة مثلا لا تختلف في تكوينها عن عين البقـرة او الارنـب او الانسان .. حتى ان دراسة عين البقرة فى معامل كليات العلوم تغني عن دراسة عين الانسان وكذلـك الجهاز الهضمي والجهاز العصبي والغدد الصمـاء وغيرها من الاعضاء فى شتى أنواع الحيوان .. تدل على اسلوب واحد للخلق كما ذكر الدكتور احمد زكي فى احدى مقالاته فى مجلة العربي ولا يمكن ان نتصور باي حال من الاحوال جهازا دقيقا معقدا غاية التعقيد كالمـخ ، قـد يكـون من تلقـاء نفسه نتيجـة للصدفة العمياء » (6) .

او نجده يكتب فى الاهرام تحت عنوان : « هل هو الله ام الطبيعة » (7) : ان هذا التخطيط الدقيق لا بد ان يكون من فعل خالق مدبر مخطط اذ انه لا يمكن ان يحدث شيء بطرق مختلفة ليؤدى الى نتيجة واحدة

(6) عالـم الفكر ، العدد الرابع ، ص : 102 .
(7) الاهرام 28 – 10 – 1977 ، ص 13 .

عن طريق الصدفة والشيء الثاني الذي يدل عليه هذا هو ان الخالق واحد احد اذ ان اسلوبه في الخلق يبنى على أساس واحد ويؤدي الى نتيجة واحدة لا تتغير » .

او يكتب : « ولو لم توجد المخلوقات منذ البداية على هذا النحو من التصميم الدقيق لما استطاع الحيوان ان يحيا وان يستمر في الوجود اذ ان مثل هذه الاشياء كما ذكرت لا تحتمل التجربة التي تخضع للتخبط بين الخطأ والصواب ، لا بد ان يكون وراء كل هذا فكر خلاق وقدرة عليا تخطط وتدبر للوصول الى نتيجة معينة وهدف مرسوم » (8) .

وخلاصة هذا اننا نقف امام مفهوم التطور موقفين لا يتناقضان مع الاسلام اطلاقا : الاول حقائق البيولوجيا كعلم لا كتخريج فلسفي لنظرية التطور ، والثاني مفهوم التطور المؤمن الذي لا ينفي الخالق بل يجعل التطور نموا ومراحل ناتجة عن قدرة الهية وتقدير وتدبير الهي في اطار عملية التغيير الاكثر عمقا وشمولا على أساس من التوازن والقدرة والتقدير والحق . وبمقارنة هذا الموقف الاخير بالتصور الاسلامي يظهر تشابههما ووحدة نظرتهما الا في كلمة التطور التي تبرز كثائر بالموقف الايديولوجي من الحضارة الغربية وفي هذا نوع من الانهزام وبالتالي الانحراف عن ما يقرره الاسلام .

فمفهوم التطور اذن يطرح قضيتين أساسيتين هما نشوء الحياة في وسط طبيعي عن ظروف خاصة لا علاقة لها بأية قوة غيبية وتطور المخلوقات وتحولها وتعددها من بعضها البعض نتيجة تقدم وتحسن في بنياتها وتراكيبها مما يجعلها تنتقل من الابسط الى الاعقد ، ويستدل على ذلك بادلة مستخلصة من علم البيولوجيا وفروعه . اما التصور الاسلامي فيؤكد على القضيتين بمنظور مختلف عن مفهوم التطور . فالحياة نشأت بقدرة الله وارادته وتدبيره ، ولا تهم شروط وظروف هذه النشأة في تقرير هذه الحقيقة فذلك زيادة في المعرفة والعلم ، فكيفما كانت هذه الشروط وهذه الظروف فهي خاضعة لتدبيره وتقديره وقدرته سبحانه . وهذا لا يناقض ما توصل اليه علم البيولوجيا في استقصاءاته وفي تجاربه المختبرية من حقائق علمية ولا يناقض بالتالي ما يحدده هذا العلم من حيث ظروف وشروط نشأة الحياة .. واما تطور الانواع وتمديدها فيقرر التصور الاسلامي فيها نفس ما يقرره علم البيولوجيا من وحدة تصميم المخلوقات وتشابهها مع تعددها واختلافها ، فهناك تشابه من جهة ، واختلاف من جهة اخرى . وهذا لا يتنافى مع وحدة الحياة واستقلال النشأة والتكوين في كل مخلوق وفي كل نبات كما لا يتنافى مع المحافظة على النوع واستمراريته على أساس من التناسل والوراثة.

وهكذا نجد أنفسنا ننتهي الى ان التصور الاسلامي يتلاءم مع حقائق علم البيولوجيا من جهة ويتنافى مع مفهوم التطور كمفهوم ايديولوجي للحضارة الغربية من جهة اخرى .

تصويبات في الفكر الاسلامي :

واننا لنجد بعد هذا ، محاولات أقحمت مفهوم التطور في كل الابحاث وحتى فيما يخص عقائدنا الاسلامية وأصبحت تقريبا مدرسة على مر الاجيال ، وهي معبرة عن انحراف خطير ومفهوم خاطىء .

فهذا محمد عبده وهو من ائمة المسلمين يذهب مذهبا فريدا مجاريا مذهب التطور عند الغربيين ، فيرى أن وظيفة الرسل واحدة ولكن بينهم اختلاف في صور العبادة والشرائع والمناهج ، ويعلل ذلك بسنة التدرج في تربية الاشخاص وتربية الامم وأن ذلك من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها ..

يقول : (9) « جاءت اديان والناس في فهم مصالحهم العامة والخاصة في طور اشبه بطور الطفولة .. »

ثم يشبه الناس بالناشىء الذي لا يألف الا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه ان يضع الميزان بين يومه وامسه فاخذته الاديان بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبته بالطاعة وحملته فيها على مبلغ الاستطاعة وفرضت عليه من العبادات ما يليق بحاله هذه » .. ثم يذكر كيف أن الكوارث والحوادث لقنت الانسان شعورا ادق من الحس وادخل في الوجدان على حد تعبيره فجاء الدين يخاطب العواطف ويناجي المراحم ويستعطف الاهواء .. فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ..

---

(8) الاهرام 28 — 10 — 1977 ، ص : 13 .

(9) رسالة التوحيد ، محمد عبده ، ص : 153 — 154 .

وسن سننا فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه .. »
ثم يرى أن الانسان لما بلغ أشده بعد أن صقلت الحوادث عقله جاء الدين فخاطب عقله مع اشراك العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان الى سعادته الدنوية والاخروية » ..

وهكذا فان محمد عبده قد صور الدين والعبادات والاحكام خاضعة لتطورات وتدريجات فى ايقاع ثلاثي (ايقاع فى اصله مسيحي وثني) فقد بدأ بالحس والزجر ثم تلاه بالعاطفة والزهادة ثم ختمه بالعقل والسعادة . ونلاحظ على هذا أن المميزات التي لاحظها واعتمدها فى تطور الدين وتدرجه لا دليل قاطع عليها. فهذا الفصل النهائي بين المميزات أمر مشكوك فيه لان الانسان قديما وحديثا كان يستعمل حسه وعاطفته وعقله فى كل تصرف فهذه امور متواجدة دائما وابدا فى كيان الانسان . والاديان السابقة لا بد وانها اعتمدتها جميعها . فالدين واحد والتشريع واحد والخالق واحد .. وبالتالي فقد اثبت العلماء أن الانسان فى الفترة البدائية فترة الحس كان يعرف التجريد الخالص ، أي التوحيد الخالص ، ويقول الدكتور سامي النشار : « وقد ادت دراسات عقائد القبائل البدائية الى اكتشاف خطير فى تاريخ الاديان اذ انها قررت بشكل علمي وعلى اساس قاطع الصلة الكاملة بين الفطرة والتوحيد » (10) .

ومما لا شك فيه أن محمد عبده بمنهجه هذا قد فتح الباب لتلاميذه ليغرفوا من الحضارة الغربية شكلا ومضمونا . فالعقاد مثلا فى كتاب « الله » خطا خطوات أكثر جراة من استاذه . فالتدرج الذي استعمله عبده عن استحياء واقتصاد استبدله العقاد بكل بساطة بالمدلول الحقيقي للمفهوم الغربي وباستقصاء شمولي لتطور العقائد مع تبين كامل لمفاهيم الغرب حول تاريخ الاديان .

والعقاد يرى أن الحقيقة الكبرى لا تتجلى دفعة واحدة ولا بد لها من التطور من عصر الى عصر ومن أسلوب الى اسلوب حتى تستطيع البشرية أن تتلقاها. يقول العقاد : «ان الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر وطورا بعد طور وأسلوبا بعد أسلوب » (11) .

وحجة العقاد فى ذلك علم الاديان المقارن هذا العلم الذي انشاته الحضارة الغربية وغذته بروحها وصبغته بايديولوجيتها . يقول العقاد : « ان العالم الذي يخطر له ان يبحث فى الاديان البدائية ليثبت ان الاولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء انما يبحث عن محال » .

وقد أهمل العقاد فيما ذهب اليه أمرين اثنين: اهمل القرءان كوثيقة لا يمكن الطعن فى مدلولها عن صفاء التوحيد منذ آدم أول انسان على البسيطة ، واهمل النظريات المؤلهة فى علم الاجتماع الديني واستند فحسب الى نظريات المذهب الطبيعي والحيوي فقط . والدكتور النشار يذهب الى أن بعلم الاجتماع الديني وتاريخ الاديان وتاريخ الاجناس والانتولوجيا اصبحت فكرة وجود اله اسمى مسلمة وأن الابحاث من مختلف الدوائر قد ايدتها وتطابقت معها تطابقا تاما .. (12) .

ومن هذا نصل الى ان كلمة العقاد « التطور فى الديانات محقق لا شك فيه » قول باطل من أساسه فما توهمه تطورا ليس الا اعراضا عن الفطرة والتوحيد ..

هذا وقد تعرض سيد قطب فى تفسيره فى ظلال القرآن الى تفنيد هذا الراي وهذا المذهب فقال :
« وهذه الحقيقة ، حقيقة ان اول عقيدة عرفت فى الارض هي الاسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده تقودنا الى رفض كل ما يتخبط فيه من يسمونهم علماء الاديان المقارنة ، وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متاخرا من اطوار العقيدة سبقته اطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الارواح وتأليه الشموس والكواكب الى آخر ما تخبط فيه هذه البحوث التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ، يهدف الى تحطيم قاعدة الاديان السماوية والوحي الالهي والرسالات من عند الله واثبات ان الاديان من صنع البشر وانها من ثم تطورت بتطورات الفكر البشري على مدار الزمان » (13) .

الرباط : محمد العربي الناصر

---

(10) نشأة الدين ، النشار ، ص : 197 .
(11) الله ، عباس محمود العقاد ، ص : 13
(12) نشأة الدين ، النشار ، ص : 205 .
(13) فى ظلال القرآن ، ج 12 ، ص : 72 .

حول "الدليل الصحفي" وصحافة المغرب

عرض وتقديم وتعليق : الأستاذ زين العابدين الكتاني

صدر عن (المركز العربي للدراسات الاعلامية للسكان والتنمية والتعمير) بالقاهرة كتاب جديد بعنوان (الدليل الصحفي (1) في الوطن العربي) . ويذكر الكتاب أن دول هذا الوطن تبلغ عشرين دولة عربية عند انجاز الدليل التي تجمعها وحدات طبيعية ، متحدية كل العوامل المضادة والعواقب والعقبات ...

وان الحدود التي تفصل هذه البلاد هي حدود فرضتها الاتفاقيات الوقتية ، وكانت أعجب تخطيط تمخضت عنه العقلية السياسية الاستعمارية وهذه أبرز نظرية أوردها مؤلفو الدليل ، وأروع ما ذهب اليه مؤرخو هذه الفصول الذين يستحقون كل تنويه وتقدير ... ما دام الحديث عنها جاء فيما يتصل بالحدود هي حدود هذه البلاد ، سواء بصفة عامة أو بالنسبة لكل بلد على حدة .

و (الدليل الصحفي) الذي نحن بصدد الحديث عنه يقع في مائتين وعشرين صفحة من الحجم العادي في اخراج علمي صرف تتناول بالبحث :

اولا : التعريف بالدول العربية وبصحافتها .

ثانيا : التعريف بفلسطين وبصحافتها ، وقد خصص الدليل لهذا الفصل خمس صفحات .

ثالثا : الحديث عن اتحاد وكالات الانباء العربية ، ونقابات الصحافة بها .

رابعا : التعريف بكليات ومعاهد الصحافة والاعلام العربية .

* * *

والذي دفعني الى تناول هذا الدليل بالدراسة في هذا العدد بالخصوص هو :

1) الفصل المتعلق بصحافة (المغرب الاقصى) الذي عنون أيضا في الفهرس بصحافة

(1) وصل الى المغرب في منتصف سنة 1977 .

(المملكة المغربية) والذي استغرق الصفحات من : 132 الى 145 ، وتناولت ايضا التعريف بالمغرب : جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا وفلاحيا .

وبخصوص موضوع الصحافة تناولت باقي الصفحات المخصصة للفصل التعريف بنشاه الصحافة المغربية ، وتطورها ، والجانب القانوني ، والحديث عن الجرائد اليومية شبه الرسمية ، والحزبية اليومية والاسبوعية ، والجرائد الصادرة بالراسمال الخاص : اليومية والاسبوعية، والاسبوعية المتخصصة والاقليمية ، والصحف الشهرية ، وطريقة التوزيع ، كما تناولت وكالة المغرب العربي للانباء باقتضاب زائد،غير مشيرة لسبب من الاسباب الى المركز الوطني لتكوين الصحفيين ، وللمركز السينمائي المغربي كوسيلة اعلامية والذي يعتبر من اقدم المراكز العربية فى هذا المجال .

— ثم الدليل بصفة عامة .

* * *

وقبل أن انتقل الى الحديث عن الفصل المتعلق بالصحافة المغربية فلا بد من الاشارة الى ما يلاحظ على الدليل بصفة عامة ، حيث نجده كسائر المنشورات الشرقية لا يحمل اولا اي تاريخ للطبع ، وقد يكون القصد غالبا وكما هي العادة هو ان يبقى صالحا لكل زمان ، ويتداول فى السوق بالرغم من ان الواقع غير هذا ، فمثل هذا الدليل يحتاج دائما وباستمرار الى التنقيح المتواصل ، والاضافات المتتابعة ، والتصويبات ، خصوصا وقد صدر عن مؤسسة اقليمية تقنية بل وعلمية محترمة توجد بمصر العربية وفى سنة 1977 ، بينما لا تتجاوز المعلومات الواردة فيه فى الغالب سنة 1969 بالاضافة الى ان المقدمة لم تشر الى الطريقة العلمية التي انجزت بها هذه العروض ، ولا الجهات ولا المختصين أو المصادر التي شاركت فى انجازها ، ولا طريقة مراجعتها ، مما يجعل الباحث يشك فى قيمتها فى بعض الاحيان .

والسبب فى ذلك هو ان هذه الدراسات تتفاوت اولا فى الطريقة التي عرضت بها من طرف الذين اعدوها ، ثم ان المؤسسة لم تختر لها منهجا علميا يجعل المعلومات موحدة فى الدول التي تعرض اليها الدليل ، مما يدعوها الى المراجعة والاعتماد على الجهات الرسمية والعلمية فى مدة معقولة تتمكن فيه من الرد على الاسئلة التي يختارها المركز العربي للدراسات الاعلامية للسكان والتنمية والتعمير، وتحقق جانبا له أهميته بالنسبة للصحافة العربية التي بقيت على مستوى العالم العربي حبيسة موسوعة العلامة فيلب طرازي (الصحافة العربية (2) اذا استثنينا البعض وهو قليل ...

اما المجلات العلمية والادبية والفنية والتقنية فيلاحظ أن الدليل لم يعط عنها أي نظرة ولو اجمالية فى سائر الاقطار العربية ، مع أن هذه المجلات فى عدد من البلاد العربية تشهد اليوم تنوعا وتطورا علميا ملحوظا يوما بعد يوم ، حتى بالنسبة لاشهر المجلات العالمية المرموقة سواء من ناحية الاخراج الفني او التبويب ، أو اختيار الموضوعات مما يؤكد تفوقها فى عدد من البلاد العربية عن الصحيفة والكتاب .

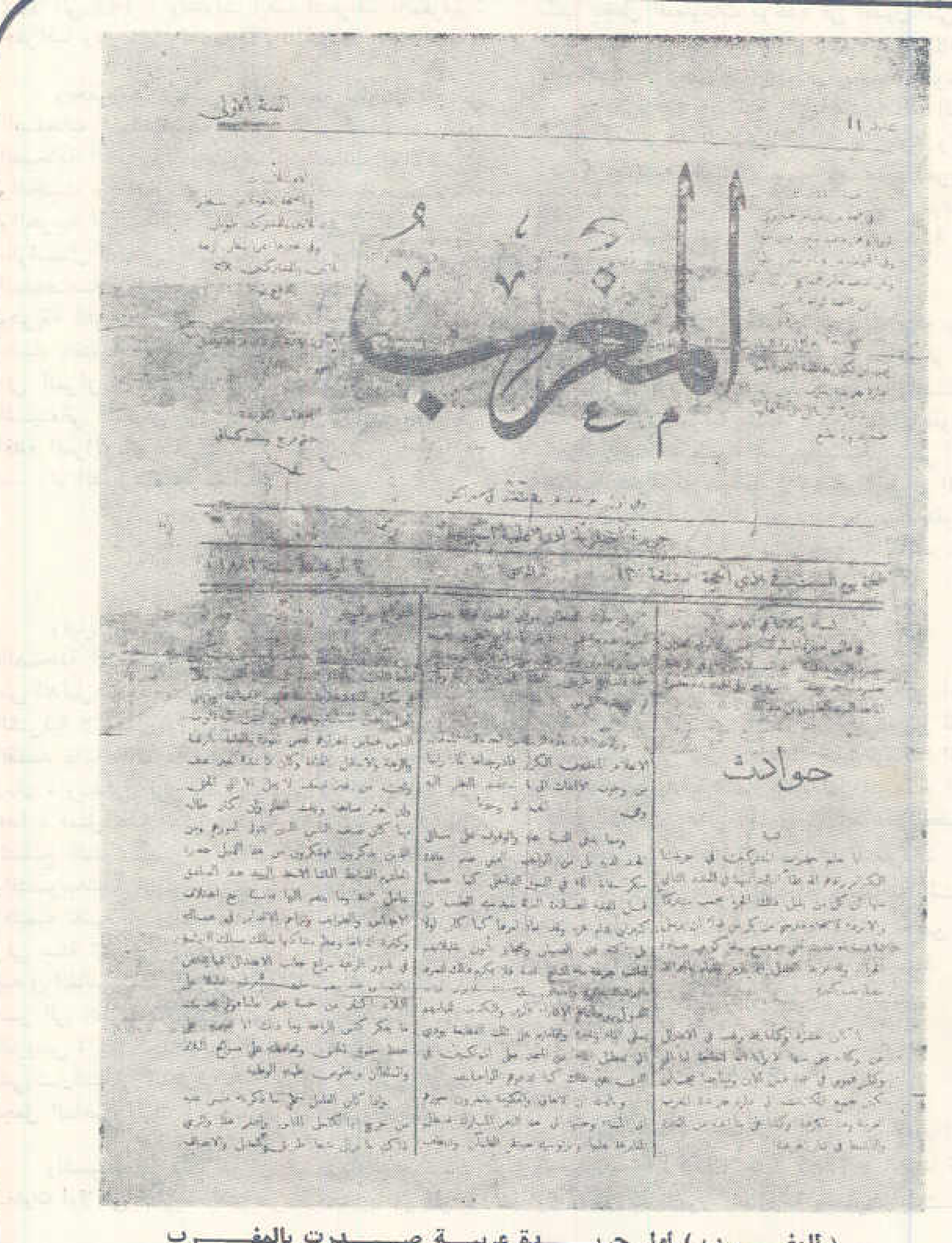
* * *

اما الفصل المتعلق بالمغرب والذي استغرق الصفحات : 132 الى 145 فهو أكثر من ناقص ، والمعلومات التي تناولها ضئيلة جدا فى هذا الميدان، وابتدات بصورة أيضا لم يحدد لها التاريخ الذي انطلق منها حتى يمكن للقارىء أن يعرف الحقبة التي تناول العرض صفحاتها ، مع أن المعلومات التي قدمها الدليل عن نشأة الصحافة بالمغرب كانت هزيلة وتعتمد على مصادر اجنبية غربية أو لم يحسن الكاتب ترجمة معلوماتها ومعانيها .. كما يلاحظ ذلك بوضوح وبكامل الاسف ...

* * *

واذا ما عدنا قليلا الى الوراء الى ظهور المطبعة بالمغرب سنة (1276 هـ / 1765 م) فاننا نجد ان اول محاولات لظهور الصحافة بالمغرب تتمثل فى

(2) طبع سنة 1913 فى اربعة اجزاء واعيد طبعه بالافسيط سنة 1972 .



السنة الاولى

المغرب

حوادث

(المغـــرب) أول جريـــدة عربيـــة صـــدرت بالمغـــرب (طنجة) سنة 1307 هـ - 1889 م . ولاول مرة تنشر صـــورة هـــذه الصحيفـــة النـــادرة .

صدور صحيفة باللغة العربية (3) (المغرب) سنة 1889 ثم جريدة (النفحات الزكية في الاخبار المغربية) التي صدرت ايضا سنة (1889 م — 1306 هـ) بمدينة طنجة ، وارتكازا على هذا البدء فان المغرب تاسع بلاد عربية ظهرت فيها الصحافة ، وهذا التقسيم يتمثل في :

أولا :

— صحافة فترة ما قبل سنة (1331 هـ — 1912 م)

— صحافة فترة ما قبل سنة (1375 هـ — 1955 م)

— صحافة ما بعد سنة (1376 هـ — 1956 م)

ثانيا : صحافة الدول الاستعمارية وتنقسم الى اقسام :

فرنسية وعربية في منطقة النفوذ الفرنسي سابقا .

المنطقة السلطانية التي كانت تقع في وسط المغرب بحدوده الحقة: شمال المغرب وجنوبه او ما كان يسمى بالصحراء الاسبانية : اقليم طرفاية وايفني ووادي الذهب والساقية الحمراء .

ثالثا : ثم الصحافة الانجليزية بطنجة وقد نشأت قبل سنة (1331 هـ — 1912 م) وقد كتبت عن المغرب الشيء الكثير بصفتها (مغربية) المولد ، ورغم ذلك فأهميتها ثانوية بصفة عامة .

رابعا الصحافة التجارية في جميع البلاد ، وهي في الغالب صحافة الشركات والمؤسسات التجارية .

خامسا : ظهور المجلات ولقد كانت هذه المجلات لا تقل في مستواها عن المستوى في الشرق العربي مثلا ، وتعتبر صورة واضحة للباحث عن التطور الذي قطعه المغرب في هذا الميدان ، في المفهوم الصحفي ايضا .

وتنقسم هذه المجلات الى صور مختلفة تبتدىء بظهور (مجلة الصباح) التي صدرت سنة (1326هـ — 1908 م) و (جريدة اهل فاس) (4) التي صدرت سنة (1326 هـ — 1908 م) والتي صدرت من أجل التسرب الاستعماري لمراسي المملكة المغربية مما لا يتسع معه الحديث حولها في هذا العرض الخاص ، وكذلك مجلة (الجيش العرمرم) (5) والتي صدرت بفاس سنة (1367 هـ — 1909 م) من أجل نفس الغاية وهذا في الداخل .

اما خارج المغرب فقد عرفت بلادنا صدور مجلة (مغرب) بالفرنسية وقد صدرت في فرنسا سنة (1932 م) « للدفاع عن حقوق الامة المغربية » .

* * *

واذا كنت قد اشرت الى ميلاد الصحافة المغربية منذ سنة 1889 م ، فقد رايت من المناسب ان اتطرق لتطور المفهوم الصحفي ببلادنا ، وغايتي من وراء ذلك كله هو ان أوضح ان المراحل التي قطعتها صحافتنا لم تكن عفوية ، ولكنها كانت مراحل ارتكزت على جوانب علمية ، ولذلك نجدها قد قطعت مراحل متعددة :

ولذلك فهي :

أولا : اذا كان عند صاحب نشرة (الطاعون) باعتبارها أول نشرة مغربية وطنية صدرت ببلادنا يرتكز على بلورة الوضعية المعزولة والمنكمشة التي كانت تعيشها بلادنا وخاصة على المستوى الشعبي ، فان هذا المفهوم قد ارتكز بعد سنة 1912 م حتى سنة 1937 م على البحث عن أسلوب للخروج بالمغرب من الظروف الشاذة التي اصبح يعيشها بالرغم عنه .

---

(3) جريدة (الحاضرة) التونسية (ع : 33 — الثلاثاء 17 رجب 1306 موافق 19 مارس 1889) .

(4) الرسالة الرسمية من الوزير عبد الكريم بن سليمان الى نائب وزير الخارجية المغربي الحاج محمد الطريس (المؤرخ في 2 شعبان 1325 هـ الموافق لسنة 1907 م) .

(5) انظر جريدة (السعادة) (ع : 175 — 28 محرم 1326 هـ موافق لفاتح مارس 1908 م) وتوجد نسخة منها عند الكاتب .

ثانيا : اما بعد سنة 1937 م فقد بدات طلائع المعركة الجديدة وتبرز فيها ما يلي :

ا ـ مفهوم الصحافة الوطنية الصرفة .

ب ـ مفهوم الصحافة المشوشة .

ج ـ وبعد سنة 1956 م ظهر مفهوم الانطلاق العلمي كما يجب .

د ـ فى حين نجد ان المفهوم الذي انبعث ما بين سنة 1961 م و 1965 م يؤكد ابعاد التطور الذي عم الفكر المغربي .... وهذا المفهوم بعث كما سنرى نهضة من حيث الشكل لا باس بها وبالرغم من ذلك فهي تؤكد ان المغرب يسير نحو الايمان بالصحافة والصحف ، ونحو خلق اقلام صحافية اذا ما استثنينا البعض والبعض قليل او نادر ...

ومن هنا ، من هذا التحديد نرى أن صحافة المغرب بعد سنة 1956 م تمثل فترة الانتقال بكل معنى الكلمة ، وهؤلاء القلة ليسوا صحافيين فى المجال الصحافي فقط ، ولكنهم كانوا ايضا كتاب التعاليق ، وكتاب الاسلوب الكاريكاتوري والمراسلات والمذكرات والبحث .

* * *

وهكذا نجد ان الصحف التي تصدر ببلادنا باستمرار ، والمجلات التي تظهر ، خير معبر لنا عن قدرة تطور المفهوم الصحافي عندنا ولو انه يتعثر ... وان السبب الحقيقي يرجع فى ذلك الى عدم وجود صحافة تجارية او خبرية تخدم الخبر ... وتخدم الصحافة وتخدم الاعلان . وهذه هي المرحلة التي تنظرها الحياة ببلادنا للانطلاق فى قطع مراحل ترتكز على المفهوم العلمي الصرف ، وعلى الاطارات المتخصصة على المستوى المطلوب فى المجال العلمي الحديث للاعلام ...

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فاننا نجد ايضا ان الصحافة المغربية التي اتسمت فى اطوارها الاولى بالطابع الديني سواء فى اسلوبها العام ، او اتجاهها الخاص ايام المعركة الوطنية لم تقف عند هذا الحد بل ان الصحف الرسمية لم تلتزم هذا الاتجاه بصفة عامة الى الحد الذي التزمته الصحافة الوطنية وبالصورة التي كانت تلتزمه وتتمسك به باعتباره الهدف الحقيقي ، **لكن بعد سنة 1956 انقلب الوضع بالنسبة لكل الصحف من حيث هذا الجانب** ، ومرجع ذلك الى سببين :

اولا : ان العناصر الجديدة التي دخلت ميدان الصحافة والتي تختلف تماما عن الجيل الذي سبقها من جوانب متعددة تكونت تكوينا آخر ، هذا بالاضافة الى الطريق الموصل للعمل فى الميدان الصحافي بصفة عامة ، وهذا العرض ليس مجالا للتفصيل أكثر .

ثانيا : ان الاقبال على مظاهر الثقافة الجديدة كاخبار الفن والموضة او ما يسمى (بالادب الرخيص) والقصص والروايات قد ظهر بصورة خاصة ، واصبح له مركزه ، ولهذه العناصر اثرها ايضا فى المفهوم المتطور بعد سنة 1965 م .

وهناك جرائد ظلت تلتزم الاسلوب القديم من حيث الشكل كما هو الشأن بالنسبة لجريدة (الميثاق) لسان رابطة علماء المغرب مثلا من عدة جوانب ومجلة (دعوة الحق) بصفة عامة ... فاذا كانت الميثاق تلتزم هذا الشكل من اجل ضرورة تيسير وسائل الطبع فان (دعوة الحق) قد حافظت على شكل قار كالتزام فني فقط .

ثالثا : وظهر بعد ذلك بصورة أوضح تطور مفاجىء فى بعض المجالات ، فظهر عدد من الجرائد الجديدة المهمة ، فى حين ظهرت عدد من الاسماء فى جرائد متباينة الاتجاه والهدف لشباب أو أوانس ، وكل اتجاهم الصحفي له اهمية خاصة فى هذا الميدان ولا يتسع له المجال هنا لاستعراضه ايضا .

وبصفة عامة فان هذه التجربة وهذا التحول المتواصل يؤكدان معا ان جميع هذه الخطوات تسجل ابرز مظهر فى تاريخ التطور المغربي فى المجال السياسي والصحفي ، وذلك ما يؤكد أن حركة التطور او حركة الانتقال هذه قد أخذت صورة واضحة من جهة ، ثم أخذت طريقها العادي لبلورة الواقع المغربي من جهة اخرى .

ومن هنا نرى ان المغرب سيحمد كل هذه الخطوات البناءة ما دامت تعمل لتحرير الكلمة من كل القيود والمؤثرات المعاكسة ، فى حين تجد الاتجاهات المغربية القدرة على التعبير عن وجهة

نظرها ، دون قيد أو ارهاب سياسي أو ثقافي ، خصوصا اذا حسنت النية ، وتظافرت الجهود للتعبير الصادق بعيدا عن أي اعتبار طارىء ، أو مصلحة موجهة أو ضغط من أي جهة كان .

وتلك في الحقيقة هي أسس الخط الثابت لصحافة الغد ، كما يجب أن تقدم صحافتنا سواء باقلامنا او باقلام اشقائنا او اصدقائنا .

* * *

اما الجانب المتعلق بالتعريف بالمغرب (صفحات من 133 الى 135) فانني لا أدخل مع محرره في نقاش حول المصادر التي اعتمدها أثناء كتابته ، لكنني أؤكد له اولا بأن وسائل الاتصال لم تعد صعبة الى الحد الذي دفعه الى الاعتماد على مصادر قديمة وتنطلق من منطلق استعماري صرف ، الهدف منها تشويه تاريخ المغرب من جهة ، وأعتماده كمصدر تحت رغبة يفضحها كثير من الحقائق التي تتصل بـ :

— المناطق التي قسم بها الاستعمار المغرب .

— تحديد حدود المغرب على هذه الصورة **« من الشرق والجنوب الشرقي الجزائر ، ومن الجنوب الصحراء الاسبانية وريو دي أورو(6)»**.

(6) الدليل (صفحة : 134) .

— تسمية الاحزاب المغربية والمنظمات الاجتماعية طبقا للنص الذي اعتمده والذي يرتكز على التقريب في التسمية ، الى غير ذلك من الاخطاء الاخرى مما كنا نتمنى أن لا تطلع في هذا الدليل الذي صدر عن مؤسسة مختصة ، ولها من الامكانيات ومن المشاركين المغاربة ما يجعلها في غنى عن هذه الصورة المشوهة والمهلهلة .

وبعد ، فانني اقترح على (المركز العربي للدراسات الاعلامية للسكان والتنمية والتعمير) الموجود بالقاهرة أن يدخل عصر التخطيط والعلم ، فيعيد طبع (دليله الصحفي) طبقا لتصميم مدروس تشارك فيه الخبرة العلمية ، ويشارك فيه الممثلون للدول المنخرطة بالمركز حتى تقدم للقارىء : أي قارىء كان الصورة العلمية الصحيحة التي تخدم الوحدة التي ننشدها ، وتقدم للجيل الصاعد مادة علمية دقيقة بعيدة عن الارتجال ، والدس واطلاق اسماء على غير مسمياتها ، وذلك ما ننتظر الاعلان عنه والله الموفق والهادي الى سواء السبيل .

زين العابدين الكتاني

رسالة الوزير عبد الكريم بن سليمان سنة 1325 هـ - 1907 م التي تؤكد صدور جريدة (هل فاس)

من تاريخ العمارة الدّينية في عصر الأشراف السّعديّين

للدكتور عثمان عثمان إسماعيل

عرفت مختلف نواحي المملكة المغربية نهضة معمارية متنوعة جليلة الشأن ابان عصر الاشراف السعديين . وقد شملت تلك النهضة مختلف انواع العمارة الاسلامية من حربية كبناء الاسوار والحصون والابراج والقلاع ، ودينية كبناء المساجد والزوايا والاضرحة والقباب ، ومدنية كتشييد القصور والمساكن والمصانع وغرس البساتين وتصميم المياه، مما جعلنا نخصص لها مكانا بارزا بكتابنا المعد للطبع عن تاريخ العمارة الاثرية والفنون التطبيقية بالمغرب الاقصى .

ونتناول الآن بايجاز دراسة بعض النماذج من العمارة الدينية لعصر الاشراف السعديين . وسوف لا يكون من قبيل الصدفة ان يقع اختيارنا على بعض روائع مدينة مراكش المعمارية ، فقد كانت عاصمة الجنوب الحالية ، قاعدة ملك السعديين ومقر سلطانهم وكرسي خلافتهم .

مسجد زاوية سيدي سليمان الجزولي بمراكش

تاريخ المسجد والزاوية :

في مدينة مراكش غير بعيد عن ضريح الاشراف السعديين توجد مجموعة معمارية تشتمل على مسجد

وضريح ومسيد (كتاب) وسبيل ومضيفة وحمام تعرف جميعها بزاوية سيدي بن سليمان الجزولي .

لقد درس جورج مارسيه هذه المجموعة المعمارية وقال انها منسوبة الى سيدي الجزولي صاحب الطريقة الجزولية الذي نقل جثمانه الى مراكش بأمر السلطان الاعرج السعدي حوالي سنة 1554 م (1) وهي تقابل سنة 962 للهجرة .

ولعلنا من الوهلة الاولى نستطيع أن نلاحظ عدم صحة التاريخ المذكور وهو سنة 962 للهجرة الى جانب اسم السلطان الاعرج السعدي . ذلك ان السلطان محمد المهدي المعروف بالشيخ الذي كان يستوزره اخوه الاكبر ابو العباس الاعرج انتفض عليه

(1) جورج مارسيه : العمارة الاسلامية ، ص : 386 ، شكل 239 .

وغلبه واستولى على ما بيده واصبح ملكا مستقلا سنة ست واربعين وتسعمائة (2) ، وقد قبض على اخيه المخلوع واولاده واودعهم السجن ثمان عشرة سنة الى ان قتل السلطان المخلوع ابو العباس الاعرج يوم مقتل اخيه محمد المهدي المعروف بالشيخ سنة اربع وستين وتسعمائة (3) .

وهكذا فان عام 962 للهجرة الذي اورده جورج مارسيه كتاريخ لنقل السلطان الاعرج لجثمان الجزولي الى مراكش غير مقبول حيث اوضحنا ان السلطان الاعرج قد نحى عن السلطة واودع السجن ابتداء من عام 946 . وتبدأ القصة بوفاة السلطان القائم بالله بآفغال من بلاد حاحا سنة 923 هجرية ودفنه هناك بازاء ضريح الشيخ ابى عبد الله بن سليمان الجزولي الذي كان موضع الاعتقاد حيا وميتا (4) . ثم أن السلطان ابو العباس الاعرج بن القائم بالله الذي كان قد دفن والده اولا بازاء ضريح الشيخ المذكور بآفغال فانه بمجرد أن ملك مراكش واستقر له الامر فيها بادر بنقل الشيخ الجزولي الى مراكش ونقل اباه معه فدفنته بقربه أيضا (وكان ذلك فى حدود الثلاثين وتسعمائة) (5) .

وهكذا يمكن القول بأن السلطان او العباس الاعرج السعدي قام بمجرد استيلائه على مراكش بتأسيس ضريح الشيخ الجزولي فى حدود 930 هجرية وليس 962 كما ذكر جورج مارسيه دون سند تاريخي .

تخطيط وعمارة المسجد :

اما مسجد زاوية سيدي سليمان الجوزلي فانه يتميز ببعض الخصائص فى التخطيط والعمارة على نحو ما نراه فيما بعد فى مسجدي المواسين وباب دكالة حيث تسير عقود بلاطاته عمودية على اتجاه القبلة مع وجود اسكوب مستعرض امام حائط المحراب .

والمسجد عبارة عن بيت للصلاة من خمسة بلاطات تقف عقودها العمودية عند ابتداء اسكوب المحراب المستعرض . وبالاضافة الى اسكوب المحراب يتسع بيت الصلاة لثلاثة اساكيب اخرى .

وصحن المسجد مربع المساحة تحيط به مجنبات من رواق واحد شرقا وغربا وشمالا ، على ان المجنبة الشمالية لا تفتح بباب رئيسي على محور المحراب كما هي العادة ، وانما تتصل مباشرة بصحن آخر مستطيل (أقل عمقا من الصحن الاول) تحيط به مجنبات من الشرق والغرب ، كما تحيط به من الشمال ايضا ، حيث تتصل تلك المجنبة الاخيرة بضريح سيدي سليمان الجزولي حيث قاعة الدفن الرئيسية .

جامع المواسين بمراكش

تاريخ المسجد :

وفى عاصمة الجنوب مراكش يعرف مسجد آخر بمسجد الاشراف بحي المواسين كان اهل الورع يتجنبون الصلاة فيه بعد بنائه لما يقال ان موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود (6) .

وعندما درس جورج مارسيه المسجد قال بانه اسس بعد جامع باب داكلة بخمس سنوات وذلك فى سنة 1562 (7) ميلادية اي ما يقابل 970 للهجرة . واذا كنا قد اختلفنا معه فى تاريخه لجامع باب دكالة كما يتضح فيما بعد (8) فسوف نحاول هنا حصر

---

(2) الاستقصا ج 5 ص : 18 .
(3) نفس المصدر ، ص : 34 .
(4) ورد فى اخبار عمرو السياف من أصحاب الشيخ الجزولي انه لما توفى الشيخ المذكور جعل جثمانه فى تابوت وصار يستنصر به مدة عشرين سنة الى ان دفن بآفغال. انظر الاستقصا ج5ص15
(5) الاستقصا ، ج 5 ، ص : 15 .
(6) الاستقصا ، ج 5 ، ص : 41 .
(7) جورج مارسيه : العمارة الاسلامية ، ص 385 – 386 وشكل 238 .
(8) انظر تأريخنا التالي للمسجد ، الجامع بباب دكالة بمراكش .

تاريخ بناء جامع المواسين بايجاز ما دام مارسيه لم يشر الى مصادر تاريخه .

نقل ابو العباس السلاوي عن اليفرني قولـــه : (وفي عشرة السبعين وتسعمائة انشأ السلطـان الغالب بالله جامع الاشراف بحومة المواسين مـــن مراكش ، والسقاية المتصلة به التي عليهـا مـدار المدينة المذكورة والمارستان الذي ظهر نفعه ووقف عليه اوقافا عظيمة) (9) .

ويفهم من نص اليفرني ان بناء الجامع تم فـي العقد السابع من المائة العاشرة للهجرة دون تحديد للسنة . وحيث انه ذكر في صراحة أن جامع المواسين كان من انشاء السلطان الغالب بالله ، فاننا انطلاقا من تلك الحقيقة ، وانطلاقا من ثبوت تاريخ مبايعة أهل فاس ثم اهل مراكش للسلطان الغالب بالله بن محمد الشيخ سنة خمس وستين وتسعمائة (10) ، فاننـا يمكن أن نعتمد تاريخ بناء المسجد فيما بين عامـي 965 و 970 (11) للهجرة .

تخطيـط وعمـارة المسجـد :

يذكر التصميم العام لجامع المواسين بتخطيط المساجد المرينية حيث يزيد عمق بيت الصلاة عن طول جدار القبة كما تتجه عقود المسجد عمودية على جدار المحراب . وبيت الصلاة في المسجد يتكون من سبعة بلاطات عقودها عمودية على اتجاه القبلـة كما يشتمل على أربعة اساكيب بالاضافة الى اسكوب المحراب وهو أسكوب مستعرض يتوقف العقود العمودية للبلاطات . ويتميـز هـذا الاسكـوب باشتماله على ثلاث قباب ، واحدة أمام المحـراب وواحدة في كل من طرفيه ، وســوف يتضاعـف ذلك النظام في جامع باب دكالة حيث نجد أسكوبـا مستعرضا آخر عند واجهة بيت الصلاة على الصحن.

وصحن المسجـد مربـع المساحـة (12) (27.50 × 27.50 مترا) تحيط به مجنبـات من رواق واحد من الشـرق والغـرب والشمـال ، غير أن المجنبة الشمالية تتميز بوجود ثلاث قباب عليها ، على النحو الذي رايناه في أسكوب القبلـة المستعرض حيث أقيمت قبة بوسطـه على المحور العام للبناء ، وقبة أخـرى بكـل مـن نهايتيـه الشرقية والغربية دون أن يعـوق ذلـك وضـع الصومعة التي شيدت ملتصقة بالواجهة الرئيسيـة وهي الواجهة الشمالية الغربيـة عنـد نهايتهـا الغربية . وهو وضع يختلف عما نـراه في جامـع باب دكالة بالنسبة لوضع الصومعة التـي تدخـل في تخطيط المستطيل العام للمسجد .

المسجد الجامع بباب دكالة بمراكش

تاريـخ بنـاء المسجـد :

ذكر جورج مارسيه أن السيدة مسعودة بنت احمد والدة السلطان احمد المنصور السعدي أسسته عام 965 هـ (1557 م) (13) . لكن الشيخ أبا العباس احمد السلاوي يعطينا في الاستقصا تفاصيل اسـم ونسب المؤسسة وهي الحرة مسعودة ام المنصور بنت الشيخ الاجل ابى العباس أحمد بن عبـد الله الوزكيتي الورززاتي الصالحة الحريصة على اقتناء المفاخر الراغبة في فعل الخير ، ثم يضيف السلاوي نقلا عن صاحب المنتقى ، انها انشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة داخل مدينة مراكش ووقفت عليه اوقافا عظيمة وكان ذلك سنة خمـس وتسعيـن وتسعمائـة (14) .

ويعرض السلاوي قصة تزعمها العامة في سبب بنائها لمسجد المذكور خلاصتها أنها دخلـت يومـا بستانا من بساتين قصورها وهي في حالة الوحـم فرأت به خوخا ورمانا فتناولتهما وأكلت منهمـا في نهار رمضان ثم ندمت وفعلت أفعالا كثيرة من بـاب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها ، ومنهـا الجامـع المذكـور (15) .

---

(9) الاستقصـــا ، ج 5 ، ص 39 .
(10) نـــفس المصـــدر ، ص : 38 .
(11) وذلك لان ولاية الغالب بالله امتدت من 965 هـ الى 981 هجرية ، وهو تاريخ وفاته .
(12) جورج مارسيه : العمارة الاسلامية ، ص : 386 وشكـل 238 .
(13) جورج مارسيه : (العمارة الاسلامية) ص 385 .
(14) الاستقصـــا ج 5 ص 117 .
(15) نفس المصدر ص 113 ، ويضيف أن النساء والصبيان يسجعون القصة الآن فيقولون (عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان) ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر .

وهكذا نجد انفسنا امام تاريخين مختلفين تفصل بينهما مدة ثلاثين عاما كاملة حيث ارجع مارسيه تاريخ البناء الى 965 هـ بينما يذكر نص ابن القاضي (فى المنتقى) الذي اورده السلاوي تاريخ 995 هـ .

ومن المعلوم أن الحرة للا مسعودة الوزكيتية انجبت ولدها ابا العباس أحمد الملقب فيما بعد بالمنصور من زوجها السلطان أبى عبد الله الشيخ بفاس سنة 956 هـ (16) . وقد ولى المنصور السعدي الخلافة بعد واقعة وادى المخازن سنة 986 هـ (17)، وتوفى سنة 1012 هـ (18) كما توفيت والدته الحرة للا مسعودة فاتح سنة الف (19) للهجرة .

فاذا نظرنا الان الى تاريخ ولادة المنصور السعدي سنة 956 هـ باعتباره احد سنوات الحمل بالنسبة للسيدة للا مسعودة ، فانه يبدو من ظاهر الامر ان التاريخ الذي أورده مارسيه لتأسيس المسجد سنة 965 هـ يكاد يكون مقبولا على ضوء قصة الحمل والوحم ورغبة الحرة للا مسعودة فى التكفير عن ذلك بعمل الخير وبناء المسجد الجامع .

ومع هذا ، فاننا لا نقبل الاخذ بتاريخ مارسيه ونفضل التاريخ الذي نقله صاحب الاستقصا لعدة أسباب .

واول هذه الاسباب التي تجعلنا نستبعد سنة 965 هـ باعتبارها غير ملائمة لتأسيس مثل ذلك المسجد الجامع ، ما رواه المؤرخون من أنه (فى سنة خمس وستين وتسعمائة كان بالمغرب وباء عظيم كسا سهله وجباله وافنى كماته وابطاله واتصل أمره الى سنة ست وستين بعدها) (20) . ولا شك أن حالة الوباء وفناء الرجال الذي عم المغرب يجعلنا نستبعد سنتي 965 هـ و 966 هـ حسبما أشار النص المذكور الذي يفيد عدم رواج الفلاحة والاقتصاد وتوفر الصناع المهرة .

كما يمكن ان نلاحظ أن زوج للا مسعودة ووالد ابى العباس احمد وهو السلطان ابو عبد الله الشيخ ، قد مات مقتولا سنة 964 هـ وتولى بعده ولده الغالب بالله الذي تقع سنة 965 هـ فى مدة حكمه ، ويقول المؤرخون أنه (فى سنة خمس وستين وتسعمائة فى جمادى الاولى منها ، غزاه حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان فى جيش كثيف ...) .

ومن جهة اخرى فقد وجب علينا النظر فى ظروف واحوال الحرة للا مسعودة الاجتماعية والاقتصادية التي تساعدها على مواجهة نفقات بناء مسجد جامع ، بالاضافة الى النظر فى ظروف واحوال ملوك الاشراف السعديين فيما بين سنتي 965 هـ و 995 هـ .

لقد كان من بين ابناء السلطان ابى عبد الله الشيخ ثلاثة ارتقوا امر الخلافة من بعده وهم أبو محمد عبد الله الغالب بالله وابو مروان عبد الملك وابو العباس احمد المنصور . وقد تولى ابو محمد عبد الله الغالب بالله السلطة بعد مقتل أبيه وتمت له البيعة سنة 965 هـ وتوفى 981 هـ ، وبويع ولده المتوكل الذي انتظم له الملك الى سنة 983 هـ عندما هاجمه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش الترك وبدد ملكه لما كان قد أضمره المتوكل من الفتك بعميه عبد الملك واحمد اللذين فرا منه الى ناحية الترك .

وقد كان عبد الملك بن الشيخ واخوه ابو العباس احمد مقيمين بسجلماسة سائر ايام ابيهما ، فلما توفى وولى ابنه الغالب بالله ، فرا الى تلمسان ومنها الى الجزائر ثم القسطنطينية حيث اسعفهما السلطان سليم العثماني بالجند وكان معهما حسب رواية المؤرخين السيدة سحابة الرحمانية والدة عبد الملك او للا مسعودة الوزكيتية ام ابى العباس احمد تبعا لاختلاف الروايات (21) .

---

(16) نفس المصدر ص 89 .
(17) نفس المصدر ابتداء من ص 69 وخاصة ص 84 .
(18) نفس المصدر ص 186 .
(19) نفس المصدر ص 126 .
(20) نفس المصدر ص 88 .
(21) نفس المصدر ص 61 — 62 .

وقد لجأ السلطان المخلوع أبو عبد الله محمد بن عبد الله السعدي الى سبستيان البرتغالي لاعانته على استرجاع ملكه ، وكانت تلك الاحداث مقدمات للغزوة الكبرى الشهيرة بوادي المخازن سنة 986 هـ التي هلك فيها غرقا بوادي المخازن محمد ابن عبد الله المخلوع والطاغية سبستيان بعد هزيمتهما ، كما توفى متأثرا بمرضه بأرض المعركة عبد الملك بن الشيخ ، الامر الذي ادى الى بيعة اخيه وشريكه فى الكفاح ابى العباس احمد الذي لقب بالمنصور ، وتدفقت عليه الاموال الطائلة من فداء الاسارى وتلاحقت ببابه الوفود بالهدايا من سائر الاقطار من الجزائر والبرتغال والاسبان وسلطان العثمانيين تقديرا لقوته ، كما فتح الله عليه السودان وتضاعفت مداخيل السكر بصورة خيالية مما امكن المنصور من تشييد مآثر ضخمة احياء لذكرى آل البيت بقصر البديع والقرويين واضرحة السعديين وغيرها .

ان تلك الظروف التاريخية ابتداء من عام 965هـ (الذي استبعدناه كتاريخ لبناء المسجد) الى عام 986 هـ ، توضح لنا ان الحرة للا مسعودة الوزكيتية لم يكن لها من الاسقرار بمراكش ولا المال والامكانيات اللازمة لبناء مسجد جامع على هذا النحو قبل أن يستقر القرار لولدها المنصور السعدي على كرسي الملك سنة 986 هـ وتدفق النفائس والاموال عليه .

ولكنها عاشت قرابة اربعة عشر عاما بمدينة مراكش الى تاريخ وفاتها فاتح سنة الف للهجرة فى ظل صيت ولدها المنصور وفى رحاب عظمة الدولة السعدية فى الفترة التي عرفت ازهى نهضة حضارية عسكريا واقتصاديا وعمرانيا .

ولعل تلك الظروف التي حللناها تساعدنا على قبول رواية ابن القاضي التي نقلها صاحب الاستقصا بكونها شيدت المسجد الجامع المذكور سنة 995 للهجرة ، خاصة وان جورج مارسيه لم يشر الى المصادر التي رجع اليها او الدراسة التي اعتمد عليها، ولعله استعان بمترجم كعادة المستشرقين فكتب له عام خمس وستين وتسعمائة بدل خمس وتسعين وتسعمائة .

اما قصة الوحم وافطار رمضان بتفاح ورمان ، فليس من الضروري ان كانت القصة قد وقعت ، ان تكون قد حدثت مباشرة قبل تاريخ بناء المسجد الجامع . واذا كنا لا نرى ضرورة لانكار القصة ، فالارجح أن تكون قد وقعت لها فى صباها ثم قامت بأعمال البر وبناء المسجد الجامع عندما نضجت شخصيتها وتوفرت لها الامكانيات المادية والظروف القارة على النحو الذي أسلفنا .

تخطيط وعمارة المسجد :

هذا والمسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش عبارة عن بيت للصلاة يشتمل على سبعة بلاطات تتجه عقودها عمودية بعمق المسجد نحو جدار القبلة ، كما يشتمل على ثلاثة اساكيب (وليس اربعة كما يذكر مارسيه) يتقدمها اسكوب آخر للقبة . ويحدها شمالا اسكوب آخر يطل على الصحن وهما أسكوبان متميزان عن بقية الاساكيب بوجود ثلاث قباب بأسكوب القبلة، كما يشتمل على ثلاثة اساكيب (وليس اربعة كما شرقا وغربا . كما توجد قبة بوسط الاسكوب المطل على الصحن عند التقائه ببلاط المحراب وقبة اخرى بكل من نهايتي ذلك الاسكوب شرقا وغربا .

وصحن المسجد يكاد يكون مربعا (29×30 مترا) تحيط به المجنبات من نواحيه الثلاث ولا تشتمل كل مجنبة منها على غير رواق واحد .

على أن المجنبة الشمالية تختلف عن المجنبتين الشرقية والغربية وتطابق عمارة أسكوب بيت الصلاة المطل على الصحن حيث تتوسطها قبة بالاضافة الى قبة اخرى بالركن الشمالي الغربي مع الفاء القبة المقابلة لها بالركن الشمالي الشرقي لافساح مكان للصومعة .

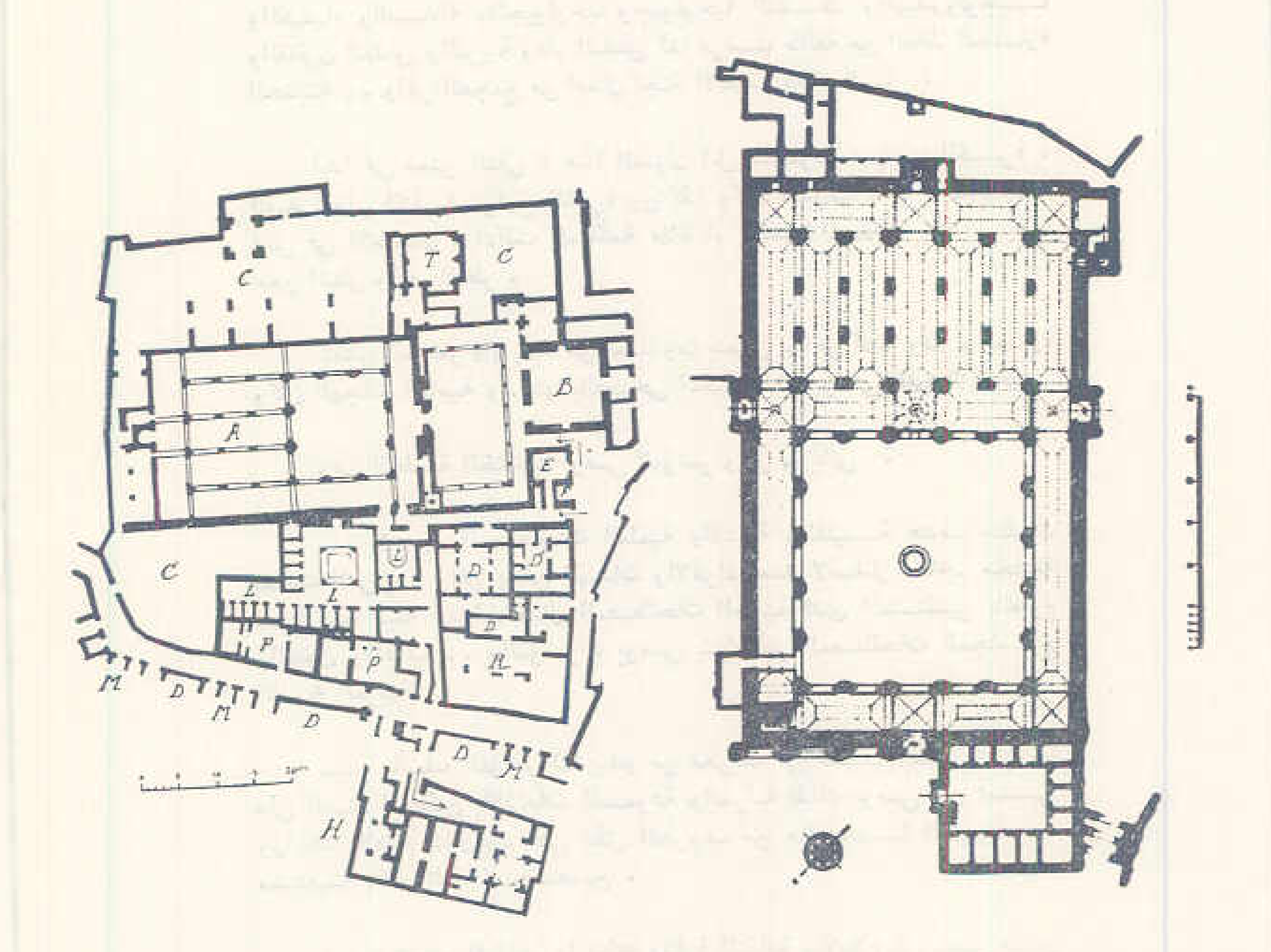
ويفتح باب بكل من واجهات المسجد الثلاث شرقا وغربا وشمالا حيث نجد بكل من الواجهتين الشرقية والغربية بابا على محور الاسكوب المطل على الصحن ، أما المدخل الرئيسي فيفتح بالواجهة الشمالية الغربية وهي الواجهة الرئيسية على محور المحراب .

وقد تنوعت العقود (22) داخل المسجد حيث نرى عقودا على هيئة حدوة الفرس « Fer à Cheval » بالبلاطات ، وعقودا ذات مقرنصات « à Stalactite » تحمل قبة المحراب ، ونوعا من العقود المفصصة « Lobé » تحمل بقية القباب .

الرباط : د. عثمان عثمان اسماعيل

---

22 G. Marçais : l'Architecture Musulmane d'Occident P. 385 - 386 et Fig: 237



تخطيط مسجد باب دكالة بمراكش

تخطيط زاوية سيدي الجزولي بمراكش ويظهر فيها تخطيط المسجد

من توصيات الدورة 44 لمجمع اللغة العربية بالقاهرة

● انهى المؤتمر 44 لمجمع اللغة العربية بالقاهرة اعماله بعد ان عقد 11 جلسة من مسيرته التي تتابعت خلال 15 يوما نظر فيها ما اعده منذ المؤتمر السابق من مصطلحات وقرارات .

وكانت المصطلحات التي عرضت فى هذا المؤتمر فى الفيزياء والكيمياء والصيدلة والجيولوجيا وجيولوجيا النفط والهيدرولوجيا والقانون المدني والتربية وعلم النفس كما عرضت طائفة من الفاظ الحضارة الحديثة .. واقر المجمع من اعمال لجنة الالفاظ والاساليب :

ابدا فى معنى النفي ، هذا المنزل آيل للسقوط ، يلعب الكرة ، القيد بمعنى التقييد تراوح الشيء بين كذا وكذا ، عزف لحنا ، المديونية ، غش فى الامتحان ، ادانت المحكمة فلانا او حكمت المحكمة بالادانة ، امعن النظر وانعم النظر .

ناقش المؤتمر 14 بحثا عن لغتنا وما يتصل بها من ادب وعلم وحضارة وكان للهجات العامية وصلتها بالفصحى النصيب الاكبر فى هذه الابحاث .

وفى الجلسة الختامية أوصى المؤتمر واقر ما ياتي :

— توحيد المصطلحات العلمية والادبية والفنية هدف منشود لعالمنا العربي ، ولكن بعض الهيئات والافراد يعمد لاصدار معاجم مختلفة تنشا عنها بلبلة فى استعمال المصطلحات العربية لدى المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب .. والمؤتمر ، يوصي بترك أمر المصطلحات للمجامع اللغوية العربية .

— يأسف المؤتمر لما يبدو من تحريف فى نطق بعض الحروف على السنة العاملين بالاذاعات المسموعة والمرئية لذلك يوصي بأن تعني وزارات الاعلام بتدريبهم على نطق الحروف من مخارجها الصحيحة مستعينة بالاساتذة المتخصصين .

— يشجع المؤتمر ما بدأته وزارة الثقافة والاعلام فى مصر من اقامة امسيات شعرية لاعلام الشعر ويستحثها على المضي فى هذا السبيل .. ويأمل بأن تأخذ بذلك وزارات الثقافة العربية ففيه احياء لتراثنا الشعري لدى أبناء الجيل وترغيب لهم فيه ليقبلوا عليه ويفيدوا منه .

عدوّ الفكر

للأستاذ:
عبد العلي الوزاني

اعداء الفكر كثيرون . ولكن التعود اخطرهم عداء واقدرهم على شل اعصاب الفكر ، وقتل بواعث الابتكار والخلق . فعندما تتكون لدى رجل الفكر عادة فى التامل ، وعادة فى ترتيب الآراء ، وعادة فى الاسلوب ، وعادة فى المنهج ، وعادة فى الزاوية الخاصة ، وعادة فى التذوق ، وعادة فى التخيل ، فتصير الكتابة عنده (ممارسة مجموعة من العادات) المتكونة بتؤدة وعلى مهل ، يسقط سقطته المأساوية التي قد لا يقوم منها ابدا . وكل رجل فكر لا بد ان تكون له عادات ، أحب ذلك أم كره ، ذلك أنها نتيجة لازمة لمعاودة التفكير مرة بعد مرة ، ومعاودة الكتابة حينا بعد حين ، والتعامل مع اللغة باستمرار ، الامر الذي يجعل العادة الذهنية ، والعادة الذوقية ، والعادة الخيالية ، وكذا الاسلوبية ، تتشكل بمرور الايام ، وتكرار التجربة ، واعادة المحاولة ، بحيث كلما كان التكرار ، الا وتكونت العادة . بعض رجال الفكر والادب يستسلمون بعاداتهم ويتركونها تتحدث باسمهم ، اذ يعملون بطريقة شبه اوتوماتيكية . كل شيء عندهم جاهز بحكم العادة . هناك طاقم من الافكار ، وطاقم من العبارات ، وطاقم من المنطلقات . وما على الكاتب منهم الا ان يخلي لعاداته وطواقمه السبيل ، كي تؤدي عنه ما يريد قوله بسهولة ويسر . ولكن البعض الآخر من رجال الفكر أحس بالخطر ، فأخذ على نفسه ان يقاوم عاداته ويكافحها بكل ما أوتي من قوة ، حتى لا ترمي عليه شباكها ، وتلقي اغلالها ، فتكون له الراس الذي يفكر ، والعين التي ترى ، والاذن التي تسمع ، واللسان الذي يتكلم ، بحيث لا يكون له من الامر شيء ، سوى التفرج على عاداته ، وهي تمارس عليه فعلها باقتدار عجيب ...

كيف يقاوم رجل الفكر التعود ؟ نفترض ان التعود موجود ، وهو لا بد ان يكون كذلك ، والا كنا نقاوم خيالا لا ظل له من الحقيقة . وطبيعة وجوده هي التي تحدد طريقة مقاومته . اذا اردت تحطيم العادة ، كان عليك ان تبدأ بدراستها اولا ، بمعنى ان تعرف الذي تستعد لمقاومته : اين يوجد ، وكيف يعمل ، وما هي نقط ضعفه ، وما مواطن قوته ، وما هي المساحة التي يحتلها . تجرد لعاداتك الذهنية ، محاولا ان تقف منها موقف الناقد الفاحص ، بأن تراقب ذهنك كيف يعمل ، وجملك كيف تتشكل ، وصورك كيف تأتلف ، وكلماتك كيف تتصل ، وكيف تنفصل ، وذوقك كيف ينفعل بالطعوم والالوان وشيات الجمال ، وخيالك كيف يجمع الاشياء ويفرقها، ويخفيها ويبرزها ، ويذهبها ويزركشها ، حتى اذا تم لك ذلك ، كنت قد وضعت اصابعك على طبيعة العادات التي تربط لسانك ، وتنظم انفاسك ، وتلجم قلمك ، وتصوغ نظرتك . تحدد لك الكلمة وجارتها ، والفكرة وقسيمتها ، والصورة ودلالتها . ومتى عرفتها هذا القدر من المعرفة ، كانت هذه المعرفة مدخلك الى ازاحتها عن فكرك حتى يتحرر ، وعن لفتك حتى تنعتق ، وعن قلمك حتى ينطلق ، وعن خاطرك حتى

يتشقق وينفلق ، فتبحث لك عن افكار تفاجئك بغرابتها ، وتذهلك بجدتها ، وعن تركيبة لغوية لم تتخرج من بيت الطاعة ، ولم تنشأ تحت الوصاية ، ولم تستخرج جاهزة من مخازن اللغة ...

هذه العملية تكتنفها عدة مصاعب . ذلك ان الذهن المشحوذ للانقلاب على عاداته ، محكوم بنفس العادات ، والذوق المدعو الى الثورة على مكتسباته مطوق بذات المكتسبات ، واللغة المحرضة على قوالبها مجهزة بذات القوالب ، والقلم المؤلب ضد السن التي اتكا عليها مدة طويلة منحوت بذات السن ... ومع ذلك ، فربما كانت هذه المصاعب هي التي تثير رجل الفكر العنيد ، وتغريه بالصمود لها ومحاصرتها ، كما يحاصر البطل قلعة حصينة ، الى ان يعثر على ثغرة ينفذ منها . ولكن لا يظنن احد ان العادات الناضجة بمرور الايام ، يمكن اقتلاعها من الجذور ، فهذا امر لا سبيل اليه . فالانسان كله مجموعة عادات . منذ ولادته والعادة رفيقة عمره ، تلعب معه في البيت ، وتجلس معه الى المائدة ، وتتعلم الى جانبه في المدرسة . يجدها في لغة الوالدين ، وفي كلام المعلم ، وبين اغلفة الكتب ، وخلال شتى الوصايا والنصائح . حتى اذا كبر واصبحت له شخصيته (المستقلة) واخذ يردد قوله : هذا رايي ، وذاك ذوقي ، وهذه سبيلي ، وانخدع بهذه الكلمات التي يكون لها في اذنه وقع السحر ، كان منطلقا من حدود عادات اخرى ، اكتسبها بعد أن ترك كثير من عادات الصبا . هذه اسلمته الى تلك ، لانه لا يستطيع العيش بدون عادات، حتى لا يكون مضطرا دائما الى الرجوع نحو البداية ، الى نقطة الصفر ، الى ابجدية الاشياء واذن فمهما بذلنا من جهد ، من اجل استئصال عاداتنا الفكرية والذوقية واللغوية ، فلن نصل الى شيء ذي خطر . وكل ما نستطيع،هو ان نفك عنا القيود لبعض الوقت، او ان نحاول تخفيف هذه القيود وجعلها ذات مرونة . هي لحظات خاطفة نشتقها من خلال الروتين ، ولا باس بعودة كل شيء الى ما كان عليه ، ولكن بعد ان نستمد من تلك اللحظات رؤى مدهشة ، واقباسا رائعة ، والطافا ذهنية وذوقية ووجدانية . لا نطمع في اكثر من هذا ، لاننا عاجزون عن أي شيء آخر خارج عن نطاق ارادتنا ، وحسبنا ذلك دليلا على اننا لسنا دائما عبيد عاداتنا في التفكير والتذوق والتخيل ، وان في استطاعتنا تغيير اثاث فكرنا من حين لآخر ، وزراعة حدائقنا الادبية بورود غريبة الشذى واللون .

لكن رجل الفكر ما ان يكرر ثورته على عاداته ، حتى يجد نفسه تحبل بعادة جديدة . وهذه مشكلة اخرى . كل محاولة تكررت تؤدي الى الحبل بعادة . واجهاضها – اي العادة الجنين – يكون بالتوقف عن المحاولة فور الشعور بشيء يضطرب في الداخل . اما اذا استمرت المحاولة فلا مفر من الميلاد ، ميلاد العادة ، التي ما تلبث ان تتحول من طفلة تصلح للمداعبات والملاطفات ، الى لبوة تفترس الفكر والذوق ، وتثب على كل خاطرة طريفة فتطويها في احشائها الغليظة .

ايكون من المفروض على رجل الفكر ان تكون كل كتاباته محاولات أولى ، لا تشابه بينها اذا هو شاء تجنب العادة ؟ اقادر هو على ذلك حتى لو عقد العزم عليه ؟ لا مفر من التعود ، فهو مقدور على جميع البشر ، مفكرين كانوا او غير مفكرين. ما ان تستخدم الجملة مرتين ، حتى تعرف طريقها الى قلمك او شفتيك بدون استئذانك ، حتى وانت وعي كامل . ما تردد الفكرة مرتين ، حتى تندس في في ذهنك وسط الزحام ، كي تفرض لها فيه مكانا ولو كنت كارها لذلك . ما ان تصل كلمة باخرى مرتين ، حتى تراهما معا وقد اوشكتا ان تتلازما وتتعانقا ، بحيث ما من مرة استخدمت احداهما الا وقفزت الى جانبها الاخرى ، كأنهما على ميعاد .

لماذا يعجز الذهن عن العمل بدون ان يكون متعودا على أمور كثيرة ؟ افي عقول الناس ما يمنعهم من التفكير بغير عادات ذهنية ؟ افي اذواقهم ما يمنعهم من تجربة نكهة الاشياء بدون عادات ذوقية ؟ ان عقل الانسان انما يعمل من خلال تصورات ومفاهيم مخزونة في الفاظ اللغة . وهذه التصورات والمفاهيم من صنع اجيال سابقة . ومنذ نعومة اظفارنا ونحن تتدرب ذهنيا على التفكير من خلالها ، فكيف نستغني عنها ؟ هناك طريقة للافلات من قبضتها ، وهي ان يخترع كل واحد منا لغة خاصة به ، وهذا ضرب من المستحيل . وحتى لو استطعنا ذلك بقدرة قادر ، فما يضمن لنا الا نقع في قبضة عادات لغوية من صنعنا ؟ وما يضمن لنا الا نسجن داخل تصوراتنا التي كوناها بانفسنا ؟ القضية كما ترى بالغة الصعوبة . وما من رجل فكر الا وحيرته هذه القضية

ولم يجد منها مخرجا . والذين حاولوا انهاءها تخبطوا وتاهوا ثم عادوا الى قواعدهم ، وتعاملوا مع عاداتهم القديمة . كأنهم متمردون اعلنوا العصيان فى منطقة احكم الحصار من حولها ، ولما اعياهم التمرد غير المجدي ، عادوا الى الاستسلام آسفين محزونين ... ومن لم تضايقه عاداته فى التفكير والتذوق والتخيل، واحس بالراحة التامة وهو مقيم داخلها ، لا يساوره قلق ، ولا تشوقه آفاق مجهولة ، فهو لم يحترق بلهب الفكر ، ولم يفتتن بوهج المعاني ، ولم يؤخذ بروعة الاشياء .. وخليق به ان ينشد الخلاص من راحته المستريحة ، وهدوئه الكسول ، فان القلق الخالق أرحم ، والاضطراب المبدع أولى .

هي العادات الذهنية والذوقية والخيالية واللغوية ترغمنا على ان نرى الشيء فما ان نرفع اعيننا عنه حتى نعود الى الحملقة فيه من جديد ، وليس بين النظرة الاولى والثانية وما بعدهما من فرق، ان هي الا نظرة واحدة متكررة وتحملنا على ان نقول ما سبق لنا ان قلناه ، بنفس المعاني ونفس التصورات ونفس العبارات ، وكأننا الحاكي يعيد ذات المقاطع بنغمة واحدة وترجيع لا تبديل فيه ، وتجعلنا لا نعرف الا شرابا واحدا ، به نرتوي ونغتسل ونتعطر، فاذا امتدت ايدينا الى أشربة اخرى حيل بيننا وبينها، وابعدنا عن مبتغانا ، لنعود الى شرابنا ذاك المجوج نرتوي به ونغتسل ونتعطر ... وامرنا الى الله ... الفخاخ منصوبة لنا فى الطريق ، وفى كل زاوية او منعطف . ما ان ينطبع فى عقولنا شيء حتى تخرج أفواج من مخلوقات لا ندري عن حقيقتها شيئا ، حاملة فرشاة الصباغة ومحلولها ، وكذا الملصقات الحائطية ، وعناوين جاهزة ، وشارت ولافتات ثم تاخذ فى تلوين ذلك الشيء واعطائه اشارة والعنوان والهيئة الخاصة ، بينما نحن لا نكاد نملك من امر عقولنا شيئا. ما ان يلوح لنا المعنى الطريف ونريد صوغه فى لفظ ، حتى تتطوع الصفات والتشبيهات الجاهزة المعتادة لنا فتلقي بنفسها على المعنى ، فتجعله عدديا تافها تخلت عنه طرافته ، وانطفأ فيه الاشعاع ، والتحق بالعاديات فخاب أملنا فيه ، وعاد كل شيء الى بلاهته وغبائه ...

كيف السبيل الى الا نتعود ؟ لماذا نحن هكذا ، تحتل العادات ثلاثة أرباع فكرنا ؟ أكتب علينا ان نعيش فى عالم كل ما فيه جاهز ؟ أليس فى مقدورنا ان نكون احيانا بدائيين ، وكأننا نكتشف الاشياء للمرة الاولى ؟ ماذا صنعت بنا القراءة ، واسماع ، وكلام الناس ، والشائعات ، وعناوين الصحف ، والمحفوظات، والاغاني ، وكتاب القراءة الرشيدة ؟ أكنا خليقين بأن نبقى غير قارئين ولا اجتماعيين ، لكي نبتعد عن التعود فى أخطر ميادينه ؟ وهب اننا فعلنا ذلك ، فالى اين نهرب من انفسنا ؟ ألسنا قمينين حينئذ بأن نعتكف على انفسنا الى أن نتعود على كل ما فيها ؟ نحفظ خواطر صدورنا ، ونستظهر ضربات قلوبنا ، ونجتر وساوس نفوسنا .

ماذا فعل العباقرة العظام ، حتى بهروا الدنيا بافكارهم الكبيرة ، واحلامهم العجيبة ؟ بأية قوة انتصروا على التعود ، فحطموا الحصار ، وفتحوا لانفسهم نوافذ خاصة اطلوا منها على العالم ؟ ان العلم لم يستطع معرفة سر العبقرية بعد ، ولذلك فالذين تحدثوا عنها كانوا شعراء وفنانين ومتصوفين ولم يكونوا فيما كتبوا عنها من العلماء ، لانهم استنجدوا بالحدس والبصيرة والوجدان الفني . وظل سر العبقرية ملفوفا فى الغموض ، لا تلوح منه الا أطياف لقلب شاعر وعين حالمة ... لكن المأساة هي ان هؤلاء العباقرة انفسهم طالما ضجوا بالشكوى من التعود ، وفاض حديثهم عنه خيبة ومرارة .. وكنا احيانا نشهد سقوطهم فى حبائله ، عاجزين عن مكافحته ، فنرثي لحالهم ، ونأسى لترديهم فى الموهى السحيق ، بعد ان تربعوا فوق القمم ... هي العادة القاتلة ، ما ان يظن العبقري انه انطلق خارج اسوارها ، حتى تعود للاطباق عليه بيدين قاسيتين ... فمن المحال استمرار ذلك الانطلاق ، والا انفجر العقل ، واختلت الاعصاب ، وضرب الزلزال كل القوى النفسية ، ذلك ان التعود من قوانين العقل البشري ، وخرق هذا القانون ، يؤدي الى خلل فى الجهاز كله ... ومن ثم كان انفلات العباقرة من العادة يأخذ فى المظهر شكل فك الحصار ، ولكنه فى الحقيقة ضرب من الاحتيال ، لاختلاس لحظات خاطفة ، يقضونها خارج سجن العادة ، ثم لا تلبث هذه ان تسترد ابناءها وتعيدهم الى قواعدهم صاغرين ... وكان جديرا بالانسانية ان تقتدي بهم وتتعلم منهم أسلوب التمرد على التعود الذهني ، لولا انها اكتفت بترديد اقوالهم ، بسكها ورصها وجعلها عملة متداولة ، معروفة الوجه ، رنانة الصدى ، متقلبة القيمة ، عائمة على السطح ، مترسبة فى الاعماق ، يتعامل بها كل رجال الفكر ،

ويوفرون منها الشيء الكثير ، ليكون عونا لهم في لحظات الحاجة .. وما ان تختفي العملة من أسواق الفكر في حقبة من الزمن ، لانها أصبحت محظـورة وممنوعة ، حتى يقوم البعض بتهريبها ، فتظهر من جديد ، حذرة يقظة في اول الامر ، ثم واسعة الانتشار بعد ذلك .. أيكون العباقرة — دون ان يقصدوا — عرقلة في طريق الفكر البشري الى الخلق والابداع ؟ الم يقض رجال الفكر اجزاء هامة من اعمارهم وهم لا يصنعون شيئا سوى ترديد كلماتهم ، وقل ان قاموا باضافة جديدة ؟ اما كان الاولى بهم ان يبحثوا عن السر في انفلات العبقري من عاداته العقلية ، فيحاولوا مثله ، بدل الاكتفاء باتخاذ كلماته انشيد يقع ترديدها دائما ودون ملل . ؟ وقد يرضي العبقري ان يرى الناس في حياته يرددون كلماته ، ولكن ما هو الجديد في ان يتلقى اصداء نفسه ، ترد اليه صخبة اصوات مختلطة ، كما يرجع الى المغنى صدى صوته ممزوجا بضجيج الجمهور داخل قاعة للحفلات . . . ؟ ولو ابدى العبقري ضيقه الشديد بأصداء فكره ترتد اليه ، لكان في قمة نضجه الفكري، خليقا بأرفع قمم المجد .. فالصدى تكرار واعادة ، كانعكاس شيء واحد على مرايا متعددة . قد يبدو الشيء مستطيلا في هذه المرآة ، مستديرا في أخرى، مبتور الاطراف في ثالثة ، ولكنه الشيء نفسه يبدو من خلال المرايا المتقابلة في اوضاع مختلفة .. ولو راى شخص نفسه في مئات المرايا لكان دائما ذات الشخص ، ولو حدثت الكلمات الكبيرة آلاف الاصداء لما خرجت عن ان تكون نفس الكلمات . . . وعند ما يتعود احد على ان يتلقى اصداء كلماته يختنق بهذه الكلمات ، ويطوق بحصارها المحكم ، وحينئذ قد يتمنى ان تبقى دون صدى ، حتى لا يدمن عليه ، ويتعوده ، بل قد يتوق الى نسيان كلماته عن ظهر قلب ... ولا شيء يذكره بها ، كي لا يعود الى عناقها مرة اخرى ، كي لا تبقى منها الا ذكرى باهتة . . .

دائما تلف وندور لنجد انفسنا امام عدو الفكر : التعود . لقد طرقنا حتى الآن عددا من الابواب نريد الفرار منه ، فما ان ينفتح لنا الباب منها حتى نجده امامنا بوقاحته واصراره على سد كافة الطرق أمامنا، فننكفيء على احزاننا خائبين . بيد اننا لا نياس ، وما كان الياس ليسيطر على نفوس طلعة تملك ان تحترق اذا شاقها اللهب المقدس ، ولم تر بدا من الرقص على السنة النار ، متى كان ذلك سبيلها الوحيد ، لاذابة جليدها المميت . . .

ونعود مرة اخرى الى التعود ، فيظهر اننا واياه على جانبي حلبة واحدة ... والمباراة ذات اشواط متعددة .. ولكن القوى غير متكافئة .. واحتمالات الفشل اكثر من احتمالات النجاح بالنسبة الى الطرف الاضعف .. لكن خوفه من الفشل يحمله على الاستماتة في الدفاع ، وقد يقدم على عملية انتحارية ... ونحن لا نريد ان ننتحر ، وانما نريد كسب جولة واحدة ، في مقابل الجولات التي يكسبها خصمنا العنيد : التعود . نريد ان نفتح فيه ثغرة ولو صغيرة .. ان نكتشف فيه احدى نقط الضعف .. ان نضربه من خلف .. اذا عجزنا عن ضربه من امام .. ولو خالفنا تقاليد الفروسية .. نود ان نجرب شيئا من الكذب ، فنزعم لانفسنا ان التعود يمكن التغلب عليه، واننا نملك طاقات معنوية بغير حدود ، من شانها اذا شحذت ان تكتسح التعود وتجتثه من جذوره ، ثم تقوم داخل عقولنا بالتعبئة العامة ، طبقا لوهمنا الرائع، فقد نستطيع تعطيل بعض نواميس الطبيعة ولو الى حين ، فنكون كبعض ممارسي رياضة اليوجا ، حين يوقفون ضربات قلوبهم ، أو ينزلون الى عمق بئر ، فيمكثون تحت ضغط الماء ساعتين او ثلاث ساعات، سلاحهم قوة الارادة ، واستجماع الطاقة الروحية ، وتوهم ان المستحيل قد يتحول الى ممكن ... وفعلا ، فان الوهم كثيرا ما يصنع المعجزات ، اوهم الغبي انه لامع الذكاء ، تجده يفكر على نحو مختلف ، واوهم الدميمة انها جميلة ، تجدها تتصرف تصرف الجميلات ، واوهم المتادب انه اديب نابغ ، تلقه يتفجر قريحة وقابلية للكتابة ، وربما صنع منه الوهم كاتبا مبدعا في مستقبل الايام ... واذن لا بأس ان نتوهم اننا قادرون على تعطيل التعود حين نشاء تعطيله لحاجة في عقولنا وانفسنا ، ولنركب وهمنا الى بعيد ، الى حيث أرض المغامرات والمفاجآت ، مجترئين على النظام الفكري المعتاد ، ننقض بناءه ، وعلى الاشياء كما هي مرتبة في ادمغتنا نقلبها راسا على عقب ، ثم نشرع في ترتيبها على النحو الذي نفضل . واذا قيل لنا ان للفكر قوانينه في العمل ، فكيف يمكن تجاوزها ، ومنها قانون التعود ، نجيب بانه اذا كان من طبيعة الفكر ان يتعود ، فان من طبيعته ايضا ان يخالف ما اعتاده أحيانا ، والا فكيف نفسر ظهور الافكار الغريبة الخارقة للعادة ؟ اكان من الممكن ظهورها

لو ان العادة الفكرية ضربة لازب ، وقضيـــة مفروغ منها ! ها نحن نرى ان الوهم قد قادنا الى الحقيقة ، وهي مما لا يمكن الوصول اليه بدون وهم كبير ، او عقل جبار متقلب كالبحر ساعة هبوب العاصفة . واذا كانت العقول الجبارة من خصائص الممتازيـــن مـــن البشر ، فان الوهم حيلة المتواضعيـــن وأوســـاط الناس ، فبه قد نقفز الى قمم لم تكن تخطر لنا على بال ، بيد اننا لا نستطيع الاحتفاظ بتوازننا ونحـــن نعتليها ، وكاننا راكبون فرسا جموحا والحـــال ان الفروسية ليست من مؤهلاتنا ، بينما صاحب العقل الجبار يقف على القمة ثابت القـــدم ، يحـــدق فى الشمس بعينين لا تختلجان ... واذا نظر الى تحت لا يشعر بالدوار .. وبالخشية من ان يلقي بنفســه الى المهوى السحيـــق ..

هل يمكن اضعاف التعود عن طريق السير فى الاتجاه المضاد ؟ اي بالابتداء بما اعتدنا الانتهاء اليه ، والانتهاء الى ما اعتدنا الابتداء به ، وبوضع الاسباب موضع النتائج ، والنتائج موضع الاسباب ، وترتيب مسائلنا الذهنية افقيا بعد ان كنا نرتبها عموديـــا ، او عموديا بعد ان كنا نرتبها أفقيـــا ، والجمـــع بين الاشياء التي تعودنا تفريقها ، وتفريق الاشياء التـــي تعودنا جمعها ، وما الى ذلك من عكس كل اتجاهاتنا المعتادة ؟ ليس من عاقل يضحي بسلامة منطقه ، من اجل الاغراب ليس غير . وما من داع الى ان نصير بهلوانيين كي ندهش الناس وننتزع اعجابهم . لا بد من سلامة المنطق ، وان كان من غير المفـــروض ان يكون منطق كل واحد منا هو منطق الآخرين . فلكل واحد منا ان يختار منطقه الخاص ، بشرط ان يكون هذا المنطق معقولا ولا يتنافى وطبائـــع الاشيـــاء . وعلى ذلك فليس الخروج على العادة الذهنية خروجا عن المعقولية وبديهيات العقل السليم . القضية لا تتطلب تخريب المنطق ، وتقويض العقل ، والسير على اربع بدل السير على رجلين ، ولا تفرض ان نتقلب الى سحرة او حواة ومشعوذين ، كل ماهنالك اننـــا نردد كثيرا من الافكار بحكم العادة فقط ، ونمارس ضربا من التفكير بحكم العادة فقط ، ونستخدم عددا من القوالب اللغوية بحكم العادة فقط ، ونستحسن اشياء ونستقبح اخرى بحكم العادة فقـــط . فلماذا نترك العادة تتحكم فينا الى هذا الحد ؟ وكيف السبيل الى ان نفكر ونتذوق دون خضوع كامل للعـــادة ؟ وماذا نصنع كي لا تتكون لدينا عادات عقلية وذوقية جديدة نضيفها الى عاداتنا القديمة ، فنصير آليين ، مزودين بجهاز كامل من العادات ، يمنعنا من التجربة، ويحرمنا من معاناة عملية الخلق والابتكار ؟ ولو أن كل واحد منا كان يقوم بعملية تصفية داخل فكره من حين لآخر ، لكنس كثيرا من الافكار التي تزحمه بدافع العادة وحدها ، ولو انه قام بعملية نقد ذاتي لاسلوبه فى الكتابة — متى كان من الكتاب — لوجد كثيرا من العبارات والجمل تتكرر فى كتابته باستمرار ، بحكم العادة اللعينة ، فاقدم على تصفيتها واجلائهـــا فى تجاربه الاسلوبية المقبلة ، اذا لم يكن من سبيل الى التفكير والتذوق بعيدا عن أي تعود ، فلا اقل مـــن ازالة الآثار الذهنية والذوقية الناجمة عن التعـــود ذاته ، وذلك باعادة النظر فيها ومراجعتها وفحـــص الاسس التي تنبني عليها ، حتى اذا ثبت انها محض اعتياد ، لا يستند الى أي مبرر ، نبذناها واخلينـــا عقولنا وكتابتنا منها . ولا بأس فى ان يتوقف الكاتب عن الكتابة زمنا ، يتمكن خلاله من البحث عن منطلقات فكرية جديدة ، وعن أسلوب يتلاءم وهذه المنطلقات ، وقد تكون الفترة الزمنية التي انقطع فيها عن الانتاج الفكري كافية لتخدير عاداته الذهنية ، واضعاف ما لها من سطوة وهيمنة ، فيتهيأ له ان يلغي ما ترتب عنها من آثار ، حين عودته الى الكتابة وفق منطلقاته الجديـــدة .

والتعود هنا نوعان : تعود فى الفكر القومي . وتعود فى الفكر الفردي . يتولد منهما فكر مركب ، ياخذ بعض مقوماته من هذا وبعضها من ذاك ويمزج بينهما ويؤلف . فكل فكر قومي يحمل كثيرا مـــن العادات والتقاليد الناتجة عن طبيعة عقليـــة الامـــة وتجاربها فى الحياة والبيئة التي تقلبت فيها ، وكذا ما انحدر اليها من تراث ، وما أثر فيها من عوامـــل الوراثة . فهذه امة تميل عقليتها الى النظرة الشعرية او الصوفية كأمم الهند والصين القديمة ، وتلـــك امة تميل عقليتها الى النظرة العلمية الواقعية ، كالامم الاوربية الحديثة (1) ، وهاتيك شعوب الشرق الادنى تميل عقليتها الى النظرة الدينية ، وكل امة تاخـــذ

(1) هذا التقسيم ليس علميا . وهو محض افتراض وتصور . ولذلك لا ينبغي أن نسلم بـــه كأمر مفروغ منـــه . (دعـــوة الحـــق) .

بحظ ولو ضئيل ، تضيفه الى خاصيتها ، مما عند الامم الاخرى . فالعقل الشاعري او الصوفي او الديني لا يخلو من الانطباع العلمي ، والعقل العلمي لا يخلو من بعض الانطباعات الاخرى وهكذا . وعقلية الامة بكل ما تتصف به من عادات لا بد ان تحدث آثارا فيما يصدر عنها من ادب او علم . ولذلك كان لكل ادب تقاليده الخاصة . فأدب موجز ، وادب طويل النفس ، وادب بسيط ، وادب معقد ، وأدب تغلب عليه النزعة الروحية الى آخره . هذه عادات تخص الفكر القومي ، وهي بالطبع لا بد ان تتكيف حسب العصور ، وانتقال الامة من ظروف حضارية الى ظروف حضارية مختلفة ، الا انها رغم تطورها لا تفرط في الاساس . والى جانب هذا الضرب من العادات ، توجد العادات الذهنية والذوقية الخاصة بالاديب او المفكر الفرد ، احتشدت لديه بدافع من تربيته العقلية والوجدانية ، ومن مزاجه الخاص ، ومن حالته الصحية العامة ، ومن طبيعة تجاربه مع العلم والفن والادب ، وهو يأخذ تقاليد فكره القومي ، ويمزجها مع تقاليد فكره الفردي ، فينتج عن ذلك تقاليد فكرية مركبة . اضف الى هذين النوعين من التقاليد نوعا ثالثا ، هي تقاليد الفن الادبي الذي يزاوله متى كان اديبا . فللقصة تقاليدها ، وللشعر تقاليده ، وقل نفس الشيء بالنسبة للمسرحية والمقالة وغيرها . هذا علاوة على تقاليد اللغة المستخدمة في حد ذاتها . فكل لغة لها مجموعة تقاليد موروثة في الصيغ والنبر والايقاع والدلالة وما الى ذلك ، ومفروض في الذي يستخدمها ان يخضع قليلا او كثيرا لتقاليدها ، حسب مستوى كفاءته الشخصية . وهذه الانواع الاربعة من العادات تتحالف ضد المفكر او الاديب العاشق للخلق والابداع ، وهي تكون تحديا بالغ الخطورة ، وتفرض فيمن يتصدى لها ان يقوم بجهد عنيف ، كي يعمل بأقل قدر من العادات ، وبادنى ما يمكن من الاراء والاذواق والاوصاف والتشبيهات الجاهزة ، الموضوعة تحت الطلب ، ورهن الاشارة ، بل والتي تفرض نفسها على كل من فكر او تذوق لنفسه او للناس ، شاء ذلك او لم يشأ . انا أعلم جيدا أن لكل عقلية شخصيتها ، ولكل ادب معاييره ، وان هذه الامور تراث ضخم تتوارثه الاجيال جيلا بعد جيل ، لانه حصيلة امة بكاملها ، تحصلت لديها خلال عصور طويلة ، كما اعلم جيدا ان في تلك الامور ثراء فكريا وذوقيا ووجدانيا يجب الانتفاع به واستثماره واستيحاؤه ، فهو معوان على شحذ القرائح والهام الملكات ، انا أعلم كل ذلك ، ولست أنكره او أدعو الى نبذه والانصراف عنه ، بيد اني ارى من حق الاديب او رجل الفكر ان يكون له صوت بين هذا الحشد الكبير من العادات ، وان يزحزح أكداس التقاليد الجاثمة فوق قلمه ولسانه ، كي يتنفس بحرية ، أو بعبارة أصح ، من حقه ان يتعامل معها — اي تقاليد الفكر وعاداته — بالطريقة التي يفضل . فاذا لم يكن في المستطاع الغاؤها لانها ارث ثمين ، فلا اقل من ان تنزع منها صفة التحكم ، وان تقبل نوعا من التعامل القائم على حسن التفاهم . فاذا نجح مفكر او اديب في الوصول الى هذه النتيجة في مواجهته لعادات الفكر ، اي انتفاء التحكم ، والجنوح الى حسن التفاهم ، بحيث يكون من حق كل طرف ان يحتفظ برأيه وذوقه ورؤيته الخاصة ، فلا مطمع له في اكثر من هذا . وليعلم انه وصل الى كثير مما كان يريد ، باقل قدر من التنازلات .

أيكون الجنوح نحو العمل الذهني بعيدا عن ضغوط العادات الفكرية مما يتعارض مع قيام مذاهب الفكر وفلسفاته ؟ الا نجد المتمذهبين من رجال الفكر والادب يطوفون حول أفكار بعينها ، يديرون عليها الوانا من النشاط العلمي والادبي ، ويبدئون فيها ويعيدون ، وربما استغرق ذلك كل أعمالهم ؟ الا تتمخض عملية التكرار والبدء والاعادة عن ظهور عادات ذهنية ووجدانية تلازم صاحب المذهب او الفلسفة ، فلا يستطيع العمل الا من خلالها ؟ ان قيام مذهب او فلسفة شيء ، وظهور عادات عقلية الى جانبه شيء آخر . فالمفكر اذ يختار فلسفة ما ليتخذها محور كل افكاره ونظرياته ، يكون قد فعل ذلك عن درس وخبرة وحرية اختيار ، وحتى عندما تكون هذه الفلسفة منقولة عن مفكر آخر ، فلا بد ان يكون قد رآها من زاوية ثانية ، اهتدى اليها بعد دراسة وبحث . اما العادات العقلية المصاحبة لطواف العقل باستمرار حول فلسفة واحدة ، فيجب على رجل الفكر الا يدعها تمتد وتتضخم الى حد ان تتحول الى جهاز ذهني يعمل بطريقة شبه مستقلة ، فانها ان بلغت هذا الحد ، تجعل نصف فكره مشلولا ، عاجزا عن العمل ، كما انها قد تحجب عن ذهنه الرؤية الواضحة الموضوعية للاشياء ، وتحول بين افكاره وبين النمو والتطور ، فيبقى دائرا في حلقة مفرغة ، وتتسم كتاباته بالاجترار . بالتخفف من العادات الذهنية يمكن للفلسفة أن توسع من الحيز الذي

تتحرك فيه ، وأن تبحث لها دائما عن منطلقات وميادين جديدة ، وان تكتشف نفسها مرة بعد مرة . أما اذا احتفظت العادات الذهنية بكل ثقلها وهيمنت على رجل الفكر ، فانه يكون تحت تأثيرها كالمنوم مغناطيسيا ، ينفذ كل ما يوحى به اليه ، بدون وعي ولا ارادة .

العادات الذهنية تكون مرتاحة وفي احسن حالاتها عند ما يعمل العقل بيقظة غير كاملة . عندما يلذه ان يسترخي ويتمطى ويتثاءب ، بعد تعبه الشاق وعنائه القاسي ، بحيث ياخذ القضايا ماخذا سهلا ، ويقبل التنازل عن بعضها ، والقناعة بانصاف الحلول بالنسبة الى البعض الآخر ، في مقابل ان ياخذ نصيبا من الراحة . ولكن ما ان يسترد يقظته الكاملة ، حتى يجد العادات الذهنية الجاهزة قد استغلت فرصة سنته الخفيفة ، فسرقت قلمه أو على الاصح اختلسته ، ومضت تملي عليه ، وهو يكتب ويكتب ، الى ان ملأ صفحات بكاملها ، ينكر صاحبها أكثر ما جاء فيها بعد استعادة يقظته العقلية الكاملة . ولماذا يحتفظ العقل بيقظته الكاملة دائما ؟ لماذا كانت فيه نقطة الضعف هذه ؟ لان العقل يتعب من التركيز الدائم ، ولانه احيانا ينفعل بالعقل الباطن ، ولانه يعمل عن طريق الحدس ، ولان اليقظة الكاملة الدائمة تخل بالتوازن بينه وبين الطاقات النفسية الاخرى ، من عاطفة وخيال ووجدان ، ولان طبيعة القضايا التي يعالجها قد تتطلب نصف يقظة فقط ، حتى يفسح المجال للوجدان ان يتدخل ، ليجد له مكانا الى جانب العقل . وبما أن العادات الذهنية لا تمارس نشاطها بكفاءة الا في حالة تقلص العقل ، أو قناعته بيقظة غير كاملة ، فان العلماء هم اقدر من غيرهم على عدم الانخداع باغراء العادة ، بحكم انهم يعملون بعقولهم اكثر مما يعملون بوجدانهم ، فحظهم الكبير من العقل يجعلهم غالبا بنجوة من الخضوع للعادة الذهنية . بينما الادباء والشعراء والفنانون من السهل ان يقعوا في قبضة عاداتهم الذهنية والذوقية لان حظوظهم من الخيال والذوق والعاطفة والوجدان تفوق حظهم من العقل . وهذا هو السر في ان الشكليات والقوالب اللغوية الشائعة بين الادباء كانت من الاسباب الداعية الى علمنة الادب ، اي دراسته بطرق علمية ، حتى لا يكون فيه مجال لترديد المحفوظات ، وتكون الفاظه على قدر معانيه ، بل يكون المعنى هو الاساس ، واللفظ تابعا له . فمتى كان الاسلوب في الادب يقصد لذاته ، توفر له من الايقاع والمحاسن الجمالية ما يدعو الى الترنم به وترجيعه بين حين وآخر ، مع ما يلزم عن ذلك من انطباع آثاره في الذوق والذهن ، وهي تجعل كل ما يصدر عنهما مطبوعا بطابعها . اضف الى ذلك ان الادب الخالص انتماء الى الذات ، بكل عاداتها وخصائصها الثابتة والمتغيرة ، كما انه محاباة لهذه الذات ومجاملة لها وتقبل لحسناتها وسيئاتها . اما العلم الخالص فلا ينتمي ولا يجامل ، هو حيادي وصعب المراس ، يريد دائما ان يفهم ، وان يقتنع ، لا يسلم بصحة الشيء لان العادة جرت بانه صحيح ، وانما يسلم بصحته اذا وضعه موضع التجربة وخرج منها ناجحا ، أو عرضه على القوانين فقبلته القوانين . الادب يزعم ويدعي ، والعلم يحقق ويدقق ويعمل في وضوح كامل .

فاس : عبد العلي الوزاني



"أديب"

بين فنية القصّة والترجمة الذاتية

تأليف : الدكتور طه حسين
عرض وتقديم : الأستاذ محمد محمد الخطابي

(3)

● ليس من اليسير والسهولة التعرف على مدى اصالة بعض الاعمال الفنية ما لم نبذل فيها من الجهد والعناء الشيء الكثير ، فكثير من النقاد يغريهم البناء على سبيل المثال فى هذا العمل دون المضمون او العكس .. والبعض الآخر يسحره الصراع أو ينصاع وراء التشويق ، أو ينفعل بحدث معين ؛ والحقيقة انهم ليسوا جميعا فى مأمن من الخطأ ، ذلك ان قيمة الفن الحقيقية لا تكمن فى جانب دون آخر وانما هي كامنة فى الواقع بين تفاعل واجتماع هذه العناصر برمتها فى تشابكها وتداخلها ، وكذا فى علاقة بعضها ببعض ، وهي تبرز كذلك فى مدى الاثر الذي تتركه فى نفس القارىء او المتلقي . ليس فى مكان بعينه بل فى الاثر العام للعمل الادبي أو الفني، فماذا اذن نحن واجدون فى هذا العمل ـ الذي بين ايدينا ـ من هذا القبيل ؟

بديهي انه ليس فى امكان الجميع استكناه المعنى الكامن فى هذا العمل او ذاك ، فقد يختلف القراء فى الحكم على عمل ولكن قيمته الحقيقية لا تمس بأذى ، وكم من آدب نال من الطعن والقدح الشيء الكثير ولكنه تبين مع ذلك انه ادب قيم وجيد وباق ، لذا فلا ينبغي الاسراع فى الحكم على عمل ما لم نتفحصه جيدا ونبذل فيه من الجهد والكد ما هو قمين به ، بعد ذلك يجوز لنا التساؤل على هذا المنوال : اين تكمن قيمة « اديب » من حيث البناء الفني ؟

ان الدكتور طه حسين ليس مهندسا بارعا او هو كذلك ! ولكنه لا يريد أن يبني أو يخطط انه لا يعبأ بالوشي والتنميق للوجه الخارجي للعمل بقدر ما يهمه ما بداخله من كنوز حتى اذا خالفه الكثير فى هذا الصنيع ، انه لم يقدم قصته أو تجربته مع « أديب » هذا فى عمل روائي متسلسل محكم البناء له بدء ووسط ونهاية وانما قدمه لنا بوسيلة اقل تعقيدا فعمد الى الاسترسال فى الكتابة على سجيته دون قيد من أي نوع ، ان صدق هذا الادعاء جاء تلبية لرغبة فى النفس الفارقة فى نشوة

● نشر القسمان الاول والثاني من هذا البحث فى العددين : الثالث (السنة 16 ، ديسمبر 1973) والسادس (السنة 16 ، ماي 1974) .

الفكر والذكرى أثناء كتابته هذا العمل أو املائه . . .
لقد جعل طه حسين من « الوسط » بدءا كما أسلفت القول ، وضربت لذلك مثلا ، في القسمين السابقين من هذه الدراسة ، ولكن هذا لا يهمه في شيء بقدر ما يهمه الاخبار أو الاسترسال في سرد هذه الاخبار عن صديقه الاديب وعن مغامراته الطريفة في مصر وفرنسا .

ويمكننا ان نضرب مثلا لهذه السرعة والاسترسال بالفصل المتعلق بالخطر الذي كان يهدد باريس بالحرب ومن ثم الدمار من طرف النازيين . لقد كان صراعه وصموده ودفاعه ووقوفه مع باريس ــ بعد ان فر عنها ذووها كلهم ــ كان موقفا رائعا فعلا ؛ وهو يدل الدلالة القاطعة على تقديس الكاتب للحضارة الانسانية من كل نوع وفي كل مكان ، هذا الموقف الذي وقفه صاحبنا من الخطر الذي يراه مقبلا امامه والذي لم يحفل به ، هذا الموقف انما يعبر عن شعوره بالقيمة التي تكمن في ما خشي عليه في باريس ، لم يكن خوفه هذا سوى دعوة للحفاظ على التراث الانساني الخالد من الضياع والتدمير ، وصيحة لصون الحضارة الانسانية التي تتحقق عنها اجمل معاني المحبة والاخاء والسلام ، وما تحطيمها سوى تحطيم للانسان نفسه . هذا الموقف العظيم كان في امكان صاحبنا « الاديب » ان يعبر عنه بطريقة اكثر عمقا لانه في الحقيقة موقف يتضمن صراعا ذا قيمة حقيقية بين النوازع الفردية الهوجاء والمثل العليا . ثم أن هناك شيئا ــ لا ينبغي نسيانه ــ من الناحية الفنية (البناء) ــ وهو لما بدأ صاحبنا يشعر أن الجنون في الطريق اليه وهو في باريس ، نعلم ان الاسباب التي دفعت به الى هذا الجنون أسباب متعددة منها سفره ، وتناقضاته النفسية ، وشعوره الباطني بما لا يستطيع الافصاح عنه ، وعنصر المباغتة ــ الذي عمل فعلته فيه ــ لما وجده في البيئة الجديدة من فرص لا حصر لها للهو والعبث والمجون بعد حياة راكدة خاملة وأخيرا (الين) ؛ ولكن صاحبنا ــ باعتراف منه ــ لا يلوم سوى الين التي كانت في نظره سبب هذا الجنون . . والين وحدها : « وداعا يا سيدتي اني لارى شبح الجنون يفيضا مزعجا ، ولكني مع ذلك لا اهابه ولا اتأخر عنه ، وانما اقدم عليه اقدام المحتسب الجريء وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه صورة الين ! » (1) .

اذن انما أصاب صاحبنا الجنون نتيجة هيامه وحبه لالين وهذا أمر لا غبار عليه ، ولكن فلنرجع قليلا مع الصفحات ، ولنراجع فصلا سابقا لنرى ما يناقض هذه الفكرة مناقضة صريحة .. « فاذا رفعت الحرب أوزارها وتبين للحلفاء انهم قد ظلموني حين أساءوا الظن بي وسمعوا في وشاية الوشاة ، فمن يدري ! لعلي أعود الى فرنسا فأتم درسي في السربون واقترن الى هذه الفتاة التي احبها حبا لا حد له ، والتي قد رضيني أبوها لها زوجا والتي كدت أسعد بزواجها لولا الين ولولا وشاية هذا الصديق الخائن ، صدقني ان من ضعف الراي وفساد العقل أن تطمئن الى هؤلاء الذين يسمون انفسهم أصدقاء » (2) .

فعلى الرغم من هذه الفتاة التي يرى فيها صورة الجنون لفرط حبه لها وتعلقه بها والتي اعني بها الين .. يتقدم صاحبنا دون توضيح اسباب او ذكر مبررات ، يتقدم الى والد فتاة اخرى صغيرة السن ليقترن بها لولا وشاية الوشاة الى الين التي افسدت عليه كل شيء « واقترن بهذه الفتاة التي أحبها حبا لا حد له .. » هذه الفتاة اكرر مرة أخرى انها لم تكن الين وانما الفتاة الثانية ، ولا شك ان التناقض واضح في القولين لا يحتاج الى تبيان .. ولكن لا حرج في ذلك ان كان حقا قد أصاب صاحبنا الجنون .. !

ولكن بقيت كلمة حول الناحية الفنية ، فالحق ان طه حسين ليس بارعا في هذا المضمار ولقد اوضحت من قبل اسباب ذلك وقلت ان دراساته النقدية والتحليلية تسمو كثيرا فوق هذه القصة او غيرها من اعماله القصصية الاخرى باستثناء « الايام » لعوامل متعددة منها كما تقدم ــ ان طه حسين لا يهمه البناء بقدر ما يهمه الاخبار ــ ان صح هذا التعبير . وهو لا يعنيه ارضي قارؤه أم لم يرض ! والبناء الفني عنده او التكنيك ليس امرا

---

(1) « أديب » ص 171 .
(2) « أديب » ص 182 .

ذا اهمية كما هو ملموس فى مختلف اعماله القصصية وفى هذه الحال لا مجال للمقارنة بين هذا البناء لدى طه حسين وبين غيره من كتابنا الذين برعوا فى هذا الفن وعرفوا به ــ اعني به الفن الروائـــي ، أمثـــال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ على سبيل المثـــال وليس الحصر . ولكن ــ والحق يقال ــ على الرغم من هذا التكنيك الضعيف والبناء المخلخل فان اي سطر يكتبه طه حسين لهو جدير بالقراءة والاهتمام لانه ابدا حافل بالمتعة ، زاخر بالعلم والحكم والطلاوة والسحـــر .

وجدير بنا ان نلقي نظرة عجلـــى على بعـــض النواحي التاريخية والاجتماعية والبيئية فى هـــذا العمل وغيرها من الجوانب التي اغفلت من طـــرف الكثيرين رغم تعرضهم لهذا المؤلـــف من مؤلفـــات طـــه حسين .

ان « اديب » ان هو فى الواقع سوى امتداد « للايام » ان طه حسين يقص علينا هنا شطرا مـــن حياته عاشه بعد أن انتقل الى القاهرة ثم باريس بعد ان غادر القرية التي نشأ وترعرع فيها . انه فى الجزء الاول من « الايام » ــ كما يقول مترجمه الى اللغـــة الفرنسية GASTON WIET يحكي لنا اعوامـــه الاولى من طفولته ، حتى الثالثة عشرة من عمره ، انها قصة هادئة وبسيطة ولكنها مؤثرة غاية التأثير ، انها محاولة لاكتشاف العالم الخارجي الذي كـــان يعيش فى كنفه الطفل طه حسين » ... (3) .

واما فى الجزء الثاني من الايام نفسها فاننـــا نجد ــ كما يقول المترجم ذاته ــ « .. الابن الصغير، الابن الضحية الذي لم يجد كبير عناية ممن يعيشون حوله ، والذي فقد النظر منذ اعوامه الاولى ، هذه المواقف المؤثرة تفجر فينا شحنة من الانفعـــال لا يقف عند حد » (4) .

واذا كان هذا هو حال طه حسين فى كتابـــه « الايام » فى جزئيه الاول والثاني فان « اديـــب » لا يسمو الى مرتبة الايام من نواح متعددة ذكـــرت بعضها فى القسم الاول من هذا البحث .

اننا نجد طه حسين يصل الى القاهرة ويختلف الى الازهر الشريف ويطلعنا عما كان يدور فيه من شؤون، ويحكي لنا كيف تركه غاضبا غير راض عليه ، وينتقل بعد ذلك الى الجامعة العصرية بصحبة صاحبـــه « الاديب » ؟ فيصف لنا الحياة فى هذه الجامعـــة التي كانت حديثة العهد ويصور لنا تلك الحقبـــة التريخية أصدق تصوير فصاحبه (طه حسين نفسه) يريد السفر الى فرنسا ضمن بعثة دراسية على نفقة الجامعة وهو متزوج والجامعة لا تسمح للمتزوجين بالسفر الى الخارج ، عليه اذن ان يطلق زوجته(؟) وقد فعل ذلك (5) انه ليس من ارباب المال والجاه وليس له صديق يتوسط له فى الجامعة حتى يسهل عليه امر السفر فى البعثة ، هذه المحسوبية والوساطة التي كانت سائدة فى ذلك العهد جاءت فى هـــذا الكتاب لتعطينا الصورة الحقيقية للعلاقات المتناقضة التي كانت تمثل المظهر السائد فى تلك الفترة مـــن حياة طـــه حسين .

اضف الى ذلك وصفـــه للازهـــر الشريـــف والازهريين التي استطاع طه حسين بجراة وحـــزم ان يعلن ثورته عليهم ... « اذن فاي فـــرق بينـــي وبين هذا الشيخ العتيق الذي كان يعرض بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيتغنى فى بعض دروسه بهذه الجملة التي شاعت والتي كنا نتندر بها ونضحك

---

3 . L'Introduction . Le livre des Jours traduit par Gastonwiet

(4) نـــفس المصـــدر السابـــق .

(5) سبق أن شرحت فى القسم الثاني من هذه الدراسة ، العدد السادس ، السنة السادسة عشرة ، (دعوة الحق) ، كيف انه لم يثبت تاريخيا ان طه حسين كان متزوجا فى هذه الحقبة والامر لا يعدو ان يكون رمزا عميقا استعمله طه حسين بنجاح ، فهو فى تطليقه لزوجته كانه يطلق حياة الشظف والجهل التي كان يعيشها من قبل .

منها ، وكنت انا اشد الناس تندرا بها » «ومن ذهب الى فرنسا فهو كافر أو على الاقل زنديق » (6) .

« كذلك قال الشيخ وبذلك كنا نتندر في الازهر، ومن ذلك كنا نضحك في أنديتنا الحرة التي كان الازهريون يرونها أندية ابتداع وضلال فقد اصبحت اناكهذا الشيخ ارى من ذهب الى فرنسا فهو كافر أو على الاقل زنديق » ؟.

يضاف الى هذه السخرية التي تصور مقدار ما وصل اليه بعض الازهريين من التزمت والانغلاق ، الوصف الشيق الذي عقده الكاتب حينما كان في باريس عن اخطار الحرب والهلع الذي سببه النازيون في اوربا ، وخوف الكاتب على باريس من الدمار والقضاء على أروع ما انتجته العبقرية الانسانية من بدائع الفنون وروائع الادب فقد وصف المؤلف تلك الفترة وصفا صادقا ودقيقا .

ان كتاب أديب لا يصور حياة أفراد بعينهم بقدر ما يلقي الضوء على حياة فرد واحد الا وهو اديب لذا فقد خلا الكتاب من قيم ذات بال تتعلق بالنواحي الاجتماعية الا القليل مما صوره لنا المؤلف من حياة الطلبة الازهريين وما يعيشون عليه من شظف في العيش ، كما نقل في الكتاب بعض مظاهر الحياة العامة في مصر بالقياس الى الحياة المتحررة في فرنسا فقدم لنا بيئتين مختلفتين الاولى في مصر والثانية في فرنسا .

واذا لم يصل طه حسين في هذا الكتاب المستوى الفني الذي بلغه في بعض كتبه الاخرى فاننا واجدون فيه مقابل ذلك كثيرا من الجوانب المشرقة منها الاسلوب واعني به الاسلوب الذي عرف به طه حسين انك لتشعر بحق وانت تقرا الكتاب انك أمام كاتب ليس كباقي الكتاب لان المؤلف بقدرته البيانية الهائلة المتسمة بالسهولة واليسر والوضوح يعطي لهذا الكتاب قيمة أدبية هامة انك لا تجد نفسك أمام تعقيدات في اللفظ أو اخلال بالمعنى بل امام أسلوب هادىء وعبارات رشيقة ، أمام سهولة لا تسف ، وعمق لا يجازي ، ولقد سبق لكثير ممن درسوا طه حسين وتتبعوا أعماله ان لاحظوا هذه الظاهرة في ادبه وكتاباته ، ليس فقط في أعماله القصصية وحسب بل حتى في أعماله النقدية والتحليلية كذلك التي اخرجها منذ بداية عنايته بشؤون الادب والنقد وبالاصلاح .

وينبغي أن نقف قليلا عند هذه الظاهرة لنشير الى أن هذه البساطة في التعبير لا تتأتى عفوا وانما تاتي بعد طول عناء ومران . ويعد بعض النقاد مثل هذه الظاهرة معجزة ادبية وما اختلاف أساليب كبار الكتاب في مختلف العصور وتفرد بعضهم باسلوب مميز الا الدليل القاطع على صدق هذه الملاحظة . كما أن البعض يرى أن الكاتب لا يعد كاتبا حقا ما لم يات باسلوب جديد يميزه عن غيره . والدكتور طه حسين واحد ممن كان لهم أسلوب مميز قائم الذات.

وتاثير طه حسين في هذا الكتاب بما درسه من علم أو معرفة واضح ، فهو تارة ينقلنا معه في رحلة شيقة عبر الادب العربي وطورا ينهل من معين الآداب اليونانية ومرة ثالثة يستشهد بالآداب الغربية وهكذا.

ويمكننا أن نضرب لذلك امثلة سريعة بما يلي : يقول في حوار له مع صاحبه بعد طول نقاش : « انني من انصار الحسن الطبيعي الذي لا يجتلب ولا يشترى ، وانما تخلعه الطبيعة وتفيضه على الوجوه والنفوس ، هذا الحسن الذي تحدث عنه المتنبي اتذكر بيته ؟ انه مشهور :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب (7)

وهكذا نلتقي بين صفحة واخرى ببيت أو ببيتين مشهورين أو حكاية عربية طريفة أو نظرة نقدية رائعة ... الخ .

« وحدثني أفهمت شيئا من حنين القدماء على وجهه حين قرات ما قرات من شعر امرىء القيس ، وغير امرىء القيس من هؤلاء الذين كانوا يحسنون الذكرى ويجيدون تصوير الوفاء . انما هي عندك الفاظ : تقع في اذنيك كما يقع غيرها من الفاظ تفهم الظاهر من معانيها فان اعجزك الفهم سألت كتابا من كتب اللغة فلا ينبئك الا بظاهر معانيها لا تكاد هذه الالفاظ تتجاوز اذنيك الى عقلك فضلا عن تجاوزها

---

(6) « أديب » ص 85 .
(7) « أديب » ص 35 .

الى قلبك والى ضميرك فتثير فيهما عاطفة أو هوى او ميلا ، وتدعوك الى ان تقدر الحياة كما ينبغي ان تقدر الحياة ، صدقني انكم لا تدرسون الشعر ولا تدرسون الادب ، وانما تدرسون الفاظا ومعاني وصورا ليست من الادب ولا من الشعر في شيء) (8) .

هذه بعض الامثلة التي تضمنها الكتاب والتي يعيب فيها طه حسين على بعض الدارسين الذين يكتفون بالمعنى الظاهر في الادب أو الشعر دون الغوص وراء المعاني أو الرموز التي قد يحفل بها عمل ادبي معين أو قصائد شعرية معينة .

ويظهر تأثيره بالادب اليوناني بشكل واضح في هذا الكتاب عند وصفه للنهر : « وانها لجميلة حين تتقدم في رشاقة وخفة بما تحمل من زهر وتمر وورق نضر واغصان لدنة الى القناة ، كأنها تريد ان تهدي هذا كله الى هذا الماء حين يجري فيها قويا هادئا موفور النشاط مع ذلك كأنه اله شاب من آلهة الاساطير » .

هذا التشبيه يكاد لا يوجد له نظير في العربية « كأنه اله من آلهة الاساطير » بقدر ما هو موجود من الآداب اليونانية ، ولقد اتيت بهذا عن سبيل المثال – لا الحصر – لان هناك امثلة أخرى متعددة من هذا القبيل . واما تأثير المؤلف بالثقافة الفرنسية فأمر لا يحتاج الى دليل لانه بين ايضا في العديد من صفحات هذا الكتاب أو سواه مما الف الدكتور طه حسين نخص منها بالذكر ما جمعه في كتاب له بعنوان : صوت باريس .

يقول في صفحة 166 من الكتاب الذي نحن بصدده « لقد صدق موسيه حين شبه قلب الرجل النقي بالاناء العميق ، اذا استقر الدنس في قاعة فليس الى تطهيره سبيل ولو مر به ماء البحر كله .. » (10) .

واذا كان لا بد ان نمثل لاسلوب طه حسين في هذا الكتاب فيكفي ان نقرا الفقرة التالية :

« لا أطيل عليك فأمي ثائرة اذا اصبحت ، ثائرة اذا اضحت ثائرة اذا اقبل المساء ، ثائرة اذا جنها الليل ، ثائرة اذا امتلأ البيت حزنا وسخطا وبكاء ، واما ابي فمتنكر متنمر ، ينذر فيلح في النذير ، ويتلطف فيلح في التلطيف » (11) والتكرار في العبارة السابقة مستحب وليس ثقيلا كما قد يتوهم البعض لان الثورة أو الغضب او السخط كل ذلك يتناسب الى حد بعيد مع أسلوب التكرار الذي اعتمده طه حسين. تأمل معي هذه التعابير الجميلة : « ها انت ذا أشبه شيء بالجواد الجموح الذي يعض شكيمته ويضرب الارض بسنابكه ويكاد يخرج من جلده مرحا وشوقا الى العدو » (12) .

وهناك أوصاف وتعابير اخرى في الكتاب قد يعجز عن تصويرها المبصرون .

غير اننا مع ذلك نواجدون في هذا الكتاب بعض الصور المكرورة والاستطرادات المملة ولنضرب لذلك مثلا سريعا . يقول المؤلف في صفحة 19 من الكتاب :

« ولم اكد أسمع هذه الجملة حتى انحنيت الى حذائي اريد خلعه حقا واي غرابة في ذلك ؟ فقد تعودت خلع الحذاء مرات في كل يوم حين كنت اختلف الى الدروس في الازهر أو في جامع محمد بك او في جامع العدوى ، او في جامع الاشرف، هناك حيث كنت استمع لدروس الاصول والفقه والنحو والمنطق والتوحيد ، وتعودت خلع الحذاء حيث كنت ازور بعض الدور ولا سيما دور شيوخنا من العلماء وسيما هذا الشيخ الذي كان الخديوي قد نفاه الى الازهر نفيا وحظر عليه التعليم فيه » ... (13)

وهكذا يمضي في الحديث عن هذا الشيخ والدرب الاحمر وعن احذية الشيوخ والافندية وسواهم ثم يعود الى قوله الاول ، ساعة ان طلب منه صاحبه « ان اخلع نعليك » فيقول « فلا اجد اذن غرابة في ان يطلب الى صاحبي أن اخلع نعلي حين بلغنا غرفته هذه » ؟ .

---

(8) « اديب » ص 35 .
(9) « اديب » ص 28 .
(10) « اديب » ص 28 .
(11) « اديب » ص 30 .
(12) « اديب » ص 24 – 25 .
(13) « اديب » ص 19 .

ويتجلى لنا كذلك هذا الاستطراد عند حديثه عن ذكريات الشيخين والنخلتين والقناة فى الريف ... الخ . بالاضافة الى استطرادات أخرى ، غير اننا اذا وضعنا فى الاعتبار مدى ما كان يجده طه حسين من متعة عند حديثه عن هذه الذكريات قبلنا منه هـــذا الاسلوب بل وربما غدا جميلا فى اعيننا !

وكما ترجم الجزء الاول من الايام الى الفرنسية سنة 1934 على يد المستشرق الفرنسي Jeanle cerf وكذلك الجزء الثاني منه على يـــد المستشـــرق Gaston Wiet فقد ترجم ايضا كتابه اديـــب عام 1960 والذي قام بترجمته الى الفرنسية همـــا ابنا طه حسين أمينة ومؤنس طه حسين (14) .

وقد جاءت ترجمتهما لهذا الكتاب سهلة مبسطة، غير انهما اسقطا من الترجمة مقدمة الكتاب الاصلي او الاهداء الذي تصدر الكتاب ، وكان حريا بهما ان يثبتاه لانه يلقى كثيرا من الاضواء على الكتاب نفســه ، جاء فى هذه المقدمة مثلا : « كنت أول المعزين لـــه حين اخرجه الجور من الجامعة واول المهنئين لـــه حين رده العدل اليها » .

فطه حسين هنا انما يعزي نفســه بنفسه لانه هو الذي اخرجه الجور من الجامعة ورده العدل اليها .

* * *

لقد أوضحت فى الاقسام الثلاثة من هذا البحث بعض الجوانب التي أهملت من طرف الدارسين لطه حسين، واشرت انه كتاب لا يسمو الى بعض اعمال طه حسين كالايام مثلا ، وأوضحت كذلك ان طه حسين انمـــا يترجم لنفسه فى هذا الكتاب بطريقة غير مباشـــرة لم تتخذ صبغة التراجم الذاتية المعروفـــة وانمـــا توارت وراء قوالب فنية معينة لم يوفق طه حسين فى رسمها . ومهما ذهبت من قول او اثبت من راي ، فلن اعطي هذا الكتاب حقه خصوصا وهو يقترن باهم ما كتبه طه حسين وهو كتابه « الايام » ، ولكن الحق ان « اديب » لا يرقى الى مستوى اعمال اخرى لطـــه حسين تخص منها بالذكر دراساته النقدية والادبية والتاريخية المشهور .

الرباط : محمد محمد الخطابي

---

14 Adib ou l'Aventure Occidentale traduit par AMINA et MOENIS TAHA HUSSIEN Dar el Maârif le Caire



جهود اللغويين المغاربة في البحوث اللغوية

للاستاذ محمد حمزة

انتشرت اللغة العربية انتشارا كبيرا بفضل الفتوحات الاسلامية ، واتسعت رقعة الوطن العربي ، وتكونت له حضارة لغتها عربية ، وادبها عربي ، وثقافتها عربية ، حتى ان ابا تما تمام قال :

بالشام اهلي وبغداد الهوى وانا
بالرقمتين وفي الفسطاط اخواني

وما اظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تبلغني اقصى خراسان

ولقد مكن الله للغة العربية ما لم يمكن لغيرها من اللغات . وصدقها السعي ، وعقد آمالها بالفوز ، فجعل منها لغة الدين ، ومد بحبلها اسباب العلم ، وبسط بعها ذرعة الفكر ووصلته في بقاع شاسعة واسعة من كوكبنا الارضي . وصارت بفضل كتاب الله الذي حمل رسالة الاسلام لغة انسانية ، باقية ما بقي هذا الدين و « ان امما كثيرة تركت لغتها تتطور وتتفرع الى لغات كثيرة دون ان تعنى بضبطها والوقوف في سبيل تطورها ، ولكن علماء الاسلام عنوا بضبط لغتهم من اجل المحافظة على القرءان الكريم ، فنشأت هذه الظاهرة العجيبة ، وهي انه لو قدر ان يحيا اليوم رجل مات منذ الف سنة فسمع المتحدثين بالعربية لما انكرها ولفهمها » (1) .

و « لولا القرءان الكريم لكان من المشكوك فيه كثيرا ان يتوافر العلماء على وضع علم النحو ، وعلوم البلاغة ، واستقصاء المفردات وتحري مصادر الفصيح والدخيل .. ومما لا خلاف فيه ان اللغة العربية نشطت هذا النشاط ، وتقدمت هذا التقدم لانها لغة كتاب مقدس يدين به المسلمون ، وهو القرءان الكريم » (2) . فاللغة العربية تجمع بين رسالة السماء ، ورسالة الارض ، فيها شعر خالد ، وفيها نثر خالد ، وفيها القرءان . فبها يتعبد المسلمون ، وبها يتلون كلام الله الذي أودع من العلوم النافعة ، والبراهين القاطعة ، غاية الحكمة وفصل الخطاب ، وخص باللطائف الخفية والخصائص العلية، والدلائل الجليلة ، والاسرار الربانية ، وجعل في الطبقة الاولى من البيان ، فعجز دونه الثقلان ، واعترف علماء اللسان بما تضمنه من الفصاحة والبراعة والبلاغة ، والاعراب والاغراب ، وكان قولا فصلا ليس بالهزل ، وحكما عدلا ليس بالجائر ، وآية بادية ، ومعجزة باقية .

وقد دخل العرب المغرب وحملوا معهم لغتهم ، فلم تجد حرجا في الانتشار بين سكانه ، لان شقيقتها الفنيقية كانت قد مهدت لها السبيل ، ويسرت لها ما اعضل من المنافذ ، فقد جاء الفنيقيون وارتادوا

---

(1) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ، تأليف عبد العال سالم مكرم ، ص : 345 ، مطابع دار المعارف بمصر 1968 .

(2) المرجع السابق ص : 346 .

الشواطىء الافريقية يؤسسون المصارف التجارية(3) في عدة مراكز ويبادلون البربر سلعهم فيدفعون لهم بضائع كالاقمشة والاسلحة والاواني الخزفية ويقبلون في مقابلها منتجات الارض الافريقية وصناعتها كالصوف والجلد والعاج والانعام والعبيد (4) .

وكانت لغة السكان الافريقيين هي البربرية القديمة المتحدة الاصل ، وان اختلفت لهجاتها بعض الشيء ، حتى جاء الفنيقيون وسرعان ما تعلم البربر لغتهم واستعملوها في معاملاتهم . وعلى الاخص في المدن حيث كانت هي لغة الادارة والتجارة والمعاملات ولا يستغرب انتشار اللغة الفنيقية — والقرطاجنية على الاصح — بسرعة بين البربر (اذا ما اعدنا الى الاذهان ان البربر والقرطاجنيين من ارومة سامية واحدة وان الشبه عظيم بينهما ، لا فيما يتعلق بالبنية والعنصر بل فيما يرجع الى التفكير ايضا) (5) .

وتغيرت لغة الحكومة والمعاملات بعد الاحتلال الروماني ، فاحتلت اللاتينية مكان القرطاجنية ، وتعلمها البربر ايضا ، وبرعوا فيها ، والفوا فيها المؤلفات العديدة (6) . ولعله لا يغيب عن الاذهان ذكر اسم اوغسطينوس احد الكتاب والفلاسفة المشهورين فقد كان فيلسوفا وعالم لاهوت ، حاول التوفيق بين الايمان والعقل ، وبرع منذ نعومة اظفاره في حفظ الاشعار اللاتينية والتعبير عنها بالنثر البليغ . ويروي لنا في كتابه الاول من اعترافاته كيف طغى الاهتمام بالبلاغة وحسن التعبير عنده على كل اهتمام آخر . وتعرض في الكتاب الحادي عشر من اعترافاته ايضا لدراسة مشكلة الزمان وخلق العالم ، وعلاقة الزمان بالنفس الانسانية ، وهو يرى انه لما كان الزمان في جوهره تغيرا وصيرورة ، فان الزمان نفسه لا بد ان يكون مخلوقا . ومعنى هذا ان الزمان لا لا يمكن ان يكون ازليا ما دام مثله كمثل باقي المخلوقات الاخرى . من حيث كونه مبتدئا ، وارادة الله قديمة كائنة قبل كل حدوث . ومفعولها هو المتعلق بالزمان ، وليس بالنسبة لله « قبل » و « بعد » نظرا لان الله هو الذي يحدد الماضي والمستقبل ، دون أن يخرج عن ثبات ازليته .

ولما بعث الله نبيه الكريم كان المغرب ، من المبلاد التي شرفها الله بالاسلام ، وبنوره وبهداه ، وبقرآنه ، وبلغته العربية التي انزل بها ، ووصل العرب الى المغرب والاندلس اللذين ازدهرت فيهما الحضارة العربية الاسلامية ازدهارا كبيرا ، وكان العلم من اقوى دعائمها ، وولي الاندلسيون وجوههم شطر المشرق ينهلون من علمه وثقافته ويتلقون على علمائه ويقتبسون من الائمة ، وظلت الرحلة العلمية بين المشرق والمغرب ناشطة ، وهبت نفحات هذا النشاط على بلاد المغرب ، فظهر فيه علماء اجلاء ضارعوا علماء المشرق ، وعنوا اكثر ما عنوا بالعلوم الشرعية والعلوم اللغوية ، وبالقراءات والنحو .

« فنهضت المغرب تجاري الاندلس بحكم قرب الجوار واتحاد اللغة والدين ، لذلك تشجع افراد من الاندلس والمغرب الاسفار الى المشرق ورووا عن علمائه واقتبسوا من معارفهم اذ لم يكن في مقدورهم الرحلات الى البوادي ومشافهة الاعراب فيها كما صنع المشارقة ، وقفلوا الى المغرب والاندلس مزودين بعلوم المشارقة زيادة على ما جلبوا معهم من مؤلفاتهم ، الا انه كان للمغاربة فضل السبق على الاندلسيين لقرب بلادهم من المشرق وبعد الاندلسيين منه » (7) .

يقول صاحب الجلالة في خطاب له جامع مانع: « لقد اعتنق المغاربة الاسلام طوعا واختيارا ، ورضى واستبشارا ، اذ حمل اليهم من مكارم الاخلاق وسليم المبادىء ، وصحيح الاحكام ، وقويم النظم ، ما سعدوا به افرادا وجماعات ، واقبلوا على العربية لغة القرآن يتدراسونها ، وعلى فنونها يتعلمونها ويعلمونها،

---

(3) عربها محمد المرزوقي بكلمة comptoirs الفرنسية .

(4) قابس جنة الدنيا ، تاليف محمد المرزوقي ص : 113 ، مكتبة الخانجي بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ، 1962 .

(5) المرجع السابق ، ص : 116 .

(6) المرجع السابق ، ص : 117 .

(7) نشأة النحو وتاريخ اشهر النحاة ، تاليف محمد الطنطاوي ، ص : 187 بتعليق عبد العظيم الشناوي ومحمد عبد الرحمن الكردي ، ط. 2 ، 1969 ، مطبعة السعادة .

وما لبثوا ان لمسوا ما فيها من المرونة والاقتدار على التعبير على ادق الصــور الماديـــة ، والخلجـات النفسية ، واستمسكوا بها لسانا قوميا مبينـا ، واحبوها حبا مكينا ، ولما دلفت اليهـم من المشرق ثقافة الاسلام وعلوم العربية ومعارف الامم المتقدمة ، استوعبوها واتقنوها ، وتناولوها بآرائهم وأفهامهم ، فاحكموا اناقصها ، واوضحوا غامضها ، وفصلـوا مجملها ، وهذبوا حواشيها ، وزادوا ببحثهم وجدالهم وتخيلهم وافتراضهم فى غناها وثروتها ، ولم يكتفوا بذلك ، بل اضفوا عليها من حلتهم وطبعوها بطابعهم حتى أصبحت لهم مدارس مذكورة ، ومذاهب مأثورة فى علوم الدين ، وفنون اللغة ، والمنطق ، والفلسفة، والطب ، والرياضيات ، والتاريخ ، والفنون الشعبية، وحتى صارت جامعات فاس ، ومراكش ، وسبتة ، ومعاهد الاندلس التي عاشت طيلة عصورها الاسلامية تحت حكم المغرب ، او فى كنفه ، تضاهي جامعات اقطار الشرق العربي ومعاهده » (8) .

وقد برع المغاربة والاندلسيون فى النحـو واللغة براعة فائقة ، ولم يكونوا مقلدين لاقوال غيرهم من المشارقة دائما ، بل كانوا يعارضونهم فى كثير من المسائل ، وكان لهم بذلك جهود مشكورة ومساع حميدة ، وآثار لها قيمتها فى اللغة وفى التحليـل اللغوي ، فاستحدثوا فى النحو مذهبا رابعا الى جانب مذاهب البصريين والكوفيين والبغداديين وهو المذهب المعروف بمذهب المغاربة والاندلسيين ، وقد ظهرت مبادىء هذا المذهب من اوائل القـرن الخـامس الهجري ، وهو يعد بحق فجر النهضة النحويـة فى هذه البلاد ، ولقد كانت نهضـة رائدهـا الحـب الخالص لهـذا الفـن . فظهـر فى الانـدلس والمغرب علماء ضارعوا علماء المشرق ، وانتشرت دراسة النحو فى سائر المدن ، وكـادت الاندلس تحكي صورة العراق فى عصره الزاهر ، فكان غيـر عجب انه لما فسدت السليقة بالبادية اواسط القرن الرابع الهجري وانصرف علماء المشرق الى درس ما حفظوه ودونوه من كلام العرب ، ان يصنع كذلك بعد حين المغاربة والاندلسيون ، فى اجتزائهم بمـا نقلوا من السنة وكلام العرب المروي لهم عن علمـاء المشارقة والقواعد التي تلقونها منهم ، فلم يرتحلوا بعد الى المشارقة ، وعكفوا على ما حصلوا عليه ، وصدقوا العزيمة فى تثمير ما عندهم (9) ، حتـى اصبح استثمارا مطردا تمت بفضله الحركة العلمية ، وكثر العلماء وتباروا فى تصنيف المؤلفات مع تنويع الانتاجات بين نحوية وغيرها،فتطلعت اليهم الانظار فى سائر البلاد الاسلامية ، وملأت قرطبـة الانـدلس الاسماع وخلفت بغداد ، ولا سيما فى النحو الذي حظي منهم بما حرمه غيره من فنون اخرى ، فقـد سارت نهضتهم النحوية قدما حتى القرن السـابـع الهجري ، اذ فيه تسنم الذروة العليا من غاياتهم .

قال ابن سعيد المغربي ونقل كلامه المقري : « والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة حتى انهم فى هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان الا جدة ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى أي علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالـم من الازدراء » (10) .

ويرى ابن خلدون ان اهل صناعـة العربيـة بالاندلس ومعلميها اقرب الى تحصيل الملكة اللسانية وتعليمها ممن سواهم ، لقيامهم فيها على شواهـد العرب وامثالهم ، والتفقه فى الكثير من التراكيب فى مجالس تعليمهم ، فيسبق الى المبتدىء كثير مـن الملكة اثناء التعليم ، فتنطبع النفس بها وتستعد الى تحصيلها وقبولها ، وحصول ملكة اللسان العربي انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب ، حتى يرتسـم فى خيال المتعلم المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهـم فينسج هو عليه ، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم فى كلامهم ، حتى حصلت له الملكة المستقرة فى العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم ،

---

(8) من خطاب القاه جلالته بالجامعة المصرية عندما قلد الدكتوراه الفخرية ، الاحد 11 ذو القعدة 1384، 14 مارس 1965 (انبعاث امة ج 10 ، ص : 90 — 91) .

(9) نشأة النحو وتاريخ اشهر النحاة لمحمد الطنطاوي ، ص : 188 .

(10) نقلا عن المرجع السابق ، ص : 190 .

وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جـودة المقول المصنوع نظما ونثرا (11) .

ولم يقف نفوذ النحاة المغاربة عند حد معارضة نحاة المشرق فى بعض مسائل النحـو واللغـة أو مخالفتهم فى قضاياهما ، بل انه تكاثـرت مسائـل مذهبهم الجديد ، وذاعت قواعده ، وامتدت حياته، حتى أخذه عنهم المشارقة بعد ان ضعف شأنهم فقد تدفق كثير من المغاربة والاندلسيين على ديـار المشرق ، اما للحج او للاقامة فنفحوهـا نفحـات لا ينساها لهم التاريخ ، ودرسوا النحو فى مساجدها ومدارسها .

وما اعتناء المغاربة باللغة العربية وبعلومها الا لاعتنائهم بالاسلام الحنيف وكتابه الخالد الذي لا يدرك أسراره الا من تضلع من اللغة العربية وآدابها . ولا يجوز لمن يجهل اللغة والنحو والصرف والبيان ان يخوض فى القرءان . ولا يزال المغاربة الى أيامنـا يقدرون علماء العربية ، وتنفر آذانهـم من اللحـن الاعرابي . وكان الطلبة الى عهد قريب يرددون فى بعض المدارس المغربية قول الشاعر :

النحـو زيـن للفتـى
يكرمـه حيـث أتـى

من لـم يكـن يعرفـه
فحـقـه ان يسكتـا

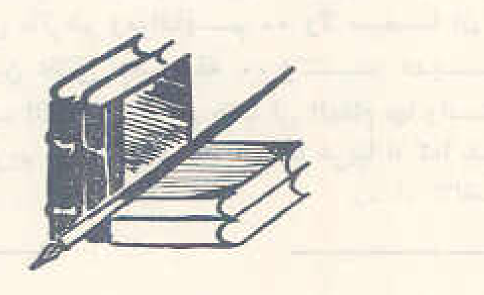
كما كان كثير من علمائنا السابقين يرون حـق تقدم النحو على سائر العلوم لانه هو القنطرة الموصلة الى المعرفة المضبوطة ، وبه يعرف صواب الكلام من خطائه ، ويستعان بواسطته على فهم سائر العلـوم ولذلك قيـل :

النحو يصلح من لسان الا لكن
والمرء تكرمه اذا لم يلحـن

واذا طلبت من العلوم أجلهـا
فأجلها نفعا مقيم الالسـن

الربـاط : محمد حمـزة

(11) مقدمة ابن خلدون ، الفصل الخمسون ، ص 1083 ، ط. 3 ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيـروت 1967 .



مع أدباء الصّحراء المغربية

(من ديوان "الاخوانيات")

للأستاذ رضا الله ابراهيم الألغي

كان ذلك اللقاء فى الهزيع الاخير من الثلاثينيات (1357 هـ – 1939 م) يوم حل بتطوان وفد عظيم من ابناء اقاليم الصحراء المغربية فى نحو 40 فردا فى طريقهم الى الديار المقدسة ملتحقين بركب الحاج الشمالي الرسمي لتلك السنة ، وكانوا برياسة الشيخ الوقور مولاي مربيه ربه ابن الشيخ الاكبر ماء العينين الاشهر ومعه أخوه الشيخ الاجل محمد الامام ونخبة من ابناء عمومتهم وتلامذتهم الادباء النجباء . والمعروف ان آل ماء العينين انتهت اليهم الرياسة والزعامة اذ ذاك فى الاقاليم الجنوبية الصحراوية التابعة آنذاك اداريا لمنطقة الشمال ، وكانت الوطنية والدعوة الى الاصلاح والوحدة حظا مشاعا ومبدأ منتشرا بين الجميع هنا وهناك .. لذلك احتفلت الاوساط الوطنية بتطوان بمقدم ذلك الوفد الكريم وأقيمت مآدب ونظمت لقاءات تبودلت فيها الكلمات والانشادات .. وقد كنت من الذين رحبوا وأطنبوا حيث ألقيت القصيدة الآتية التي كثيرا ما اشار اليها المتتبعون للحركات الادبية ، حاولت فيها أن أعبر عن صدق شعوري بلقاء أولئك الاعلام الاماثل وان أساير أسلوبهم المألوف فى الشعر التقليدي واشيد ببعض مآثرهم ومواقفهم .. ولا سيما ان عائلتنا تربطها بعائلة ماء العينين علائق جد وثيقة .. وكنت حديث عهد بتطوان الجاتني الظروف القاهرة اليها ثم طاب لي المقام بها وأنستني ما عداها بما لقيت من تكريم وآعزاز ولم أعد فيها ((غريبا)) كما بدر مني فى القصيدة :

ر. ا. الالغي

خطر النسيم مبشرا بالاسعد ... وبدا الصباح تبل وجه الانجد

هذى الربا تختال فى أعطافها ... فتخال ساحتها كثوب برجد

نثر الغمام لها جواهر زهرها ... فتزينت جنباتها بزبرجد

وتبادلت اطيارها الحانها … فى نشوة فوق الغصون الميد
والافق يبسم عن ثغور مسفرا … عن سابحات الجو فى الروض الندى
والورق حين تناوحت فى ايكها … تحكي بترنيم اغاني معبد
وتناسقت انوار روض خلته … حسناء ترفل فى غلائل لبد
والنهر طوقه كدملج معصم … ينساب مثل اراقم فى فدفد
اين التفت تر الطبيعة فتنة … تسبي النهى بمناظر لم تعهد
والشمس فى عليائها تحكي سنى … سعدى التي بوصالها لم تسعد
هجرت صريع جوى بوحشة ليله … يرعى الكواكب بالجفون الشهد
فوصالها يشفي صبابة عاشق … افنى الليالي فى رقابة موعد

جاءت وزارت بعد طول تماطل … والمطل من دل الحسان الخرد
الدهر يسمح بالمؤل تارة … ويشح اخرى بالقليل ويعتدي
السعد نغبة طائر فى فرصة … فانهز اذا سنحت مليا تسعد
فاليوم لاحظت السعادة خلسة … بعيونها قلب (الغريب) المبعد
من قبل كان الدهر فرق بيننا … فالآن أمسينا كعقد منضد
ان صح ترحيب (الغريب) بمثله … فأنا أرحب بالوفود الورد

هذى الوفود النازلون برحبهم … لبوا نداء الله دون تردد
يحدوهم الشوق الكمين على النوى … كيما يحجوا بيت عتق سرمد
وقلوبهم تلتاع من بين الحشا … كيما يزوروا روضة لمحمد
فلحجهم من غير شك حطة … فهمو اتوه من مكان ابعد
ان نحن قمنا بالتجلة نحوهم … فالفضل منهم لا يقاس بازبد
فالله يبلغ سؤلهم ويحوطهم … حتى يفوزوا بالمنى والمقصد

هذا اميرهم مربه ربه … انعم به من قدوة للمقتدي
بصروا به علما اشم وشامخا … ارشاده يهدي الجميع فيهتدي
علموا مكانته العلية فى الورى … علما واخلاقا ورفعة محتد
يكفيه فخرا انه الحصن الذي … حرس الامانة فى الجنوب الابعد
فالسوس يعرف فضله ويجله … وله عليهم عهدة المتقلد
قد قاوم الدخلاء فى طغيانهم … واذاقهم شر الوبال الاسود
لا غرو ان كرم الهزبر وانما … اقدامه طبعا نجابة فرهد

اسلاف هذا الشيخ كانوا حجة ... في الدين والعلم الصحيح المسند
اعظم بهم اعلام قطر ما سعوا ... الا لرفع الدين فوق الفرقد
كم من معارف قد اجادوا نسجها ... في نول زاوية ومغزل مسجد
كم سنة فاءت بظل خيامهم ... فقضوا على البدع التي لم تحمد
كشفوا القناع عن الحقيقة فاغتدى ... صرح الديانة في مناعة ملحد
في المغرب الاقصى شعور جيد ... وخيالهم عين الخيال الجيد
فلئن تفاخرت البلاد بشعرها ... فلهم طوالع كالدراري الوقد
فابن العتيق الفحل بازل قومه ... يرمي بفكر كالقسي مسدد
اما معانيه فوحي ملهم ... واللفظ منه كلؤلؤ وزمرد
لو قيل للادب الرفيع الا انتسب ... لاجاب : شنكيطي ، هنالك محتدي
فسل المحابر تعلمن بانهم ... ارباب نثر او قريض اجود
وسل الخزائن تعلمن بانهم ... كرسوا حياتهم لكل مجلد
وسل المحافل تعلمن بانهم ... لهم الكلام الفصل عند المشهد
وسل المساجد تعلمن بانهم ... فيها لافضل ركع او سجد
وسل المكارم تعلمن بانهم ... خير الاولى مدوا اليها باليد
وسل السيادة تعلمن بانهم ... ورثوا السيادة سيدا عن سيد
وسل المعارك تعلمن بانهم ... لهم بها شتى الكماة الشهد
فالمجد يركض خلفهم اين ارتموا ... من قادة منهم اليه ينقد
والعز والنصر المبين حليفهم ... ان اقدموا فعل الكمي الايد
هم اوقفوا عدوان كفر هاجم ... صمدوا له باسنة وتجلد
صدعوا وقالوا ما يعز سماعه ... اذ ذاك من قول الحكيم المرشد
لكنهم صاحوا بواد مقفر ... ذهبت نصيحتهم ولم تتردد
ان خالف الاقوام حكم اميرهم ... فالامر فيهم للدخيل المفسد
وتكاسر الاساد في آجامها ... يعطي الغلاب لذئبها المتأسد
الداء كل الداء في تفريقنا ... فمتى نسير الى الوفاق المنجد !
لله عهد نحن فيه وحدة ... والقطر تحت اوامر لموحد
لا شيء يصلح حالنا كتعارف ... وتزاور وتعاون وتودد
يا رب اصلح في البرية حالنا ... واجعل له حسن الختام كما بدي

* * *

وعلى الاثر ارتجل الشاعر المفلـق الاستاذ ماء العينين ابن العتيق الشهير قطعة جوابية عما ألقى في الحفـل جاء فيهـا :

يا اخوة المجد يا أعلام سببـه
والنازلين بأعلى ذروة الرتـب

لله ايخاؤكم هـذا فبينكـم
آخت لبان العلا والعلـم والادب

قد سرنا اليوم ما ألقيتموه لنـا
تبارك الله من شعر ومن خطـب

كما انشد الشيخ الاجل سيدي محمد الامـام قائـلا :

جزاكم الله اجمـالا وتفصيـلا
اجملتم الصنع شبانـا وفتيانـا

تالله ما ابصرت عيـن نواديكـم
الا رأتكم لعين المجد انسانـا

وانشد الشاعر الاديب ماء العينين بحجوب :

في مثل هذا المنتدى كمل الندى
ورأى المنى للنفس في ذا المنتدى

حيى لمن بالمنتدى من مبتـدا
عمري وآخره يـرى كالمبتـدا

وانشد الشاعر الاديب محمد ماء العينين ابن الشيخ أحمد الهيبـة :

قابلتمونا بأوفى ما نطيـب بـه
فخرا من اعظم ترحيب واطيبـه

وليس ذلك الا مـن سيادتكـم
وما من المجد قدما توصفون به

هذا وقد جرى في تلك الحفلة قول الشاعـر القديـم :

نحن في المشتاة ندعو الجفلـى
لا ترى الآدب منـا ينتقـر

فنسج عليه الشاعر ابن العتيق المتقدم بقوله :

دعوتمونا سماحا دعوة الجفلـى
فكنتمو خير من بالزائـر احتفل

لو قيل فيكم : الستم خير متحف
بالمكرمات لقال السامعون بلـى

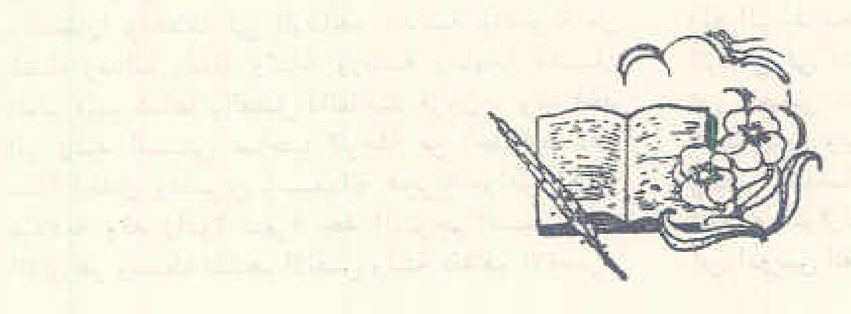
من كان داعى اقوام لمادبـة
ولم يكن هكذا فعـلا فما فعـلا

كما انشدنـي ابن العتيـق :

بك الفضلاء ان فخروا تباهـوا
ومثلك من به فضلا يباهـى

وان نام الكرام عن المزايـا
فان لمقلتيك بهـا انتباهـا

الرباط : رضا الله ابراهيم الالفي



صورة جيل من خلال ترجمة :

العلامة الحاج محمد السدراتي

للأستاذ محمد بن الطيبي العلوي

مولـــــده :

ولد المترجم بمدينة سلا اوائل سنة خمسين ومائتين والف موافق سنة 1835 ، هو الفقيه العلامة الاصولي القاضي النزيه المدرس الموثق السيد الحاج محمد بن العلامة السيد محمد بن العلامة المحدث القاضي السيد احمد شارح الموطأ ابن الفقيه الناظر السيد المكي بن الفقيه العلامة العدل السيد محمد بن الفقيه العدل السيد المكي السدراتي .

نشأتـــه :

نشأ في حجر العلم ... بالبيت السدراتي بمدينة سلا وهو من عيون البيوتات العريقة في المجد المكين والتمسك بالدين والصلاح المتين والجاه والمكانة والرفعة والامانة نالوا علما وفخرا ومجدا وافتخارا وتخططا في الوظائف الدينية والدنوية من قضاء وعدالة وامانة وكتابة ورئاسة وشهامة فكان العلم فيهم شائعا والفضل ذائعا منذ قرون . وقد اخذ ابن رشد السبتي صاحب الرحلة عن احد اجدادهم سنة احدى وعشرين وسبعمائة هجرية موافق 1321 ميلادية وقد زادوا شهرة بجد المترجم السيد احمد الذي هو وسيطة عقدهم الانفس ولبنة عقدهم الاقعس.

مشيختــــه :

قرأ القرءان العظيم على الفقيهين الاستاذين السيد محمد معنينو والسيد محمد بن الجيلاني والعلم على جماعة من فطاحل علماء بلده منهم والده العلامة السيد محمد المتوفى سنة 1291 والعلامة القاضي السيد أبو بكر عواد المتوفى سنة 1296 والعلامة عامل سلا السيد الحاج محمد محبوبة المتوفى سنة 1279 بمكة المشرفة بعد الفراغ من الحج والعمرة ، والعلامة الشريف مولاي الحاج عمر العلوي المتوفى سنة 1278 والد النقيب المرحوم السيد الحاج امحمد والعلامة السيد محمد التيال الكبير والعلامة السيد احمد الجدار ، والعلامة المحدث السيد بنعيسى بن بوزيد والعلامة نائب القاضي السيد محمد المسطس ، والعلامة السيد عبد الوهاب طوبي ، والعلامة النوازلي السيد عبد الرحمن بن ادريس الفضلي الذي ذكره العلامة ابو عبد الله السيد محمد بن القاضي السيد علي دينية الرباطي في كتابه « النسمات الندية » من نشر ترجمة ابي العباس دينية الفريدة السادسة ذكر فيها اناسا كانت بينهم وبين جده صلة وصداقة الى ان قال : ومنهم المفضال الاجل المتضلع المدرس الاحفل العلامة النوازلي المشارك ابو زيد سيدي عبد الرحمن ابن ادريس الفضلي السلاوي كان رحمه الله من أعيان

وقته وتصدر للافتاء بسلا . وقد عثرت له على فتاوي وله مع الجد اتصال ووداد توفى عام 1268 . وقيل ان الجد من تلاميذه كما ان المؤلف عثر له على فتاوي تدل على تعمقه وفلسفته فى الاصول والفروع وعبقريته . ثم قصد المترجم فاس للارتواء من شيوخ جامعة القرويين فاخذ العلم عن شيوخها الاعلام ذوي النهى والاحلام منهم العلامة السيد الحاج محمد جنون ، والعلامة القاضي الشريف سيدي محمد ابن مولانا عبد الرحمن العلوي والعلامة السيد محمد بن الحاج والعلامة السيد محمد بن عبد الواحد بنسودة والعلامة ابو حفص بنسودة والعلامة اسيد احمد الورياغلي ، واجازوه اجازة اسندت عن عواليها معاليها الفاظها طابقت منها معانيها . وبعد ان احرز قصب السبق فى ذلك الميدان وزخر بحره للعيان قفل الى مسقط راسه ومنبت غرسه فحل بها حلول غاية وفى كنف سلامة ورعاية وسمت رتبته وتحلت بالمعاريف طينته وعين عدلا بالسماط ومفتيا فكان اعجوبة فى فن التوثيق بارعا فى التنسيق والتدقيق فارس البراعة واليراعة متقدما فى هذه الصناعة . ثم تولى التدريس فى الوان شتى من المعارف وتخرج عليه زمرة من الفقهاء مع اشتغاله بعبادة الرب التي هي كنز السر والمطلب وقيامه بامامة الجامع الاعظم التي هي الورد الاطيب وكانت له صحبة فائقة ومودة رائقة فى والدنا مولاي الطيب قدس الله روحه .

حـالـه :

كان فقيها علامة مدرسا متضلعا ... فرضيا حيسوبا محققا مطلعا جهبذا مدققا حافلا قاضيا نزيها عدلا جليلا بارعا عبقريا نبيلا عالي الانشاء سديد الفكر جيد النظر ماجد الاعراق عذب الاخلاق اشتهر فضله وذاع ارجه عني بالعلم فى صغره وتعلق بأهدابه ورث العلم فرضا وتعصيبا واستوفى الكمال حظا ونصيبا .

رحلتـه :

رحل الى البقاع المقدسة سنة سبع وتسعين ومائتين والف (1297) فحج وزار وراى المشاهد والمزار واخذ عن شيوخ الحرمين الشريفين وكذا عن شيوخ مصر والشام واجازوه اجازة عامة مطلقة تامة وكان رحل الى فرنسا سنة اثنتين وثمانين ومائتين والف ، كما سياتي ذكره .

ولايتـه :

تولى المترجم الامامة والوعظ والتدريس بالجامع الاعظم بسلا سنة احدى وتسعين ومائتين والف(1291) خلفا عن والده المرحوم فكان علم فضل وانصاف **وكان عين كاتبا بالسفارة المغربية التي وجهت الى باريز فى عهد الملك الامام سيدي محمد بن الملك الهمام مولانا عبد الرحمن برياسة عامل سلا الاجل المحنك المحترم السيد الحاج محمد بنسعيد والقائد المجيد المكرم السيد محمد بن عبد الكريم الشركي سنة اثنتين وثمانين ومائتين والف (1282)** ثم عين عدلا بمرسى طنجة ثم تولى القضاء بمدينة سلا فى متم شعبان سنة ست عشرة وثلاثمائة والف (1316) موافق سنة 1898 فصار فى خطته على احسن سنن وخلق حسن وحمدت سيرته وشهدت نزاهته وبذلك كان خليقا لما جمع فيه من ادوات الكمال التي هي غاية الآمال ، فافتتح صحيح الامام البخاري بالجامع الاعظم فى الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان بعد صلاة الظهر فافاد واجاد ، ثم اعفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة والف (1319) وعين قاضيا بمدينة آسفي فشمل اهل البلد بفضله وعدله وخبرته ونبله واحسن الخطة مع النزاهة واتخاذه لنفسه الخطة مع فضل حلا فى الافواه تناؤه وبعد ذلك عين عدلا بمرسى الدار البيضاء فوقعت الواقعة العظمى من دخول الجيش الفرنسي اليها سنة خمسة وعشرين وثلاثمائة والف (1325) هجرية فكر الى بلده بعد عناء كبير واضرار وللدهر حلو وامرار واقبل على عبادة ربه ملازما امامة الجامع الاعظم آخذا بنفسه بارتياض ومجاهدة حتى ظفر بالاجادة وأتاه اليقين .

عملـه الخيـري :

أوقف خمس دوريات مجاورة للجامع الاعظم لسكنى من يقوم بالاذان به جعل الله ذلك فى حسنته وبذلك خلد محاسن ماؤها غير آسن .

وفـاتـه :

توفي المترجم صبيحة يوم تاسع ذي القعدة عام ثلاثين وثلاثمائة والف (1330) موافق لسنة 1912 ودفن بضريح الصالح سيدي ابي زكري بحومة الطالعة بعد ما صلي عليه بالجامع الاعظم اثر صلاة

العصر وحضر جنازته اهل البلد وكان الثناء عليه حسنا جميلا عاطرا جزيلا . وخلف ولدا واحدا توفي أثره . ومن دواعي الاسف انني لم أعثر على آثاره القيمة التي منها رحلته الى باريز فى المامورية المذكورة لان ذلك ضاع بوفاته ولانه خاتمة هذه السلسلة الطيبة فالبقاء لله وحده وفى هذا يقول الشاعر :

اقمنا برهة ثم ارتحلنا
كذلك الدهر حالا بعد حال

وكل بداية فالى انتهاء
وكل اقامة فالى ارتحال

وقال آخر :

يمضي الزمان فان ذاهب
الا جميل الذكر فهو الباقي

رجع التراب الى التراب بما اقتضت
فى كل خلق حكمة الخلاق

أسمى الله ثراه بالرضى والرضوان وأمده بالغفران واسكنه فسيح الجنان .

سلا : محمد بن الطيبي العلوي



قبيلة زعير قديما وحديثا

● قدم الاستاذ عبد الله كنون الجزء الاول من كتاب « قبيلة زعير قديما وحديثا » لمؤلفه الاستاذ محمد بن عمر ابن سودة المري (الشهير بالشيخ التاودي) بكلمة قيمة أبرز فيها الجهد العلمي الشاق الذي بذله المؤلف فى جمع المواد وتحليلها واستقصاء كل شاذة وفاذة ترتبط بالموضوع .

حياة الخلود

للشاعر الأستاذ عبد الواحد اخريف

قيلت فى رثاء شيخ تطوان المغفور له العلامة السيد محمد المرير بمناسبة الذكرى الاربعينية لوفاته .

نفس دعاها الى عليائها شمم ... وهمة لم تقارب شاوها همم

تعشقت مجدها والمهد يحضنها ... وما لهت وربيع العمر مبتسم

تلفعت برداء الجد طاهرة ... اعطافه لم ترد حوض الذي يصم

شبت على العلم تروي من مناهله ... وكل يوم بها من حبه نهم

تعلقت بجمال العلم يافعة ... وفى حماه لها سعي ومعتصم

حتى كساها جلالا ظل يصحبها ... وصار حاملها كأنه حرم

رمز الهدى والتقى والعلم ما برحت ... انواره ليس تغشى فيضها ظلم

ذاك « المرير » الذي ولى وفارقنا ... من بعد عمر به الامجاد تزدحم

قد عاش فى كنف الرحمن ضيف تقى ... يزينه من بهاها السر والكلم

لم أحظ يوما بدرس من معارفه ... لكن ظفرت « بأبحاث » بها نظم

وهبني لم أستفد من علمه أبدا ... أليس واجبنا نبكي الالى علموا ؟

اذا مضوا خلفوا فى الدار ثغرتها ... ولوعة تتلظى كلما ختموا

نبكي عليهم ونبكي حر محنتنا ... فالدين من فقدهم قد مسه الم

يخشى الضياع بأرض لا صلاح لها ... الا اذا شملها بالدين ينتظم

ضل الذين رأوا فى غيره « قبسا » ... وما أصابوا الهدى لكنهم وهموا

عشت الهداية تجلوها مجسمة ... كساطع الضوء للافاق يقتحم

زان « القضاء » جهاز كنت سيده ... اذا اتى صاحب الحاجات يحتكم

والحاكم العدل لا يرتاح خاطره ... الا اذا كان حق الناس يحترم

قد ميز العدل احكاما نطقت بها … مضى بها باطل الاقوال ينهزم

وهيبة الحكم ان توجت مجلسه … يهتز من هولها فى الحين متهم

كم من اناس تصدوا للقضاء فما … اصابوا مقطع حق عندما حكموا

حزم وعزم وفهم دق ناظره … تخال منه بان الناس ما فهموا

ذكاؤك الخصب نفاذ لغايته … لم تعيه معضلات الامر تحتدم

لو عاد للارض « اياس » لقال لنا … ان « المربر » اب لكنني عدم

ان القضاة صنوف خيرهم نزلا … من يحكمون وخوف الله فوقهم

وانت منهم بما شيدت من قبب … للحق تعلو فتعلو فوقها قمم

الفقه تاه فخرا اذ غدوت له … ركنا يحج اليه الحاذق الفهم

قد كنت فارسه تعدو بحلبته … وكنت صرحا له هيهات ينهدم

ذكرتنا بنجوم الفقه لامعة … لكن ظهرت كبدر التم بينهم

تركت للناس دنياهم وعشت لما … يهواه قلبك والاوراق والقلم

تسيل نور عيون فى مراتعها … بين السطور ونور العلم يضطرم

فيملأ العقل اشعاعا وحسن صفا … وتغمر الروح من لألائه نعم

ان نام غيرك بالاحلام مغتبطا … سهرت للجد ، لا وهم ولا حلم

تلك الحقيقة من شاء العلا فله … ترك الخيال ، وسعي دائب عمم

* * *

يا راحلا رحلت عنا مواهبه … فاقفرت دارنا والعلم والحكم

نم فى النعيم قرير العين مبتهجا … مع الالى برضا الرحمن قد نعموا

فقد عرفت حياة فى الدنا عظمت … سما بها العلم والاخلاق والشيم

وفى الخلود حياة قد عملت لها … فالميت الحق من بالجهل ينعدم

تطوان : عبد الواحد اخريف

تحية وفاء

للأستاذ الشاعر الحاج أحمد ابن شقرون

كنت من قبل ، نشرت على اعمدة مجلة « دعوة الحق » الغراء ، تحية موجهة ، للشاعر المبدع ، الاستاذ السيد محمد الحلوي ، على أثر مغادرته مدينة فاس ، للاقامة فى مدينة تطوان ....

وحينما ، قرأت قصيدته الرائعة ، (العدد التاسع ـ السنة 18) التي رثى بها صديقنا الراحل ، السيد ادريس الجاي ، رحمه الله ، والتي اختار لها عنوان : « وفاء » انشأت هذه القصيدة ، التي قلت فيها :

وفيت لادريس الذي حل فى القبر   وجدت له بالشعر ، يا ملك الشعر

« ونحن رفاق الدرب » قلت لراحل   وابدعت فى قربى ، تدوم على الدهر

سويا ، سلكنا الدرب ، من زمن الصبى   وفى « القرويين » ابتدانا خطى العمر

وقلت ستهديه مدى العمر باقة   واخرى تليها ضمخت بشذى العطر

وادريس اهل للذي قد وصفته   وخل لنا فى الدرس ، والشعر ، والفكر

« سوانحه » فينا مواقف فارس   تلقف فى الميدان ناصية الذكر

وراض كما قلتم قوافي فـــذة « وصاغ معانيه قلائد من در »

« وما كان يشكو دهره ، وعقوقه وما يتلقى من جفاء ، ومن هجر »

« وما كل شعر الارض يجدي ، وانما عقوق ذوي الابداع نوع من الكفر »

* * *

واني على العهد ، الذي قد عرفته فجد بجواب ، يهدى منك ، الى النشر

فمن قبل ، جدنا بالتحية ، ضمخت بعطر اسمك الميمون ، يا حامل العطر

ويا شاعرا ، بزت قوافيه نخبة من الشعراء ، الملهمين ذوي القدر

وفاؤك حبل طال ، حتى توثقت عراه ، فمست راحلا ، ربق الذكر

و « فاس » على العهد القديم ، كانها بلبلها الفريد ، عاد الى الوكر

فاس : الحاج احمد بن شقرون



دمعتي على مفدي

للشاعر الاستاذ :
الحبيب شيبوب ـ تونس

● وافانا الشاعر التونسي الاستاذ الحبيب شيبوب بقصيدة فى رثاء شاعر المغرب العربي الكبير الاستاذ المرحوم مفدي زكرياء . وقد قدم لها بكلمة رقيقة ينوه فيها بالمجلة :

الى م تبلو صبرنا يا زمان ؟ ... يا زارع الموت الامان الامان

وحاصد الآجال لا يأتلي ... يقتلع الحر ، ويبقى الجبان (1)

وقد طوت (مفدي) صروف الردى ... لما رمى السهام طوايا الجنان (2)

وبخرت نار المنايا المنى ... وانطفا الحس وغاض الحنان

ولم يعد يفجعنا فى الدنى ... موت ولا يطربنا مهرجان

وتلك دنيا خلب برقها ... شمطاء ما للحي فيها أمان

يا ويح من تغريه احلامها ... وويل من يلقي اليها العنان

لذاك يا (مفدي) طلقتها ... بدون رجعى بعد طول امتحان

---

(1) اشارة لبعض الاقزام الذين ناصبوه العداء حيا وميتا .
(2) توفي الشاعر بسكتة قلبية مفاجئة .

ورحت تغزو الخلد علما بأن الحر في دار البقا لا يهان

فكم نظمت الشعر يسبي النهى ... بناصع الفكر – وسحر البيان

وكم تحملت الاذى صابرا ... فتلهم الاجيال صدق المران

اوقدت (للثورة – 3 –) نيرانها ... وكنت حاديها بيوم الطعان

وعشت فينا (مغربي – 4 – الهوى ... تدعو الى الوثقى وكسب الرهان

تهزأ بالدنيا وارزائها ... وتبذل الروح لدرء الهوان

وترسل الصيحات علوية ... فيسمع الصم نداء الاذان

ارادة كالصارم المنتضى ... وعزمة يعنو لها الفرقدان

فلا تلمني ان تكن ادمعي ... غاضت ولم ينطق بحزني اللسان

وثق بان الصحب – رغم الفنا – ... ذكرك فيهم سرمدي مصان

لك التحايا الزاكيات التي ... تعطر الاسماع في كل ءان

والصلوات الطيبات الشذى ... من (تونس الخضراء) طول الزمان

والحافظين العهد في (مغرب) ... زلزله الخطب وهد الكيان

فارجع الى ربك – والق الرضى ... وكن له عن حالنا ترجمان

وانزل حمى الله – وعش ءامنا ... ففي حمى الله الكريم الضمان

(3) الثورة الجزائرية التي خلدها بشعره الرصين ونظم نشيدها : قسما ،،

(4) كان رحمه الله لا يؤمن بالاقليمية ويعتبر نفسه ابن المغرب العربي الكبير ونادى بهذا المبدأ منذ أكثر من أربعين عاما .

التمهيد لما فى الموطا من المعاني والاسانيد

● صدر الجزء السادس من كتاب « التمهيد لما في الموطا من المعاني والاسانيد » لابن عبد البر القرطبي المتوفى عام 463 هـ ؛ وذلك بتحقيق الاستاذ سعيد أعراب ، ويقع هذا الجزء فى 540 صفحة من الحجم الكبير ويمتاز بالفهارس التي وضعها المحقق .

بين يدي النبوة

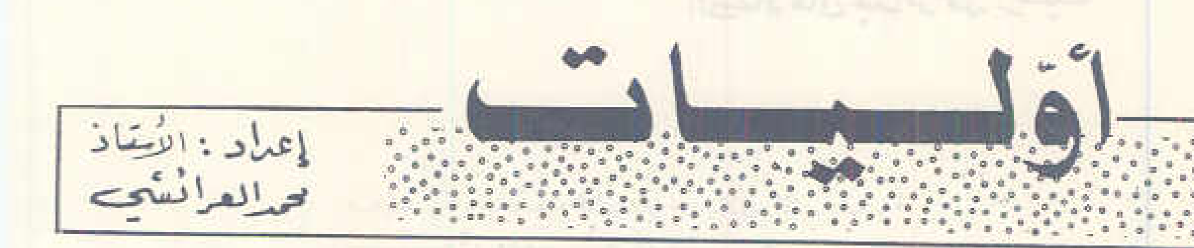
للشاعر الفلسطيني
الأستاذ كمال عبد الرحمن رشيد

صغيرا وقفت أمام جلال النبوة
بشوق ودمع ورهبه
رأيت النبي وصحبه
رأيت النجوم التي انتشرت في ليالي الشتاء
رأيت النفوس التي لوحتها الصحاري
يدثرها اليوم صوت السماء

ضعيفا وقفت أمام جلال النبوه
بأصدق نيه
بعين رضيه
ترى النور خلف السحاب الكثيف
وتضرع بالصوت أن يا محمد
نداؤك ذاك الذي هز عطف الوجود
بهذا الزمان اللجوج الحقود
يصد ويجحد
ومسراك في القدس يا سيدي
تدنسه غانيات اليهود
وليس سوى شمعة يا رسول الحياة
تغالب كل الرياح

وأين أنا فيك يا سيدي
وكيف ستمعني من بعيد
أمامي خطيئات كل السنين
أمامي الهزيمة تمتد تحجبني عن ضياك
ولكنني وبعين اليقين
أراك ...... أراك .

كمال رشيد



أول ما نزل من القرءان بمكـة :

كان ابتداء نزول الوحي بمكة المكرمة سنـة 611 م .

وأول ما نزل من القرءان الكريم بمكة ، هو صدر سورة العلق ، وذلك قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسـان ما لـم يعلـم » .

وهذا أصح الاقوال ، ويؤيده حديثان صحيحان :

الاول : حديث بدء الوحي المشهـور . روى الشيخان وغيرهما عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : أول ما بدىء به رسول اللـه صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح الحديث .

الثاني : اخرج الحاكم فى المستدرك ، والبيهقي فى الدلائل عن عائشة رضي الله عنها قالت : أول سورة نزلت من القرءان الكريم اقرأ باسم ربـك .

القرءان الكريم أول نص اسلامي مكتوب :

يعتبر القرءان الكريم أول نص اسلامي مكتوب وصـل الينـا .

أول ما كتب فى اللوح المحفوظ :

أول سورة كتبت فى اللوح المحفوظ هي فاتحة الكتـاب .

أول من جمع القرءان فى مصحف واحد :

فى عهد الخليفة الاول ابى بكر الصديق رضي الله عنه ، جمع القرءان لاول مرة فى مصحف واحد بعد ما كان متفرقا مكتوبا فى جريـد النخل ، والحجارة ، والرقاع ، وقطع الاديم ، وعظام الاكتاف والاضلاع ومحفوظا فى صدور الرجال . وقد ندب ابو بكر لجمعه ، الصحابي

زيد بن ثابت ، واعتمد زيد فى جمعه المصادر المشار اليها بمساعدة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أول من جمع المسلمين على مصحف واحد :

اول من جمع المسلمين على مصحف واحد ، هو عثمان بن عفان رضي الله عنه . والسبب فى ذلك كما ورد فى كتاب تاريخ المصحف الشريف لعبد الفتاح القاضي : انه لما تعددت مصاحف المسلمين ، واختلفت وجوه قراءاتهم، نظرا لكون القرءان انزل على سبعة احرف ، اجتمع أهل الشام والعراق فى غزة ارمينية واذربيجان سنة خمس وعشرين هجرية ، وكان فيمن غزا مع أهل العراق حذيفة بن اليمان ، فراى وسمع ما كان يقع بين المقرئين من نزاع عند اختلافهم فى اوجه القراءة ، ففزع الى عثمان الخليفة واخبره الخبر وقال له : ادرك الناس قبل ان يختلفوا فى كتابهم الذي هو اصل الشريعة ، فجمع عثمان كبار الصحابة وذوي الراي منهم ، واخذوا يتبادلون الراي ويبحثون عن علاج ، فاستقر رأيهم على نسخ مصاحف ، يرسل لكل مصر مصحف منها يكون مرجعا للناس عند الاختلاف ، كما اتفقوا على احراق ما عدا هذه المصاحف .

وندب عثمان للقيام بهذه المهمة ، اربعة من اجلاء الصحابة وثقات الحفاظ ، وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . كما وجهت اليه حفصة بنت عمر بن الخطاب الصحف التي عندها بطلب منه . وعند ذلك شرع الصحابة المنتدبون فى عملهم ، وعند ما أنهوا عملهم ، بعث عثمان لكل مصر من الامصار الأربعة مصحفا شريفا :
مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام .

أول من نقط المصحف :

ذكر الامام القرطبي فى تفسيره ما ياتي :

أسند الزبير فى كتاب الطبقات الى المبرد : ان أول من نقط المصحف ، هو أبو الاسود الدؤلي .

وذكر الامام السيوطي فى الاتقان اقوالا اخرى فى الموضوع .

أول من سمى المصحف :

ورد فى الاتقان فى علوم القرءان لجلال الدين السيوطي ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه لما جمع القرآن ورتبه قال للاصحاب : التمسوا له اسما ، فقال بعضهم : سموه سفرا ، فقال الصديق : سموه مصحفا ، وكانت الحبشة تسميه مصحفا ، فوافقهم بتسميته مصحفا .

المصحف العثماني ينقل لاول مرة من قرطبة الى المغرب :

ان قصة نقل المصحف العثماني من قرطبة الى المغرب كما وردت مفصلة فى نفح الطيب والاستقصا ، وتاريخ الجزائر العام تتلخص فيما يلي :

فى ليلة الحادي عشر من شهر شوال سنة 552 هـ 1157 م نقل المصحف العثماني لاول مرة من قرطبة الى مراكش فى عهد الموحدين أيام عبد المومن بن علي وبامر منه بواسطة ابنيه ابى سعيد ، وابى يعقوب ولم يزل الموحدون يعتنون بهذا المصحف ويحملونه فى اسفارهم متبركين به الى آخر سنة 645 هـ / 1248 م حيث انتقل الى يغمراسن بن زيان وبني عبد الواد من ملوك تلمسان .

وفى سنة 737 هـ / 1336 م انتقل الى ملوك بني مرين عند ما استولى السلطان ابو الحسن المريني على تلمسان ، وبقي عنده يتبرك به ويحمله فى أسفاره جريا على عادة الملوك المتقدمين الى سنة 750 هـ / 1349 م حيث ركب السلطان ابو الحسن البحر من تونس قافلا الى المغرب بعد استيلائه على افريقية ، وكان ذلك ابان ثورة البحر وهيجانه ، فغرقت مراكبه ، وهلكت نفوس عديدة ، وضاعت نفائس يعز وجود مثلها ، ومن جملتها المصحف العثماني ، فكان ذلك آخر عهد المغرب به .

وفى هذا المصحف يقول الشاعر الوزير ابن طفيل القيسي من قصيدة له ، ينوه فيها

بشجاعة عبد المومن الموحدي ويذكر محاسنه ومحاسن ابنائه ، ومن جملتها صيانته للمصحف العثمانـــي :

جزى الله عن هذا الانام خليفة
به شربوا ماء الحياة فخلـــدوا

وحياه ما دامت محاسن ذكـــره
على مدرج الايام تتلى وتنشـــد

بمصحف عثمان الشهيد وجمعه
تبين ان الحق بالحق يعضـــد

تحامته يدي الروم بعد انتسافه
وقد كاد لولا سعده يتبـــــدد

فما هو الا ان تمرس صـــارخ
بدعوته العليا فصين المبـــدد

والقصيدة تنتظم من 58 بيتا ذكرها بتمامها فى الجزء الخامس من نفح الطيب نشر دار المأمون بمصـــر 1355 هـ / 1936 م .

نشـــر القراءات بالمغرب :

ورد فى الجزء الثاني من مناقب محمد بن أحمد الحضيكي ان اول من نشر القراءات بالمغرب بسائر طرقها هو محمد بن يوسف النزعـــي الفاسي مولدا المراكشي دارا المتوفى سنـــة 1014 هـ / 1606 .

شيوع القراءة بحرف نافع فى المغرب :

ورد فى الجزء الاول من الاستقصا ما مضمنه : فى صدر المائة الرابعة رحل العالم محمد بـــن خيرون الاندلسي اصـــلا القيروانـــي دارا الى المشرق ، فاخذ عن علمائها وقرائها ، وعاد الى افريقية وهو يجيد القراءة بحرف نافع فاشاع القراءة فى المغرب لاول مرة بهذا الحرف ، بعد ان كان لا يقرا به الا الخواص ، كما كانت القراءة بحرف حمزة قبل ذلك هي الاكثـــر شيوعـــا بالمغرب ، والقراءة بحرف نافع هي سنة أهل المدينة كما قال الامام مالك ، لذلك اختارهـــا المغاربـــة .

وقـــف القـــرءان :

فى القرن العاشر الهجري جرى عمل المغاربة فى وقف القرءان على طريقة المقرىء الاستاذ محمد بن جمعة الصماتي الهبطـــي المتوفـــى بمدينة فاس سنة 930 هـ / 1524 م .

اول ترجمة المانية للقرءان :

فى شهر يونيه 1968 نشرت جمهورية المانيا الديمقراطية او ترجمة المانية للقرءان الكريم ، وقامت بنشرها اقدم دور نشر صحفيـــة فى العالم ، يرجع تاريخها آنذاك لمائة عام خلت .

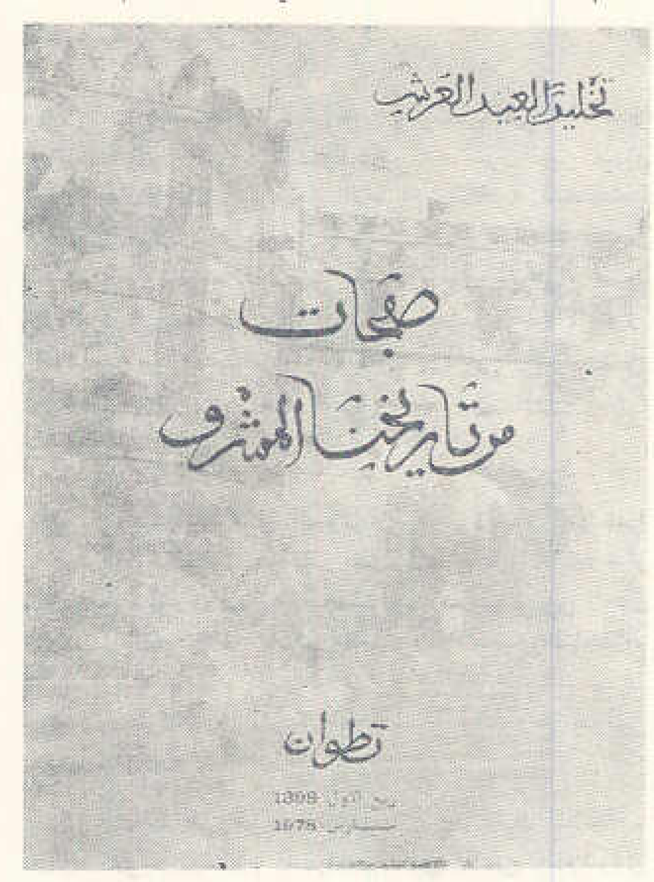
المصطلحات العسكرية فى القرءان :

لاول مرة بعد نزول القرءان الكريـــم ، يصدر مؤلف فى موضوع المصطلحات العسكرية فى القرءان . وهو يقع فى مجلدين كبيرين تبلـــغ صفحاتهما 1115 صفحة ، الفه الاستاذ اللواء الركن محمود شيت خطاب عضـــو المجمـــع العلمـــي العراقـــي .



المغـــــرب :

● اقدمت عمالة اقليم تطوان بمناسبة عيد العرش المجيد على تجربة ادبية ناجحة ، اذ نشرت كتابا شارك فيه كتاب الاقليم وشعراؤه وزين بصورة جلالة الملك وولي عهده المحبوب وقدم بكلمة للسيد كمال الكانوني عامل الاقليم .



ومن الكتاب الذين شاركوا في كتاب « صفحات من تاريخنا المشرق » الاساتذة : عبد الله كنون ، امحمد عزيمان ، سعيد أعراب ، محمد حدو أمزيان ، محمد الطنجي ، محمد العربي الشاوش ، محمد الخطيب ، د. عبد الله العمراني ، وعبد الواحد أخريف ... الخ .

● ظهرت الترجمة العربية لكتاب « تاريخ المغرب » لمؤلفه الدكتور عبد الله العروي . بترجمة الدكتور ذقان قرقوط . وقد صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

كما ظهرت الترجمة العربية لكتاب « أزمة المثقفين العرب : تقليدية أم تاريخانية ؟ » لنفس المؤلف والمترجم .

● صدر للدكتور محمد عزيز الحبابي كتاب بعنوان: « المعين » وهو معجم لمصطلحات الفلسفة والعلوم الانسانية بالعربية والانجليزية والفرنسية .

● اصدرت الجمعية الجغرافية المغربية العدد الاول من « مجلة جغرافية المغرب » (ابريل 1978) ويتضمن ، نصوصا بالعربية واخرى بالفرنسية .

كانت السلسلة الاولى من مجلة الجغرافية المغربية قد توقفت عن الصدور 1973 .

● اصدرت الجمعية المغربية للفنون التشكيلية واتحاد كتاب المغرب بالرباط نشرة شهرية تحت اسم : (الاشارة) .

اول عدد : صدر يوم 24 ابريل 1978 .

● (أضواء) مجلة سياسية اقتصادية فنية صدرت بسلا باللغة العربية في شكل جديد .

اول عدد صدر : يبراير 1978 .

● صدرت بمدينة شفشاون جريدة اسلامية بعنوان (النصيحة) تصدر كل شهرين .

صدر أول عدد في يبراير — مارس 1978 . وهي أول جريدة تصدر بالمدينة .

● (الفتح) مجلة أسبوعية سياسية جامعة باللغة العربية صدرت بالدار البيضاء .

اول عدد 24 مارس 1978 .

● (مجلة الواجب الوطني) تصدر بالدار البيضاء باللغة العربية والفرنسية كل ثلاثة اشهر .

صدر اول عدد : ابريل 1978 .

● (اخبار السوق) كاريكاتورية اسبوعية سياسية شعبية تصدر باللغة العربية بالرباط .

صدر العدد الاول في ابريل 1978 .

● مجلة ساتريكس : Satrix تصدر نصف شهرية باللغة الفرنسية بالرباط .

العدد الاول — يبراير 1978 .

● اعلنت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالمغرب انه خلال عملية الحرث التي كان يقوم بها احد المواطنين من قيادة بوعزيز الشمالية باقليم الجديدة عثر على 739 قطعة نقدية من الفضة يرجع عهدها الى عصر مولاي الحسن الاول ومولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ وهي موزعة كالآتي :

— 403 قطعة من فئة ربع ريال .
— 210 قطعة من فئة درهم حسني .
— 123 قطعة من فئة نصف ريال .
— 3 قطع من فئة ريال .

وطبقا لمقتضيات الظهير الشريف المؤرخ في 11 شعبان 1364 الموافق 21 يوليوز 1945 والمتعلق بصيانة وحفظ الاثار بالمملكة المغربية فقد تم تحويل تلك المجموعة النقدية وفق الاجراءات الادارية الى الاختصاص بمصلحة الاثار بالرباط قصد الدراسة والتصنيف والعرض ضمن المجموعة الوطنية التاريخية .

● نظمت شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس بتعاون مع شعبتي التاريخ واللغة العربية وادابها بكلية الآداب بالرباط ندوة بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاة ابن رشد وكان موضوعها : **« ابن رشد ومدرسته في الغرب الاسلامي »**

وقد استغرقت الندوة ثلاثة ايام : 20 و 21 و 22 ابريل 1978 بكلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط .

● شارك الاستاذ محمد الفاسي رئيس جمعية الجامعات الاسلامية في اجتماع لجنة من العلماء في نيامي عاصمة النيجر بدعوة من المؤتمر الاسلامي وذلك قصد دراسة موضوع انشاء جامعة اسلامية بمدينة — نيامي — ووضع الاسس الجامعية والمعمارية لهذا المشروع .

● صدر للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله كتاب باللغة الفرنسية حول قضية الصحراء بعنوان :

« Vérité sur le Sahara »
Editions Horvath - Lyon - France (1977)

حلل فيه « المسيرة الخضراء » وكتاب صاحب الجلالة « التحدي » .

تونس :

● نشرت مجلة « الهداية » التونسية في عددها 4 (السنة 5) فتوى للاستاذ عبد الله كنون امين عام رابطة علماء المغرب حول الاحرام بالطائرة قدمتها المجلة بقولها : « وافانا فضيلة الشيخ عبد الله كنون من علماء المغرب الشقيق بفتواه حول الاحرام من الطائرة . ويسر « الهداية » أن تنشر هذه الفتوى لما فيها من تعضيد لفتوى العلامة المرحوم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التي نشرناها في العدد 2 من السنة 5 الصادر في نوفمبر 1977 » .

● احييت الذكرى العاشرة لوفاة الاديب التونسي احمد خير الدين . واقيم بالمناسبة حفل تكريم بدار الثقافة « ابن رشيق » حضره جمع غفير من رجال الادب والفكر والفن . كما نظمت ندوة ادبية بالمناسبة.

● صدرت عن دار الراية للنشر والتوزيع بتونس الكتب التالية :

— كلمات الى حواء (الجزء الاول) نازك الملائكة .
— نظرية الاسلام السياسية لابي الاعلى المودودي
— المراة المسلمة والحجاب ، لعبد الله بن عبد الرحمن آل سعد .

مصر :

● خصصت مجلة الثقافة (عدد 54 مارس 1978) جزءا من صفحاتها للمرحوم الدكتور محمد صبري السربوني شارك فيه عدد من الكتاب المصريين . ومن المعلوم ان الدكتور السربوني توفي في مستهل هذه السنة عن عمر يناهز 90 سنة ، وخلف وراءه

عشرات المؤلفات التاريخية والادبية القيمة ، نذكر منها : شعراء العصر (جزءان) — الثورة المصرية باللغة الفرنسية صدر سنة 1919 — المسألة المصرية باللغة الفرنسية (صدر سنة 1920) — محمود سامي البارودي — تاريخ مصر الحديث من محمد علي الى اليوم (صدر سنة 1926) — الثورة الفرنسية ونابليون .

● (العقل فى التصوف) موضوع رسالة ماجستير تقدم بها محمد الشرقاوي المعيد بكلية دار العلوم بالقاهرة .

● صدر كتاب جديد عن (أسباب الجمال اللغوي فى القرءان الكريم) من تأليف وجدي زيد المعيد بقسم اللغة الانجليزية جامعة القاهرة .

● (حجة الاسلام الامام ابو حامد الغزالي وأثره فى الفقه) موضوع رسالة دكتوراه تقدم بها جمال الدين ابراهيم دسوقي بجامعة الازهر .

● صدرت فى القاهرة الكتب التالية :

— مقدمة الى فلسفة التربية . كتاب جديد ترجمه د. نظمي لوقا من تأليف جورج تيلو الاستاذ بجامعة كاليفورنيا .. وصدر عن دار المعارف .

— حدود النمو . عنوان كتاب عن المازق الذي تواجهه البشرية وسببه نقص الموارد وزيادة السكان .. الكتاب من ترجمة محمد مصطفى غنيم .. وصدر عن دار المعارف .

— تاريخ التاريخ . عنوان الكتاب الجديد من سلسلة كتابك التي تصدرها دار المعارف ويحكي قصة التدوين التاريخي منذ القدم حتى العصر الاسلامي .. الكتاب بقلم علي ادهم .

— « معوقات النمو المتكامل للطفل فى المرحلة الابتدائية » (الطبعة الثانية) ، تأليف السيدة زكية حجازي .

— « المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم : دراسة مقارنة » كتاب جديد للدكتور أحمد عتمان .

— « ضمن سلسلة كتابك » صدر كتاب « الدراما الاغريقية » لعلي الشلش .

— الشاعر حسن فتح الباب .. اللواء بوزارة الداخلية المصرية والحاصل على دكتوراه فى القانون الدولي .. صدر له اخيرا كتاب موسوعي شامل — تعدى الـ 700 صفحة ، عنوانه « المنازعات الدولية ودور الامم المتحدة فى حل المشكلات المعاصرة » ..

يضم الكتاب رسالة الدكتوراه التي قدمها حسن فتح الباب الى كلية الحقوق جامعة القاهرة ويركز فيها على دور الامم المتحدة فى حل المشكلات العالمية المعاصرة محللا الدور الدبلوماسي لاطراف المواجهة المباشرة وغير المباشرة والقوى الكبرى فى قضية فلسطين والقرارات والتوصيات الخاصة بها أو الحرب الدبلوماسية الخفية حول فلسطين فى الامم المتحدة .

— « الاجرام السياسي » للدكتور ممدوح توفيق ... يعالج الكتاب نظرية الاجرام السياسي ... والجرائم السياسية خاصة الارهاب والاغتيالات واختطاف الطائرات والافعال الماسة بأمن الدولة ..

— تنشر دار الشعب كتاب « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » لابن حيان الاصبهاني فى حلقات مسلسلة . كما تنشر كتاب « البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد » لابن عجيبة .

— « روح مصر فى قصص يوسف السباعي » لحسن محسب . صدر عن دار المعارف .

ـــ « سارتر .. وانا » مسرحية للكاتب عامر النجار .. والمسرحية تهز من عمق فكر سارتر الوجودي الملحد .. وتنبري للدفاع عن الاسلام وعن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .. كما ترد على الفيلسوف الفرنسي فولتير الهجوم الذي وجهه الى الرسول والاسلام ..

● اعدت المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة مشروعا لانشاء صندوق التنمية الثقافية العربية فى الخارج ... يتضمن المشروع برنامجا لدعم دراسة اللغة العربية فى الجامعات بالخارج ودعم برامج تعليم العربية فى مدارس آسيا وافريقيا كما يتضمن المشروع انشاء مراكز ثقافية ودعم المؤسسات العلمية الاجنبية بالكتب العربية .

● حصل الاستاذ محمد عبد الله عنان عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة والباحث المتفرغ فى الخزانة الملكية بالرباط على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عن سنة 1977 ، منحت له بالجلسة التي عقدها مجلس الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة فى يوم الخميس الثامن عشر من المحرم سنة 1398 ، الموافق : للتاسع والعشرين من شهر ديسمبر سنة 1977 .

● « اللغة العربية عبر القرون » كتاب جديد للدكتور محمود فهمي حجازي أستاذ علم اللغة بجامعة القاهرة صدر من دار الثقافة للنشر .

● الدكتور صلاح فضل صدر له عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مؤلف جديد بعنوان (منهج الواقعية فى الابداع الادبي) .

● عن دار المعارف صدرت للدكتور نبيل راغب دراسته الجديدة عن (معالم الادب العالمي المعاصر)

● صدر كتاب جديد للكاتب الاسلامي الكبير عبد الرزاق نوفل بعنوان : « من صنع الله » . عن دار اخبار اليوم ضمن السلسلة الثقافية «كتاب اليوم » .

العـــــراق :

● صدرت فى العراق مجلة بعنوان : « احياء التراث العربي الاسلامي » فصلية تصدرها جمعية احياء التراث العربي الاسلامي فى بغداد .

● من الكتب التي صدرت فى العراق أخيرا :

ـــ منطلقات اشتراكية فى قضايا الثقافة والادب والفن : لعزيز السيد جاسم .

ـــ الشوق والكلمات : لراضي مهدي السعيد .

ـــ الآثار الخطية فى المكتبة القادرية فى جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني تاليف الدكتور عماد عبد السلام رؤوف .

ـــ شعر ابن طباطبا العلوي ، تحقيق وتقديم : جابر الخاقاني .

● شهدت مدينة بغداد مؤخرا المؤتمر الثاني للاعداد البيليوجرافي للكتاب العربي تحت اشراف المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة « قسم التوثيق والاعلام » .

السعودية :

● منحت كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة أول درجة دكتوراه عن البحث الذي قدمه السيد شرف بن علي الشريف فى موضوع : « الاجارة الواردة على عمل الانسان » .

● اقامت جامعة الرياض قسم الاعلام بكلية الآداب اول ندوة للدراسات الاعلامية فى العالم العربي دعي اليها رجال الاعلام والمتخصصون فى مجالاته المختلفة .

وقد تباحث المجتمعون على مدى خمسة أيام كل قضايا الاعلام ومشاكله فى الوطن العربي .

وقد وافقت الندوة فى ختام اجتماعاتها على الدعوة الموجهة من قسم الاعلام فى جامعة « قاريونس » ببنغازي بليبيا لعقد اجتماع تمهيدي بالتعاون مع جامعة الرياض ومركز الدراسات العربية للسكان والتنمية ، وتشارك فيه منظمة اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

● دعت الامانة العامة لجائزة فيصل العالمية المنظمات الاسلامية والجمعيات والاتحادات الاسلامية فى جميع انحاء العالم لترشيح من تراه مستحقا لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الاسلام ، كما دعت الجامعات والمجامع العلمية واللغوية ومراكز البحوث والمؤسسات العلمية الاخرى لترشيح من تراه مستحقا لجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الاسلامية فى مجال « الدراسات التي تناولت أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الاوربية » ... ولجائزة الملك فيصل العالمية للادب العربي فى مجال : « الدراسات التي تناولت الشعر العربي المعاصر » .

● أصدر عبد العزيز مشري ديوانه الشعري الجديد « لو تأتين » وهو صورة صادقة يعبر فيها الاديب عن احساسه بالحياة والحب من خلال قصائده التي يضمها ديوانه الجديد .. عبد العزيز مشري قام برسم لوحات فنية لجميع قصائده ويعتبر من الادباء الشبان فى المنطقة الشرقية بالسعودية .

ليبيا :

● بلغ عدد المطبوعات المحلية فى ليبيا خلال سنة 1977 ، 27 مطبوعا ما بين مجلة وصحيفة صدرت عن « الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان » .

● « مواسم الفقدان » ديوان جديد للشاعر الليبي على الفزاني .

● صدر للشاعر الليبي مصطفى كمال سلام كتابان « شعراء وقصائد » و « ذكريات من الجهاد الليبي » وهما عن تاريخ الجهاد العربي الليبي ، وبعض القصائد الشعرية للمجاهدين .

● صدر للاديب الباحث علي مصطفى المصراتي كتاب بعنوان « نماذج فى الظل » . وهو عبارة عن دراسة فنية وتاريخية لعدة شخصيات ادبية ليبية . كما صدر لنفس المؤلف كتاب « مؤرخون فى ليبيا » .

● الكتاب الاول من سلسلة كتاب الشعب الشهري صدر بعنوان : « اغاني العلم » وهو يبحث فى التراث الشعبي .

● « تاريخنا » كتاب فى خمسة مجلدات عن تاريخ ليبيا أصدره الكاتب الليبي صادق النيهوم . وهو يغطي عصور ما قبل التاريخ الى مطلع القرن الحالي .

أبو ظبي :

● قررت دولة الامارات العربية المتحدة تخصيص مبلغ خمسة ملايين دولار لاقامة مدرسة اسلامية فى ممباسا على الساحل الشرقي لافريقيا باسم : (مدرسة الشيخ خليفة بن زايد الاسلامية) .

وقد أمر الشيخ خليفة بن زايد ولي عهد أبو ظبي ونائب القائد الاعلى للقوات المسلحة بدولة الامارات العربية بتخصيص هذا المبلغ عقب اجتماعه بوفد من الاعضاء المسلمين فى مجلس النواب بكينيا بشرق افريقيا .

قطر :

● صدر عن مؤسسة دار العلوم بالدوحة بدولة قطر ديوان : « رحلة سندبادية » للشاعر عبد الله البشير .

الكويـــــت :

● عن سلسلة « عالم المعرفة » صـدر كتـاب « الولايات المتحدة والمشرق العربي » تأليف الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى .

الســـــودان :

● (الطبيعة عند المتنبي) عنوان الكتاب الجديد الذي الفه الكاتب السوداني الدكتور عبد الله الطيب، الجديد فى الكتاب اشارة الى ان ابا العلاء المعـري اخذ فكرة (رسالة الغفران) كلها من شطحـات ابى الطيب فى قصيدته « ما أجدر الايام و الليالـي بأن تقول ماله ومالي » .

لبنـــان :

● فى مذكرات الزعيم اللبناني كمال جنبلاط التي تنشرها مجلة الوطن العربي الصادرة فى لندن جـاء تحت عنوان جانبي : « العالم العربي بعد 20 سنة » ما يلـي :

« سيظل الاسلام يلعب دوره المؤثر . ولا بـد من الاعتراف بان العرب لن يتماسكـوا مـن دون الاســلام » .

● صدرت عن دار الطليعة فى بيـروت كتـاب (الاسلام فى عظمته الاولى ـ من القرن الثامن حتـى القرن الحادي عشر الميلاديين لمؤلفه ـ (مـوريس لومبار) قام بترجمته (ياسين الحافظ) ويقـع فى 207 صفحات من الحجم الكبير . جاء فى التعريف بالكتاب انه عـرض تاريخـي سوسيولوجـي ـ اقتصادي شامل لعظمة الاسلام الاولى .

● اصبح الشاعر اللبناني خليل حاوي أول شاعر من الشرق الاوسط تحفظ أشعاره الاجيال القادمة بأرشيف آداب الشرق الاوسط وآسيا المسجلة على أشرطة لمكتبة الكونجرس الامريكية .

.. والغرض من الارشيف ايجاد مكتبة لقراءات شعرية مسجلة على أشرطة بلغات الشرق الاوسـط وآسيـا .

جيبوتـــي :

● اكد الرئيس حسن جوليـد رئيس جمهوريـة جيبوتي فى حديث صحفي أن الاماكـن المقدسـة الاسلامية فى القدس يجب أن تعـود الى الاسـلام والمسلمين الامر الذي يستدعي توحيد كلمة العرب والمسلمين فى مشارق الارض ومغاربها والوقوف صفا واحدا امام اعداء الاسلام .

بـاكستـــان :

● انعقد فى لاهور المؤتمر الدولي للصحة النفسية، وذلك من 24 الى 26 فبراير الماضي ، وشارك فيه الدكتور لنفورد ربز رئيس الجمعية العالمية للطـب النفسي ، واطباء ، من أنحاء العالم من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والهند والعراق ومصر والسعودية والسودان والهيئة الصحية العالمية ، وتم الاتفـاق بين ممثلي الدول الاسلامية على انشاء اول جمعيـة اسلامية عالمية للطب النفسي ، وايد رئيس الجمعية العالمية هذا الاتجاه ووعد بتدعيمه .

وكان المؤتمر الدولي فى باكستان قد بحث فى جلساته اخطر مشكلة نفسية فى العالم الان وهـي الاكتئاب العام فى المجتمعات ووسائل الوقاية منـه بعد انتشاره بشكل كبير بالاضافـة الى المشاكـل الجنسية والنفسية ومشاكل الادمان .

النيجــــر :

● انتهى المهندسون من اعداد التصميمات الخاصة باقامة مركز اسلامي ضخم فى جمهورية النيجر .. المركز يقام فى منطقة « ساى » بالنيجر .. ويضـم مسجدا ومدرسة ومكتبة ومستشفـى ، يتكلـف المشروع حوالي 80 مليون دولار . وتموله البـلاد الاسلاميـة .

فرنسا :

● أصدر السيد - اتيليو كاودبو - الصحفي والكاتب الايطالي المعروف في باريس كتابا يحمل عنوان : (ملف الصحراء الغربية) عن دار النشر (نوفيل ايديتيون لاتين) .

ويحتوي الكتاب على 900 صفحة كلها وثائق وأحداث هامة تحكي تاريخ الاقاليم المغربية والموريتانية ابان الحماية الى ان تم تحريرها ..

وتتصدر غلاف الكتاب صورة لجلالة الملك الحسن الثاني وهو يستقبل بالقصر الملكي أعضاء الجماعة الصحراوية يتقدمهم الرئيس الحاج خطري ولد سعيد الجماني .

وجدير بالذكر ان السيد (كاودبو) يعتبر من ابرز المتخصصين في قضايا المغرب العربي وافريقيا الاستوائية في ايطاليا ..

وقد نشر عدة مؤلفات نذكر منها على الخصوص (صحراء الافارقة - سنة - 1960) .. وكتاب (الريف .. أرض البطولة والاساطير - سنة 1963) وكتاب (حضارات الصحراء سنة 1968) ، وكتاب (علال الفاسي سنة 1965) .

● صدرت مؤخرا في العاصمة الفرنسية الموسوعة الادبية الجديدة (تاريخ الادب في فرنسا) وتتكون من 12 جزءا .

وتتعرض الموسوعة لتاريخ اللغة الفرنسية واشهر اللغويين الفرنسيين وغيرهم ، كما تتعرض لتاريخ الاداب الفرنسية قديما وحديثا وتلقي الضوء على التاريخ السياسي والاقتصادي للبلاد ، وتركز على توضيح العلاقة بين التاريخ والادب باعتباره مرآة صادقة لتاريخ وحضارة الامة .

وقد افردت الموسوعة جزءا خاصا لالقاء الضوء على حياة اشهر الكتاب والفنانين والموسيقيين والنقاد الذين لعبوا دورا بارزا في تاريخ الاداب الفرنسية مع عرض وتحليل لاهم اعمالهم .

وقد اشترك في تاليف هذه الموسوعة الضخمة ما يقرب من 200 من المتخصصين الفرنسيين في مختلف المجالات الادبية واللغوية .

● اعلنت جمعية برنار كابان في باريس عن قبول طلبات الترشيح للحصول على الجائزة الدولية للصحافة - برنار كابان - لعام 1978 والمخصصة للصحفيين العاملين بوكالات الانباء اعتبارا من 21 مارس وحتى 15 مايو 1978 .

ايطاليا :

● تصدر قريبا في روما دراسة عن « ابو فراس الحمداني » للمستشرق الايطالي البروفسور فرانشسكو جبريللي استاذ الادب العربي في جامعة روما . وستقوم الجامعة العربية بمهمة طبع الكتاب ونشره .

ويعتبر هذا الكتاب من المحاولات الجادة والرائدة في مجال نشر الادب العربي بين الكتاب والادباء الايطاليين الذين اخذوا يهتمون بنوع خاص بقضايا الادب العربي والثقافة العربية .

المانيا :

● وافقت الحكومة الالمانية على حق الطلبة المسلمين في تلقي تعاليم دينهم واعتبارها مادة اساسية في المدارس الالمانية .

وجدير بالذكر ، أن مئات الآلاف من ابناء المسلمين - وخاصة من الاتراك - يزاولون تعليمهم في مختلف المدن الالمانية . ومن ضمنهم جالية كبيرة من ابناء العمال المغاربة .

● شهريات ــ الفكر والثقافة

بريطانيــــــا :

● « هربرت صوارث » و « ابراهيم شكر الله » قاما بترجمة عدة مختارات من الادب العربي القديم والحديث الى اللغة الانجليزية واصدراها في كتاب في لندن باسم :

« Images from the A rab World »

ومعظم المختارات من الشعر القديم ــ المكتوب منذ حوالي 600 سنة ، وحرص الكتاب على ايــراد نماذج لكل اغراض الشعر القديم في الحب او الموت او القوى او الجمال .

وقد عرض الكتاب نماذجه الادبية دون اي شرح او تعليق او تحليل .

● « اديسون صانع المستقبل » ، كتاب جديــد صدر للكاتب البريطاني رونالد كلارك ، يتناول فيــه قصة حياة وانجازات المخترع الامريكي الشهير الذي كان المصباح الكهربائي والتليفون والفوتوغراف من اشهر اختراعاته .

● صدرت في لندن عن دار نشر (أوربا بابليكاشن) موسوعة جديدة عن أهم الشخصيات العالمية التـي لعبت دورا رئيسيا خلال عام 1977 وتحتوي الموسوعة على سيرة اكثر من 17 الف شخصيــة من أبــرز شخصيات العالم التي اكتسبت اعترافا دوليــا في كافة مجالات النشاط الانساني . وتقــع في 1900 صفحــة .

الاتحــاد السوفياتــي :

● تبدأ في 8 سبتمبر القادم على مسرح البولشوي في موسكو الاحتفالات بذكرى مــرور 150 سنة على مولد الروائي الروسي تولستوي في حضور كبــار الشخصية الادبية والتي سيدعوها الاتحاد السوفياتي الى حضور هذا الاحتفال الذي يستمر 50 يوما يقام في نهايته في المدينة العائمة فينتسيا في ايطاليا لقاء عالمي بين الكتاب والفنانين تحت شعار : « انسانية تولستوي » .

سيصدر السوفيات مؤلفات الروائي الكبير في 22 مجلدا كما سيصدرون مليون نسخة من مؤلــف تحت عنوان (ابداعات تولستوي) .




ثقــافــة الصحــراء

● اصدر الدكتور عباس الجراري ثلاثة كتب في تاريخ الادب والثقافة المغربية . الاول بعنــوان : « الفضال في الشعر العربي بالمغرب » . والثاني عن : « ثقافة الصحراء » ، والثالث في موضوع « معجم مصطلحات الملحون » .

طبعة عربية من كتاب
القرآن والتوراة والانجيل والعلم

● أخرجت دار المعارف فى مصر طبعة عربيةلكتاب المؤلف الفرنسي الشهير الدكتـــور موريس بوكاي الصادر باللغة الفرنسية بعنوان : « القـــرآنوالتوراة والانجيل والعلم » .

الطبعة العربية للكتاب صدرت تحـــت هـــذاالعنوان : « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ».

ولقد اكد المؤلف الفرنسي ان العلم الحديـــثيتفق مع كل ما جاء فى القرآن الكريم فى الطبيعـــة والفلك والطب . ولانه طبيب ولادة فقد كان اهتمامهعظيما بتكوين الاجنة فى بطون أمهاتها والذي وجده د. بوكاي فى القرءان الكريم وآياته الحكيمة فهو فىمنتهى الدقة العلمية التي ليس لها نظير فى كتـــاب « مقدس » ، بل ان الدكتور بوكاي اذهل علماء الولادةفى العالم عندما سألهم هل يوجد فيما كتب بكـــل اللغات الاوربية نظرية واحدة عن الاجنة منـــذ 14قرنا ؟ ؟ . وكان الجواب : ان الغرب لم يعرف شيئا من ذلك . وكان رده هو : ولكن كتابا مقدسا ظهر من14 قرنا ونزل على رجل أمي عربي قد جاء بنظريـــة كاملة دقيقة لتكوين الجنين فى بطن امه .

ونشير الى أن الاستاذ محمد العربي الخطابيوزير الاعلام المغربي قدم عرضا مركزا لكتاب الدكتور بوكاي فى أحد أعداد السنة الماضيـــة للزميلـــة« المناهل » . وقد ظهرت نسخ محدودة من هـــذا الكتاب فى طبعته الاصلية باللغة الفرنسية فى مكتبات الربـــاط .

ولقد أجمع عدد كبير من المفكرين والكتاب فىالوطن العربي والاسلامي ان كتاب د. بوكاي ينبغي ان يوزع على نطاق واسع ويدرس سواء كمـادة للغـــةالفرنسية أو العلوم الطبيعية فى الكليات المتخصصة .

وبالنسبة للمغرب فانه ينبغي أن يعتني بهذا الكتابعناية خاصة ويعمم على الثانويات وكليات الجامعة . وتقدم عنه ندوات وحوارات اعلاميـــة فى مختلـــفاجهزة الاعـــلام .